

سلسلة اللغة العربية

السلسلة المتكاملة للغة العربية تُنفرد بنشرها دار العلم والإيمان

المنجد في

الأدب والنصائح

الدكتور

محمد علي سعد

أستاذ الأدب والتقد

جامعة الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

المنجد
في
الأدب والنصوص

الدكتور
محمد على سعد

العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق / ميدان المحطة / شارع الشركات

ت : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١

ف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١

رقم الإيداع :

٢٠٠٦/١٧٥٠٨

الترقيم الدولي

I.S.B.N. 977- 308- 070- 6

جمع وإخراج:

عبير السيد أبو شبل

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

تحذير:

يحذر النشر أو النسخ أو التصوير أو الاقتباس بأي شكل

من الأشكال إلا بإذن وموافقة خطية من الناشر

م٢٠٠٧

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين
وبعد ،

فهذه مختارات شعرية وتثرية من العصور الأدبية منذ العصر
الجاهلي وحتى العصر الحديث ، راعينا في اختيارها الدقة وفي عرضها
وشرحها السهولة واليسر ، لتتناسب مع كل الأنواع والثقافات سائلين
الله أن ينفع بها طلاب العلم والمعرفة ،
والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل .

د / محمد علي سعد

الأدب في العصر الجاهلي

يُعد الأدب في العصر الجاهلي - وبخاصة الشعر - ديوان العرب ، وصورة مشرقة حية لهذه الفترة إذ يعتبر سجلاً أميناً لكل مظاهر الحياة بكل صورها ، وتاريخياً دقيقاً لأحداث هذا المجتمع وتطوره ، وذلك من خلال أسلوب أدبي ولغة أدبية جذابة شائقة مؤثرة ممتعة .

ويجدربنا أن نشير إلى أن الأدب الجاهلي مُثل الحياة الجاهلية بكل ألوانها - السياسية والاجتماعية والعقلية ، تمثيلاً صادقاً ، في صورة ناطقة بأحاسيس ومشاعر الأدباء والشعراء .

مميزات الأدب الجاهلي: .

بالرجوع إلى الأدب الجاهلي والنظر فيه من ناحية الشكل والمضمون، هما ركننا الأدب وأهم خصائصه - يمكن أن نحصر مميزاتة فيما يلي :

١. المفروض أن الشعر هو الفن الأدبي الأول الذي سيطر على هذه الحياة البدوية ما دام الشعر لغة الطفولة الإنسانية ، وأسبق الفنون الأدبية إلى الوجود .

٢. تمتاز العاطفة في الأدب الجاهلي بالصدق ، وذلك لما امتاز به الجاهليون من الحرية والاعتزاز بالنفس ، فلم يكن هناك ما يدعوا إلى النفاق والمداراة ، وقد كان منهم من هجا الملوك والرؤساء وعرض نفسه للهرب أو الهلاك بسبب صراحته وصدق شعوره كطرفه والمتلمس ، وإن لم تصل العاطفة إلى ما نطلق عليه الآن " سمو العاطفة " والنزعة الإنسانية العامة، ولعل ذلك نابع من تأثر الأدب في تلك الفترة بالحياة المادية .

٣. ومن ناحية الفكر فإننا نلاحظ أنها ثمرة تجارب شتى ، وأفكار متناثرة تمثل الذكاء وحدة الذهن ، ولا تمثل النظرة الشاملة أو المنطقة المسلسل المستقيم ، وذلك راجع إلى انعدام الحياة العقلية الراقية ، فكان الأدب الجاهلي يقوم على الشعور على هذه التجارب العادية والضروريات الطارئة .

٤. أما الخيال ، فهو الخيال البياني أو التفسيري القائم على الاستعارة والتشبيه والمحايز وما إليها وهذا النوع طبعي ما دام الأديب يتخذ عناصر هذا الخيال من البادية ، فالرجل العظيم فحل ، أو قرم أو هبل ، والناقة في سرعتها كالحمار الوحشي ، والرجل السريع كالظلم أو الحصان ، والكريم كالبحر ، والشجاع كالأسد ، والمرأة كالغزال والبقرة الوحشية ، وهكذا يتخذ موضوعاته الوصفية وعناصره الخيالية من الصحراء والسماء والكواكب والحيوان ، فهو أدب حقيقي قلما تجد فيه مبالغة تخالف ظروف العصر وأحواله .

٥. أما من ناحية الأسلوب ، فهو الأسلوب الطبيعي العربي الخالص القائم على قلة الترادف والتكرار ، وعدم الثثرة ، وعدم الاهتمام بالفنون البديعية ، وذلك لقرب اللغة من عهدها الطبيعي البسيط ، وكذلك الميل إلى الإيجار ولا سيما في النثر ، كما كان الأسلوب خالبا من اللحن .

ولسنا ممن يقول بغرابة اللغة الجاهلية أو صعوبة عبارتها ، فذلك يجب أن يقاس بمستوى ومصارف الجاهلين أنفسهم ، وما دام هذا الأدب مفهوما لديهم يتلقونه ويعارضونه ويتأثرون به ، فهو أدبهم السهل الطبيعي المعروف .

والأدب الجاهلي بهذه الصورة سيعطل معينا لا ينضب للأدباء والدارسين على مر العصور واختلاف الأماكن .

نونية (الثقب العبري)

هذه القصيدة من بحر " الواقف "

نص القصيدة :-

١. أفاطم قَبِلَ بينك متعيني
ومنعك ما سألت كأن تبينى
٢. ولا تعدى مواعد كاذبات
تمر بها رياح الصيف دوني
٣. فإني لو تخالفني شمالي
خلافك ما وصلت بها يميني
٤. إذا لقطعتها ولقلت بيني
كذلك أجتوى من يجتويني
٥. لمن ظعن تطالع من ضبيب
فما خرجت من الوادي لحين ؟
٦. تبصر هلى ترى ظعنأ عجلاً
بجنب الصحصحان إلى الوجين ؟
٧. مررن على شراف فذات رَجَلٍ
ونكبين الذرائح باليمين
٨. وهن كذاك حين فقطعن فلجا
كأن حدوجهن على سفين
٩. يشبهن السفين وهن بخت
عراضات الأباهر والشؤون

١٠. وهن على الرجايز واكنات
قواتل كل أشجع مستكين
١١. كغزلان خذلن بذات ضال
تنوش الدانيات من الغصون
١٢. ظهرو بكلة وسدلن رقما
وتقبن الوصاوص للعيون
١٣. أرين محاسناً وكنن أخرى
من الدياج والبشر المصون
١٤. ومن ذهب يلوح على تريب
كلون العاج ليس بذى غضون
١٥. وهن على الظلام مطالبات
طويلات الذوائب والقرون
١٦. بتلهية أريش بها سهامي
تبذ المرشقات من القطين
١٧. علون رباوة ، وهبطن غيباً
فلم يرجعن قائللة لحين
١٨. فقلت لبعضهن وشد رحلي
لهاجرة نصبت لها جينيبي
١٩. لعلك إن صرمت الحبل مني
كذاك اكون مصحبتي قروني

٢٠. فسل لهم منك بذات لوث
عذافة كمطرقة القيون
٢١. بصادقة الوجيف كأن مرأ
يباريها ويأخذ بالوضين
٢٢. كساها تامكا قرداً عليها
سوداي الرضيخ مع اللجين
٢٣. إذا قلت شدت لها سنافا
أمام الزور من قلق الوضين
٢٤. كأن مواقع التفنات منها
معرس باكرات الورد جون
٢٥. يجذ تنفس الصعداء منها
قوى النسع المحرم ذي المتون
٢٦. تصك للجانبين بمشفت
له صوت أبح من الرنين
٢٧. كأن نفي ما تنفى يداها
قذاف غريبة بيدي معين
٢٨. تسد بدائم الخطران جئـل
خوايبة فرج مقلات دهمين
٢٩. وتسمع للذباب إذا تغنى
كتغريد الحمام على الوكون

٣٠. وألقيت الزمام لها فنامت
لعادتها من السدف المبين
٣١. كأن مناخها ملقى لجام
على معزائها وعلى الوجين
٣٢. كأن الكور والأنساع منها
على قرواء ماهرة دهين
٣٣. يشق الماء جوجؤها وتعلو
غوارب كل ذي حدب بطين
٣٤. غدت قوداء منشقا نساها
تجاسر بالنخاع وبالوتين
٣٥. إذا ما قمت أرحلها بليل
تأوه آهة الرجل الحزين
٣٦. تقول إذا دارأت لها وضيئي
أهذا دينه أبداً وديني؟
٣٧. أكل الدهر حل وارتحال
أما يبقي على وما يقيني؟
٣٨. فأبقى باطلاي والجد منها
كدكان الداربنة المطين
٣٩. تثبتت زمامها ووضعت رجلي
ونمرقة رفدت بها يميني

٤٠. فرحت بها تعارض مسبطراً

على صحصاحة وعلى المتون

٤١. إلى عمرو ومن عمرو لتتني

أخي النجدات والحلم الرصين

٤٢. فإما أن تكون أخي بحق

فاعرف منك غنى من سميني

٤٣. وإلا فاطرحنى واتخذني

عدواً أتقرك وتتقونني

٤٤. وما لدرى إذا يمت وجهها

لريد الخير أيهما يلينني

٤٥. الخير الذين أنا أبتغيه

لم الشر الذي هو يبتغيني ؟

الدهيف بالشاعر (١)

هو عائد بن محسن بن ثعلبة بن وائلة بن نكرة بن عبد القيس بن أسد بن ربيعة . ولقب بالثقب لبيت قاله هو :

ظهن بكفة وسملن رقما وثقبن الوصاوص للعيون .

لم تجد المصادر الأدبية بشيء يكشف النقاب عن حياة الثقب الأسرية . وكل ما لدنيا أن أباه - محسن بن ثعلبة - كان رجلاً مرموقاً في قبيلته . لقب بالصلح لأنه قام بالصلح بين قبيلتي بكر وتغلب . وكذا قبيلتي عوف وعامر . وفي هذا يقول الثقب :

١ - نظر ترجمته في : شرح المفصليات للتهريزي ٢ / ٥٥٥ ، طبقت فحول لشعراء لابن سلام الجصي ١ / ٢٧١ ، شعر وشعراء لابن قتيبة ١ / ٣٩٥ .

أبي أصلح الخيين بكرةً وتغلباً

وقد أرعشت بكر وخف حلومها

وقام بصلح بين عوف وعمر

وخطه فصل ما يعاب زعيمها

ومما لدينا أيضاً أن أخته هي أم شاس بن نهار العبدي الشاعر المعروف

باسم الممزق ، أما تاريخ مولده فمجهول وتوفي سنة (٥٨٨ م) .

كـ والمتقّب العبدي من شعراء عبد القيس ، وهي إحدى قبائل البحرين التي

دانست بالنصرانية في الجاهلية ، ولذا عده الأب لويس شيخو ضمن

الشعراء النصرانيين في كتابه الشعراء النصرانية في الجاهلية ، ومما

يشير إلى نصرانيته ذكره للفظ الجلالة مرجئاً إليه الثواب والجزاء في قوله :

فجزاه الله من ذي نعمة

وجزاه الله إن عبد كفر

كما جاء مقرا بمشيئة الله بعد تيقنه ، في قوله :

وأيقنت إن شاء الإله بأنه

سيبلغني أجلاها وقصيدتها

ومن أقواله التي نستشف منها لوناً من ديانته ، والتي تومى إلى وجود إله

مدبر ، فتعكس لوناً من نصرانيته :

وما أدري إذا يممت وجهها

أريد الخير أيهما يليني

أأخير الذي أنا ابتغيه

أم الشر هو يبتليني؟

☞ وقد تعددت ألوان الثقافات في شعر المثقب العبدى ، وإن في معظمها مستمدة من البيئة المحيطة به ، والأفكار السائدة فيها .

ومن أهم مظاهرها تلك الثقافة اللغوية التي تجلت في اتساع لغته الشعرية وتعدد مرادفاتها بصورة بينه تمكنه من اختيار اللفظ المناسب للمعنى المراد ، فجاءت ألفاظه دقيقة في مدلولاتها .

☞ كما اتسمت ثقافة المثقب ببعض السمات الحضرية ، ولعله اكتسبها من بيئته - البحرين لوقوعها في كنف مملكة الحيرة ، والاحتكاك بها ، هذا بالإضافة إلى ما للبحرين من سمات حضرية نتيجة لوقوعها على شاطئ الخليج العربي ، مما سهل لها حياة الاستقرار ، وفتح أمامها أبواب الرزق كالزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، والصيد ، فبدأ طبيعياً أن تتسم الحياة في البحرين بالسمة الحضري ، والتي أثرت بدورها في ثقافة المثقب .

☞ وكما تأثرت ثقافة المثقب العبدى بالبيئة المحيطة به بدت كذلك متأثرة بالمعتقدات السائدة فيها آنذاك ، فبدأ أثرها واضحاً جلياً في شعره .

☞ هذا وقد جاءت أشعار المثقب خير شاهد على طيب عنصره وسمو خلقه ، ومن أشعاره التي تؤكد ذلك قوله :

أجعل المال لعرضي جنة

إن خير المال ما أدى النزم

ومن أشعاره التي تشير إلى عزة نفسه وأنفته ، قوله :

أنا بيتي من معد في النرى

ولي الهامة والفرع الشم

وكذلك يتعفف عن الغيبة والفحش ، إذ يقول :

لا تراني راتعا في مجلس

في لحوم الناس كالسبع الضرم

وكلام سيء قد وقرت

عنه اذناى وما بي من صمم

ومن أقواله التي تدل على تسامحه وصفحه عند الإساءة إليه :

ولبعض اصفح والإغراض عن

ذي الخنا أبقى وإن كان ظلم

هم وقد تأثر بشعر المثقوب عديد من الشعراء المعاصرين له واللاحقين به

ومن هؤلاء : الطرماح ، والشماخ بن ضرار ، والنابعة الذبياني .

اللغة والمعاني :

أفطم قبل بينك متعيني

ومنك ما سألت كأن تبيني

ولا تعدي مواعد كاذبات

تمر بها رياح الصيف دوني

فإني لو تخالفني شمالي

خلافك ما وصلت بها يميني

إذا لقطعتها ولقلت بيني

كذلك أجتوى من يجتويني

اللغة :

افاطم : أراد أفاطمة ، فقطع آخر الأسم وهو الترخيم .

البين : البعد والفراق . **متعيني** : يريد متعيني بوصلك .

ومنحك ما سألت : أي منحك لوصلي . **كان تبينني** : أي كمفارتك عندي .

تمر بها : تذهب بها وتفرقها في كل وجه . وخص رياح الصيف دون سائر الأزمنة .

لأن الخير يقل فيها ويكثر غبارها ولا يجلب مطرا .

وقال الأستاذ " محمود شاكر " إنما عنى بريح الصيف مما يثور بينه وبينها

من الخلاف والعناد واليأس ، وكل ما يذهب بالمودة ويعصف بالمواعيد .

ابتنى : ابتعدني . **الاطواء** : الكراهة والاستئقال .

المعنى :

افتتح الشاعر قصيدته بخطاب مباشر إلى صاحبته - فاطمة - يستنكر فيه

عزمها على الفرقة والارتحال ، ويأمرها بأن تتمهل في فراقها حتى تصله كسابق

عهدا ، وأن تلتزم في وعودها دون خداع أو مواربة ، وإلا فلن يشفع لخداعها

مكانها في قلبه مهما تعاضم قدرة ، فلو أبي عزيز ، تأبى عليه نفسه أن يرتضي

الخنوع والاستسلام لنداء قلبه ، فلو قدر لشماله أن يخالف يمينه على شاكلة

صاحبته لقطعها دون تردد أو تريت ملوحا بها بعيداً عنه ، فلا حاجة به لمن رغب

عنه وأحب مفارقتة .

لمن ظعن تطالع من ضسبب

فما خرجت من الوادي لحين

مررن على شراف فذات رجل
ونكبن الذرانح باليمن
وهن كذاك حين قطعن فلجا
كأن حدوجهن على سفين
يشبهن السفين وهن بخت
عراضات الأباهر والشؤون

اللغة :

ضبيب : أسم مكان .
ذات رجل : موضع .
الذرانح : جمع ذرنخة . وهي الأكمة دون الهضبة ، وهو هنا موضع معروف بين كاظمة والبحرين .
نكبن : عدلن عنه .
ومعنى كذاك : أي حالتها الأولى يوم قطعن فلجاً ، وكأن حملهن على سفين .
السفين : جمع سفينة .
العراض : العريض المفرط .
الاباهر : الظهور ، وأصل الأبهرعرق في الظهر .
الشؤون : جمع شأن . وهي شعب قبائل الرأس التي تجري منها الدموع إلى العينين .

المعني :

ويحاول الشاعر أن يضيف صبغة واقعية على تجربته بتحديدده للأماكن التي مربها موكب صاحبه عند الارتقال ، من ضبيب ، والصحصان ، والوجين ، وشراف ، وذات رجل ، والذرانح ، وقد عمد الشاعر إلى ذكر هذه الأماكن لتحري

الدقة في وصفه للطريق ، كما أنها تحقق له المتعة واللذة بذكرها وتساعده على استحضار عناصر تجربته في جميع صورها ، هذا بالإضافة إلى كونها علامات على الطريق ترشد من ضل طريقة في البقاء .

ثم انتقل بعد ذلك إلى لقطة أخرى يشبه فيها إبل الموكب في ضخامتها وسرعة سيرها بانسياب السفن في الماء ، فهي طويلة ، عريضة الظهر ، تتمايل في سيرها كتمايل السفن في الماء .

ومن على الرجائز واكنات

قواتل كل أشجع مستكين

كغزلان خذلن بذات ضال

تتوش الدانيات من الغصون

ظهرن بكلة وسدلن رقما

وتقبن الوصاوص للعيون

أرين محاسناً وكنن أخرى

من البياج والبشر المصون

ومن ذهب يلوح على تريب

كلون العاج ليس بذئ غصون

ومن على الظلام مطلبات

طويلات الذوائب والقرون

بتلهية أريش بها سهامي

تبذ المرشقات من القطين

اللغة :

الرجائز : مراكب النساء ، جمع رجازة ، وهي أصغر من الهودج . واكنات
جلسات مطمئنات .

وقوله " قوائل كل أشجع ، أي كل رجل أشجع في نفسه مستكين لهن .

والاستكانة : الخضوع .

خذلن : جنحن .

ذات ضال : أسم موضع .

تنوش : تقطف .

الكلبة : غطاء يفرش على الهودج .

الرقم : البرود ، أو ضرب مخطط من الوشي .

الوصاوص : اليراقع .

البشر المصون : بعض بشرتها كاليد وبعض الوجه ، وما لا ريبة في إظهاره ،
وسترن ما عدا ذلك .

التريب : جمع تربية ، وتجمع على ترائب ، وهي عظام الصدر موضع القلادة .

الغضون : تثني الجلد .

على الظلام : أي على ظلمهن .

مطلبات : مطلوبات لفرط جملهن .

الذوائب : ضفائر الشعر المسترسلة على الظهر .

القرون : خصلة من الشعر بجوار الأذن .

تلهية : تفعلة من اللهو ، أي نصب الحباله لهن ، ونعد سهام اللهو فنرصد

لصيدهن .

تبه : تسبق .

المرشقات : الحديدات النظر ، وقيل لا يكون الارشاق إلا بمد العنق .

القطين : الخدم ، والجيران ، والتباع .

المعنى :

ثم انتقل شاعرنا إلى وصف جمال محبوبته ، وهي في معية صوحيباتها - حتى لا يظهر صورتها كاملة أمام السامعين ، متبعاً في ذلك تقاليد البادية العربية في ضرورة الحفاظ على المرأة وصونها فأشاد بفرط جمالهن حتى استطعن أن يقتلن بسهام نظراتهن كل شجاع في استكانه ويسر، حتى لا يملك من أمر نفسه إلى أن يستكين ويخضع لسلطان جمالهن ، والذي رحن يكشفن عن بعضه من البشرة الملتفة في أبهى ثياب من الديباج والحريس، والصدور البيضاء التي تشبه العاج في بياضه وإشراقه، مما مكنهن من استلاب قلوب الرجال في خفة ورشاقة كغزلان تنهاوى في رياض يانعة يقطعفن من ثمار غصونها الدانية، وهن على ظلمهن للرجال مطلوبات لفرط جمالهن ، فهن طويلات الذوائب والقرون ، ولذلك يحتال لهن الرجال ويعدون لهن سهام الصيد ليفوزوا بوجدهن ويلهوا بوصولهن .

علون رباوة ، وهبطن غيبا

فلم يرجعن قائلة لحين

فقلت لبعضهن وشد رحلى

لهاجرة نصبت لها جبينى

لعلك إن صرمت الحبل منى

كذاك أكون مصحبتى قرونى

اللغة :

الرباوة : ما ارتفع من الأرض .

الغيب : ما أطمأن من الأرض . فغاب عنك ما فيه . فلم يرجعن قائلة .

لحين : أي مستمرات في السير ، ولم يملن إلى قيلولة .

العاجرة : نصف النهار عند اشتداد الشمس ، وقوله لهاجرة أي من أجلها ،
وسميت هاجرة لأن السير بهجر فيها .

نصبت لها جبيني : أي وطننت نفسي على ركوبها .

وقوله صرمت الصل مني : يكي به عن هجرها له وقطعها لوصله .

مصصتي : نابعتي : يقال : ضربت البعير حتى أصبح أي تبع وانقاد .

قرونه : نفسه وموضع ، مصحبي مبتدأ وقورني خبره ، والجملة تفسير لقوله .

كذاك : وكذلك خير أكون ، والجملة تترجم عن جواب الشرط .

المعنى :

ويعاود الشاعر تتبعه لموكب صاحبتة في عزيمة وإصرار يتزود من حميتهما ما يمكنه من تحمل ويلات الطريق ووعثاونة ، وحرارة الهاجرة ولهبها ، فيعقبه عن حرص وكثب في صعوده وهبوطه ، ثم يقدم - هذه المرة - في جرأة على مخاطبة صاحبتة مباشرة محذراً لها ألا تنصرف عنه في وصلها وودها ، وإلا نالت منه مثل فعلتها فينصرف إلى نفسه ويصحبها بدلاً منها .

وهذا النهج وإن كان في ظاهرة يبدو مخالفاً لما يجب أن يكون عليه المحب مع محبوبته من التهالك والصبابة إلا أنه يتواءم مع حمية الجاهلي وصبوته واعتزازه بنفسه عند احتكاكه بما يؤله ويثير صبوته وبخاصة إذا كان في مقام الفخر كشان شاعرنا ، وإلى هذا المعنى أشار الدكتور / محمد أبو موسى في قوله :
" وهذا الضرب من الغزل الذي ترى حوله أنغام الاعتزاز والتغني بالفعال الكريمة وطبائع النفس الممتازة هو الشبه بالشخصية العربية ، والإنسان العربي في هذه

الحقبة من تاريخه وأن الصبوة وإنما تثير عند هذا العرسي الشعور بالتماسك والجلادة والقوة والشباب " (١)

ولعل الشاعر يرمز بصعود الموكب وارتحاله إلى مواقع تجربته مع صاحبتة وما يتخللها من شبوب في العاطفة وهدوء يعقبه .

فقل لهم عنك بذات لوث

عذافة كمطرقة القيون

بصادقة الوجيف كأن هراً

يباريها ويأخذ بالوضين

كساها تامكا قردا عليها

سوادى الرضيخ مع الوجين

إذا قلت شدت لها سنافا

أما م الزور من قلق الوضين

كأن مواقع الثغفات منها

معرس باكرات الورد جون

اللغة :

الهم : الحزن ، وهو عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل.

ناقعة ذات لوث : أي ذات قوة ، وقيل كثيرة اللحم ، واللوث من الأضداد بمعنى القوة والضعف .

العذافة : الشديدة القوية . **القيون :** جمع قين وهو الحداد .

الوجيف : السير السرى .

١- قرءة في الأدب القديم د محمد أبو موسى ص ٧٣ الطبعة الأولى دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٧٨م .

وقوله : بصادقة الوجيف بدل من قوله : بذات لوث .

بباريحا : يريد به ينافسها ويخشدنها . **الوضين :** حزام الرجل .

التامك : السنام المشرف . **القرود :** المجتمع الصلب .

السوادى : يريد علف السواد وهو القلت والنوي ، ونسبة إلى السواد لأنه علف الأمصار لا البدو .

الرضيخ : المدقوق من النوى .

اللجين : ما تلجن ولزق بعضه ببعض ، يريد أنها علفت حتى سمنت ، وركبها سنام مشرف .

السناف : خيط أو حبل رقيق يشد من اللبب إلى الوضين لضمر البعير .

الزور : الصدر ، أو العظم الذي في وسط الصدر .

الثغفات : ما مس الأرض من يديها ورجليها ومقدمة صدرها عند البروك ، وهن خمس .

المعرس : موضع التعريس ، والتعريس هو النزول آخر الليل . أو أوله .

باكرات الورد : أي مبكرات إلى الماء ، ويعني هنا القطا ، وهي طائر في حجم الحمام .

جون : سود ، وخص القطا الجوني للطاقته .

المعنى :

ثم يتخلص الشاعر من حديثه عن صاحبه إلى وصف ناقته التي امتطأها صحرائه - حتى ينفس عما احتشد في صدره من لهيب الوجد والصبابة - فراح يمعن في وصف شدتها وقوتها، فهي ناقة قوية شديدة تشبه في صلابتها مطرقة الحدادين ، كما أنها تسرع في عدوها وكأن هرا بجانبها ينهشها بأنيابه ومخالبه ،

فتجد في عدوها وانطلاقها حتى تتقى مخالبه وأنيابه، ولم لا وهي ناقة قوية البنيان علفت حتى سمتت واعتلاها سنام مشرف . قد يسبب قلقا لاستواء الرجل على ظهرها فيشد له حبل لتثبته ، وقد بلغت من قوتها وضخامتها أنها تترك أثارا لبروكها على الأرض تشبه اثار أفراس القطا عند هبوطها عند موردها بكورا .

يجذ نفس الصعداء منها
قوى النسع المحرم ذي المتون
تصك الجائبين بمشفت
له صوت ابح من السرنين
كأن نفى ما تتفى يداها
قذاف غريبة بيدي معين
تسد بدائم الخطران جثل
خوايبة فرج مقلات دهين
وتسمع للذباب إذا تغنى
كتغريد الحمام على الوكسون

اللغة :

يجذ : يقطع . **نفس الصعداء** : يعني به هواء زفيرها عند التنفس .

النسع : حبل يشد به الرجل يمتد على وسط الناقة .

المحرم : الذي لم يدبغ ولم يلين . **القوى** : الطاقات .

ذو المتون : ذوالقوى ، والمعنى أنها إذا زفرت قطعت النسع بتنفسها لأنها

شديدة عظيمة الوسط .

تصك : تزج أو ترمي .

المشفتز : المتفرق ، ويعني به هنا المتفرق من الحصى .

البحسة : صوت فيه غلظة . المعين : الأجير .

الغريبة : الرحى . ونفيها : ما تطحنه وتقدف به .

دائم الخطران : ذنبها . خطراته : حركته .

الخواية : الفرجة . الجبل : الكثير الشعر .

المقلات : التي لا يبقى لها ولد . الدهين : القليلة اللبن

الذباب : أراد به هنا حد نابها إذا صرفت بأنيابها .

التغريد : التطريب . الكون : جمع وكن . وهو عش الطائر .

المعنى :

ويستمر الشاعر في وصف قوة ناقته وضخامتها ، فهي ناقة قوية تقطع سير الرجل المتين إذا ما تنفست حتى أنها لترمي بالحصى - من فرط سرعتها - في سيرها فتقدف به جانبيها بشدة ، فتسمع له صوتاً أشد من الرنين يشبه صوت النوى المقدوف من بين شقي رحى سريعة الدوران ، كما أنها تمتلك ذنباً سميكاً دائم الخطران تسد به ما بين قوائمها ، وتسمع لأنيابها إذا ما صرفت بها صوتاً يشبه تغريد الحمام على الكون .

فأقيت الزمام لها فنامت

لعادتها من السدف المبين

كان مناخها ملقى لجام

على معزائها وعلى الوجين

كان الكور والأنساع منها
 على قرواء ماهرة دهين
 يشق الماء جؤجؤها وتعلو
 غوارب كل ذي حذب بطين
 غدت قوداء منشقاً نساها
 تجاسر بالنخاع وبالوتين

اللغة :

- السدف** : الليل ، والسدف النهار ، ويريد به هنا الضوء.
- المبين** : البين **العادة** : النزول من وقت السحر في مثل ذلك الوقت
- المعزاء** : الموضع الكثير الحصى .
- الوجين** : ما غظ من الأرض وارتفع، فشبهه مواقع ثفنتها بمواقع أشلاء
- اللجّام** إذا ألقى **الكور** : الرجل .
- النساع** : جمع نسع ، وهو سير تشد به الرجال .
- قرواء** : سفينة طويلة . **ماهرة** : سابحة .
- دهين** : مدهونة . **الجؤجؤ** : الصدر .
- الغوارب** : الأمواج . **الحذب** : الموج المرتفع .
- البطين** : الواسع البعيد . **القوداء** : الطويلة العنق .
- واراد بالنسا** : موضع النسا، وإذا سمت الناقة انشقت للحمتان في
- الفخذين** فجرى النسا بينهما واستبان .
- النفاع** : خيط ممتد أبيض في الصلب .

المعنى :

ويواصل الشاعر وصف ناقته وضخامة بنيانها ، فهي ناقه صلبة شديدة المراس يواصل ترحاله عليها ليل نهار ، حتى أنها لا تهجع لنومها إلا في نهاية الليل بعد طول عناء ومشقة ، فتترك أثرا لمواقع بروكها يشبه مواقع أشلاء لجام ألقى على الأرض ، وهي في ضخامتها وعنفوانها تشبه سفينة تتهادى فوق المياه بعد أن تشق بصدرها الأمواج المتلاطمة ، ولا غرو في هذا فهي ناقه قوية علفت حتى اكتملت لها روافد القوة والنشاط من السمنة وسرعة العدو .

إذا ما قمت أرحلها بليل

تأوه آهة الرجل الحزين

تقول إذا درأت لها وضيني

أهذا دينه وديني

أكل الدهر حل وارتحال

أما يبقى على وما يقيني؟!

اللغة :

ارطه : أجعل عليه الرحل واشد عليه أدواته .

التأوه : الوجع . **دراته** : مددته وشدت به رحلها .

الوضين : حزام الرحل . **دينه** : عادته ودأبه .

يقيني : يحفظني ويصونني .

المعنى :

ويتمادى المثقب في وصف ناقته حتى يتغلغل إلى أعماقها ، فيترجم لنا عما يجول بخاطرهما - إن قدر لها أن تتكلم - فهي تتأوه منه حزناً عندما يعدها للرحيل ليلاً . تفضى عما في قلبها من شكوى قائلة : إلى متى يستمر في حلة وترحاله ، أما يحرص على وبقيني من هذا الهلاك !؟

ولعل المثقب هنا أراد التنفيس عما احتدم في صدره من مشاعر الضيق والملل ، فعبر عنها بلغة شعرية وأعارها لسان ناقته ، فجاءت مصبوغة بصبغة النفسية .

فأبقى باطلي والجند منها

كدكان الداربنة المطين

ثنيت زمامها ووضعت رحلي

ونمرقه رفدت بها يميني

فرحت بها تعارض مسبطراً

على صحصاحة وعلى المتون

اللغة :

باطلي : أي ركوبي لها في طلب اللهو والغزل .

الجند : انكماشها في السير . ودكان الداربنة دكان البوابين ، الواحد دربان ، وهو فارسي معرب .

المطين : من طنته أطينه . وموضع الكاف من قوله : كدكان مفعول به أي مثل دكان .

نمرقة : وسادة اعتمدت عليها . **تعرض** : تبارى وتحاكى .

مسطرا : أي طريقا ممتدا . **الصحصام :** المستوى من الأرض .

المتون : جمع متن ، وهو الصلب من الأرض

المعنى :

ويوصل شاعرنا وصفة لقوة ناقته - من زاوية جديدة - فيصرح بصلاية ناقته وشدتها بعد مرورها بكل هذا المصاعب والمهالك التي لم تستطيع النيل من قدرتها بل بقيت على قوتها وضخامتها كأنها بناء ضخم مطين يشبه مقعد البوابين ، ولفرط قوتها ونشاطها راح يستأنف عليها ترحالة يعارض بها أعتى السبل وأصعبها في مختلف ألوانها .

إلى عمرو ومن عمرو أنتني

أخي النجدات والحلم الرصين

فإما أن تكون أخي بحق

فاعرف منك غثى من سميني

وإلا فاطر حنى واتخذني

عدوا أتقيك وتتقيني

اللغة :

عمرو : هو عمر بن هند ، وأمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندي ، وأبوه

المنذر بن امرئ القيس اللخمي .

ومعناه : قصدت بناقتي عمرا ، ومر عبده أتني النجدات .

فاعرف منك غثى من سميني : أي فاعرف نصحك من غشك .

اطرحي : اتركني .

المعنى :

وبعد أن انتهى الشاعر من نسيبه بمحبوبته ، ووصفه لناقته ورحلته عليها ،
مظهراً لصاحبه - فاطمة - قوة مراسه ، ونبل خصاله ، وسمومكانته ، التفت -
بعد أربعين بيتاً - مادحاً لعروبين هند من قبيل الفخر بصلته به ، باعتباره ركن
تكتمل به عناصر فحولته وعزته وروافد إبانه وشممه ، حتى يكشف لصاحبه أنه
يتمتع بمكانة تجعله خليقاً بحبها فتعاوده بوصلها من جديد ، فها هو ذا يقول
مخاطباً عمرو بن هند : إن لم تكن الأخوة بيننا على ما بينته وحددته ، فانفض
يدك مما بيني وبينك ، واتخذني عدواً لك احتزرك منك وتحترز أنت مني ، وينطوي كل
منا على ضغن صاحبه والحذر من شره .

وما أدري إذا يعمت وجهها

أريد الخير أيهما يليني

ألخير الذين أنا أبتغيه

أم الشر الذي هو يبتغيني

اللغة :

اكتفى الشاعر بذكر أحد الأمرين - في البيت الأول - وهو الخير ، اعتماداً
على ما يجيء بعده - في البيت الثاني - من التصريح بالأمر الثاني وهو الشر .

المعنى :

ويختتم الشاعر قصيدته بحكمة أبدية راسخة يكشف فيها عن جهل
الإنسان بما تضره له الأقدار ، فعلى المرء أم يسعى لبغيته دون اكتراث بنتائج
سعيه ، فهي متروكة لما قدر له .

التحليل والتعليق :

تعد نونية المثقب من أشهر قصائده الشعرية ، وأكثرها شيوعاً وانتشاراً ، تجلت فيها موهبة المثقب الفنية ، وعدد فيها من موضوعاته الشعرية كالنسيب ، والوصف ، والفخر ، والحكمة ، في تجاوز محكم ، وبناء متكامل . فجاءت قصيدته متلاحمة متماسكة ، تمثل قيمة فنية أصيلة ، ولذا حظيت بتعليقات كثيرة من النقاد ، حتى ورد ذكرها في أكثر من أربعين مصدراً ، وصدق " أبو عمرو بن العلاء " حين قال : " لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه " (١)

١ . غرض القصيدة

ومن أهم النقاط التي وقف النقاد بصدها في هذه القصيدة ، الغرض المنشود منها ، أو الهدف الذي يبتغيه الشاعر من نظمها ، واخبرنا شراح الشعر الجاهلي مرة بعد مرة أن المدح هو الغرض الحقيقي لهذه القصيدة ، وأن مطلعها الغزلي ، ووصف الظعن والظاعنات ، ووصف الناقة أيضاً ، وما ختمت به القصيدة إن هي إلا مقدمات للغرض الأصلي وتعليقات عليه (٢) .

ويشير الدكتور طه حسين إلى أن الغرض الأصلي من نظمها هو العتاب ، إذ يقول : " وشاعرنا يطيل شيئاً في غزله وعتاب صاحبه ووصف الظعائن ، وهو يطيل كذلك في وصف ناقته والفلاة ، فإذا انتهى إلى صاحبه الذي يريد أن يعاتبه لم يطل في العتاب ، وإنما انقطع حديثه فجأة " (٣) .

١- الشعر والشعراء ١ / ٣٩٥ .

٢- انظر قراءة الشعر ١ / ٢٤٢ .

٣- حديث الأربعاء ١ / ١٦٦ .

على حين يشير الدكتور الربيعي إلى وصف الناقة هو العرض المنشود مبينا " أن الناقة - دون سواها - تبقى هنا محور العمل الشعري ، ويبقى كل شيء عداها على هامش هذا العمل " (١) .

والواقع أن الغرض الحقيقي من هذه القصيدة هو الفخر ، فلو نظرنا بعمق إلى جميع موضوعاتها لوجدناها تتسم بالفخر ، فالشاعر يهدف من وراء فخره هذا إلى أن يثبت لمحبوته " فاطمة " أنه يتمتع بمكانة عالية ، وخصال نبيلة ، تجعله خلقياً بحبها ، فتعاوده بوصلها وودها بعد قطعها عنه .

والثقب في نونيته جاء مخاطباً لعروب بن هند في ثلاثة أبيات تلوها نبرة عالية من العزة والكبرياء ، يقول فيها : (٢) .

إلى عمرو ومن عمرو أنتتى
أخي النجدات والحلم الرصين
فإما أن تكون أخي بحق
فاعرف منك غشى من سميني
وإلا فاطر حنى واتخذني
عدواً أتقيك وتتقيني

واختلف النقاد حول هذه الأبيات نتيجة لتلك اللهجة العالية التي تكتنفها ، والتي لا تتفق في طبيعتها مع مخاطبة الملوك فهل المراد منها عمرو بن هند " الملك " أم عمرو غيره ؟

١- قراءة الشعر ص ٢٦٢ .

٢- الديوان ص ٢٠٨ - ٢١٢ .

ومن هذا المنطلق أعلن الأصمعي " عن تشككه في أن المخاطب فيها عمرو بن هند " الملك " قائلاً :

" أراه غير الملك ، لأنه لم يكن ليخاطبه بمثل هذا الكلام " (١).

كما أشار الأستاذ حسن كامل الصيرفي إلى تشككه في ترتيب هذه الأبيات بقوله : " ربما كانت الأبيات الواردة بعد البيت الأول - وهي التي شككت الأصمعي بلهجتها في أن يكون المخاطب هنا هو عمرو الملك - متأخرة عن موضعها لا سيما وأن أبياتاً أخرى من هذه القصيدة قد جرى التقديم والتأخير فيها أو أنه كان يوجه القصيدة إلى واحد من أهله وعشيرته ، ثم يقول له إنه تارك له بلاده ليذهب إلى حيث يقيم الملك " (٢).

على حين يلمح الدكتور طه حسين إلى أن هذه القصيدة قد اقتضبت اقتضاباً وضاع منها جزء غير قليل ، واعتمد في هذا على أن المثقب أطال في نسيبه وعتاب صاحبه ، ووصف الظعائن والناقة ، فإذا ما انتهى إلى صاحبه - عمرو بن هند - والحديث إليه لم يطل ، وانقطع حديثه فجأة (٣).

والحق أن المثقب في خطابه لعمرو بن هند - الملك - يريد أن يظهر لمحبوته مدى ما يتمتع به من مكانه ، تمكنه من مخاطبة الملوك بهذه اللهجة التي تلوها الندية وعزة النفس ، فيقع هذا من قبلها حسناً يسمح له بمعاودة وصلها من جديد .

١- شرح المفضليات للتبريزي ١٠٣٥ / ٢ .
٢- ديوان المثقب تحقيق / ١ حسن كامل الصيرفي ص ٢٠٩ .
٣- النظر : حديث الأربعاء ١ / ١٦٦ .

ومن ثم فالمثقب لم يهدف في نونيته إلى مدح عمرو بن هند ، وإنما عرض له من قبيل الفخر بنفسه ، باعتباره موقفاً يثبت من خلاله مدى قدره ومنزلته ، فجاء حديثه إليه موجزاً لم يطل فيه ، ولم يقتضب كما ذهب الدكتور طه حسين . وهكذا حرص المثقب على الفخر في نونيته ، فجاءت موضوعاتها ملائمة لفخره حتى في نسيبه بحبوبيته " فاطمة " جاء متمسكاً بعزته ومعلناً لكبريائه قائلاً لها : (١) .

أفطم قبل بينك متعيني

ومنك ما سألت كأن تبيني

ولا تعدى مواعد كاذبات

تمر بها رياح الصيف دوني

فإني لو تخالفني شمالي

خلافك ما وصلت بها يميني

والمثقب بهذه اللهجة العاتية التي يخاطب بها محبوبته ، والتي يكشف من خلالها عن كبريائه وعزته في حبه ، جاء مخالفاً لعادة الشعراء في نسيبهم بصويحاتهم ، إذ كانوا ينهالون في صبوتهم ، ويتخانلون من غلبة الوجد على قلوبهم المستعرة . وهذا مسلك شائع عندهم ، حتى غداً دليلاً على إجادتهم في أشعارهم ونبه إليه القدماء في قولهم " يجب أن يكون النسيب الذي يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهلك في الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابي والرقعة أكثر مما يكون فيه من الخشن والجلالة . ومن الخشوع والدلة أكثر مما يكون من الإباء والعزة وأن يكون

جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة ، ووافق الانحلال والرخاوة فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض ^(١) .

ومن هذا المنطلق انتقد الأستاذ عبد العظيم قناوى ، قول المثقب الذي يحذر فيه صاحبته من قطعها لوصله ووده .

لعلك إن صرمت الحبل مني

كذلك أكون مصحبتى قرونى ^(٢) .

وعلق عليه قائلاً " وإذا كان هنا ما يمكن أن يؤخذ عليه فهو خشية القطعية إن صرمت حبله ، فالعاشق لا يملك زمام قلبه ، ولا يدفع جماح نفسه " ^(٣) .

والواقع أن المثقب في نسيبه لم يسلك هذا المسلك الشائع ، وإنما سلك ضرباً من الشعور الصادق والعميق بالصبو والشوق ، فالشاعر بعد أن قطعت عنه صاحبته ودها ، وبعد أن علاه الشوق أثار هذا الشعور في نفسه إحساساً بالشباب والقوة والكبرياء ، فراح يغنيها شعوره بالبطولة والأنفة والفعال الحميدة التي يتحلى بها ، والتي تجعله أهلاً لوصلها ، فتعاوده به " وهذا الضرب من الغزل الذي ترى حوله أنغام الاعتزاز والتغني بالفعال الكريمة وطبائع النفس المتأثرة هو الأشبه بالشخصية العربية والإنسان العربي في هذه الحقبة من تاريخه ، وأن الصبوة إنما تثير عند هذا العربي الشعور بالتماسك والجلادة والقوة والشباب والفتوة والفروسية " ^(٤) .

١- نقد الشعر لقدامة بن جعفر تحقيق د / محمد خفاجى ص ١٣٤ .

٢- صرمت : قطعت ، الحبل : العهد والود . قرونى : نفسي (الديوان ص ١٦٤) .

٣- الوصف في العصر الجاهلي ص ٣٢١ .

٤- قراءة في الأدب القديم د / محمد أبو موسى ص ٧٣ .

ويلمح الدكتور " الربيعي " إلى هذا الضرب من السلوك في تساؤله عن المعنى من أن يعلن المثقب العبدى غضبه على فاطمة ، وعلى مثيلة لها في مقطع تال ، ويتساءل ذلك التساؤل الملى بالمعنى بعد ذكر الملك عمرو بن هند مباشرة ، ثم لا يحدث ذلك مع الناقة . رغم أنه خلع عليها صفات البشر وجعلها تشكو وتبرح كما يفعل الإنسان ؟ ^(١) .

وحول الدكتور " طه حسين " أن يجد حلاً لهذا التساؤل بتحليل راح فيه إلى أن " الشاعر أنشأ قصيدته في العتاب ، وهو يفكر من غير شك في صاحبه الذي سيعاقبه حين ينتهي إليه أكثر مما يفكر في صاحبه التي يطلب إليها المتاع فإذا تحدث إلى حبيبته بهذه اللهجة الغليظة القاسية ووجه إليها هذا النذير الخشن الغليظ ، فهو خليق إذا تحدث إلى صاحبه أن يكون حازماً ومتشديداً قاطعاً ، لا يحب الهواة ولا اللين " ^(٢) .

والصواب أن المثقب جاء بتلك اللهجة العالية في خطاب لمحبوته " فاطمة " وكذلك في مخاطبته لعمرو بن هند ، من قبيل الفخر والاعتزاز بنفسه وكبريائه فحسب ، وليس من قبيل الغضب - كما ذهب الدكتور الربيعي - بدليل أن المحرك لهذا الفخر هو حبة لفاطمة ، فهو يهدف من وراء فخره إلى وصلها من جديد .

ولم يفعل ذلك مع ناقته من قبيل حبه لها وإجلاله لمكانتها ، فالناقة في نظر الجاهلي قادرة على كل شيء فهي تعين على قطع القفار الموحشة ، وإليها يرجع الفضل في انتشال الشاعر من همومه وأحزانه ، وحمايته من مخاطر الصحراء .

١- نظر : قراءة الشعر ص ٢٦٢ .

٢- نظر : قراءة الشعر ص ٢٦٢ .

ولعل كل هذه التساؤلات من النقاد ترجع في أصلها إلى عدم وقوفهم على الغرض الحقيقي من نظم النونية وهو الفخر.

٢ . النحل في شعره :

ومن أهم القضايا التي أثيرت حول شعر المثقب العبدى - وبخاصة في نونيته - قضية الوضع أو النحل ، وبعد الدكتور طه حسين " من أبرز من تعرضوا لشعر المثقب من هذه الناحية ، وذهب الدكتور في اتهامه لشعر المثقب بالوضع أو النحل إلى أمرين :

عدم وضوح شخصية المثقب في شعره ، وأشار إلى هذا خطابه لمحدثه قائلاً :
 " ما رأيك في صوت تحمله القرون الطوال حتى تنتهي به إليك وحتى تنتهي به إلى مَنْ بعدك من الأجيال ؟ وأنت تسمع الصوت وتتبين جرسه ونغمه ، وتتبعه متراجعا مع هذه القرون ، حتى إذا انهيت إلى آخرها أو إلى أولها ، لا تجد شخصا بينا ، وإنما وجدت شخصا شائعا ، ويعجبني الشعر الذي لا تستطيع أن تنهي به إلى شاعر معروف واضح الخصال ، بيّن الشخصية . يعجبني لأن فيه عظمة تأتيه من هذا القدم الذي يخفي علينا مصدره إخفاء " (١).

والواقع أن شخصية الشاعر في شعره تتكشف من ناحيتين ، الناحية الأخلاقية وتتمثل في أفكاره ومعتقداته وخصاله الخلقية ، والناحية الفنية ، وتتمثل في الخصائص الفنية المميزة لشعره ، والتي يختص بها عن غيره من الشعراء .

ويلمح ابن رشيق في حديثه عن حقيقة الشاعر إلى مقومات الشخصية ، قائلاً : " وإنما سمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، فإذا لم يكن عند

الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، أو استظراف لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أجدف فيه غيره من المعاني ، أو نقص أطاله سواه من الألفاظ ، أو صرف معنى إلى وجه آخر ، كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ، ولم يكن له إلا فضل الوزن ، وليس بفضل عندي مع التقصير" (١) .

والحق أن شخصية المثقب العبدى تبدو واضحة جلية في جميع أشعاره وتترسم ملامحها من خلال أشعاره كما يلي :

فها هو ذا يخاطب محبوبته فاطمة بلهجة عالية : بعيدة عن الذل والهوان
مبين عزته وكبرياء في حبه :

فإني لو تخالفني شمالي
خلافك ما وصلت بها يميني
إذا لقطعتها ولقلت بيني
كذلك أجتوى من يجتويني
وهو القائل في خطابه لعمر بن هند مبينا منزلته ومكانته :

إلى عمرو ومن عمرو انتني
أخي النجدات والحلم الرصين
فإما أن تكون أخي بحق
فاعرف منك غنى من سميني
وإلا فاطر حتى واتخذني
عدواً أتقيك وتتقيني

وأشاد الدكتور طه حسين نفسه بهذه البيات ، مبيناً أن الناس حفظتها لأنها راعتهم وأعجبتهم حقاً ^(١) .

ولعلها راعتهم وأعجبتهم من قبيل مخالفتها لعادة الشعراء عند مخاطبة الملوك فالثقب هنا يظهر جرأته وشجاعته في مخاطبته لعمر بن هند ، ولم يستعطفه أو يمدحه طمعا في عطايه ، وهذا ما لم يكن معهودا لديهم .

وهو القائل على لسان ناقته مبينا صدق إحساسه ، ودقة شعوره :

تقول إذا دارأت لها وضيئي

أهذا دينه وديني ؟

أكل الدهر حل وارتحال

أما يبقي على وما يقيني ؟

وأشار الدكتور طه حسين إلى أنها من أروع ما قال الناس ، لا في اللغة العربية وحدها ، بل في غيرها من اللغات ^(٢) .

وهو القائل في مكر الأقدار بالناس وجهلهم بما تضمنه لهم :

وما أدري إذا يممت وجهها

أريد الخير أيهما يليني

أأخير الذين أنا أبتغيه

أم الشر الذي هو يبتغيني ؟

١- انظر : حديث الأربعاء ١ / ١٧٠ .

٢- انظر : حديث الأربعاء ١ / ١٧٠ .

ألا تكفى كل هذه النماذج الشعرية - للمثقب العبدى - بما تحويه من سمات فنية ، وخصال خلقية ، في رسم شخصية قوية ، لها خصال بينه ، وشاعرة صادقة ؟

هذا بالإضافة إلى ما ذكره الدكتور طه نفسه عندما شهد للمثقب بأنه " كان خفيف الروح ، عذب الحديث ، قوى النفس ، شديد الحزم ، يكاد ينتهي إلى شيء من الغلظة ، رقيق القلب مع ذلك يكاد يذوب رقة ولينا " (١) .

فهو يؤكد تفرد المثقب بشخصية قوية ، لها سمات خاصة ، تميزه عن غيره ، كما أنه أشاد به في موضع آخر يقول فيه " ويعجبنى أن أقف عند هذا الشعر الذي بقى وثبت ، واكره الرواة على روايته والشرح على شرحه وتفسيره ، وأتاح للغويين وأصحاب النحو أن يستنبطوا فيه كلمات كانوا يجهلونها ، ومذهب في النحو لعلهم لم يكونوا ليهتدوا إليها " (٢) .

وفي هذا ما يؤكد وضوح شخصية المثقب وقوتها في شعره ، وإلا فكيف توافرت لهذا الشعر كل هذه المقومات من القوة والشموخ ، حتى بقى ثابتا ، واستطاع أن يكره الرواة على روايته ، والشرح على تفسيره ، ولم تتوفر فيه سمات الشخصية البينة، رغم أنه ترجمة عنها، وصدى لأنفاسها !؟

٣ . المقدمة :

اتسمت القصيدة في بدايتها بنج فنى جديد - بالنسبة لعصرهم وهونهج الولوج إلى لب الموضوع مباشرة دون التمهيد له بمقدمة طلييلة معهودة ، يتباكى أصحابها من خلال على ما بقى في قلوبهم من طيب ذكرياتهم المنصرمة ، وحرارة

١- لمرجع السابق ١ / ١٦٥ - ١٦٦ .

٢- لمرجع السابق ١ / ١٦٥ .

الشوق لاسترجاع عبق أريجها ، وهو ما درج عليه شعراء عصرها . واعتبروه شرطاً لازماً لتوافر عناصر القوة والإجادة في تدبيح القصائد الحسنة إلا أن المتقرب العبدى في مقدمة هذه القصيدة خالف هذا النهج وقصد إلى لب موضوعه مباشرة دون تمهيد أو تقديم ، فخاطب صاحبه مباشرة في مطلع قصيدته قائلاً :

أفاطم قبل بينك متعيني

ومنك ما سألت كأن تبيني

والناظر في هذا المطلع يتجلى له مرجع الأمر في قصد الشاعر إلى هذا النهج .

ويتمثل في سببين رئيسيين :

أولهما : شدة حبه وشغفه بحبيبته ، فهو مَعْنِيٌ بحبها في المقام الأول وقبل كل شيء فكان اهتمامه أولاً ببث أشواقه ونجواه لقلبها حتى يستميله فتعدل عن عزمها في الارتحال .

وثانيها : ضيق المقام المفروض على الشاعر نتيجة لشرع صاحبه في الارتجال الفعلي مع صويحباتها ، مما دفع به إلى سرعة مخاطبتها مباشرة دون تريث أو إبطاء حتى يثنيها عن عزمها ، تدل عن ارتحالها وتعاوده بوصلها وودها من جديد ، وبخاصة بعد أن راح يغنيها كل هذه المواقف الفخرية التي تجعله خليقاً بحبها وأهلاً لوصولها وودها حتى لا تتردد في مواصلة عهدا معه .

٤ . الوحدة :

استطاع العبدى أن يوفر لهذه القصيدة عديداً من الوحدات الفنية التي تساعد على إبراز أواصر الصلة بين ابياتها ، فوفر لها الوحدة الشعورية وتتمثل في

هذا الشعور الفخري المفعم بالصبوة والفحولة والاعتزاز، والمخيم على جميع أبيات القصيدة حتى لنكاد نستشعره في كل كلمة منها، والمتفجر في قلب الشاعر نتيجة لعدول صاحبه عنه بوصلها وحبها، مما أثار كوامن الفحولة والحمية في نفسه، ويخاضة وهو العربي الأدبي الذي يتمتع بكل هذه الخصال التي تشهد على صبوته وفحولته، كما وفر لها الوحدة الفكرية وتتمثل في وحدة الهدف أو الغرض الذي قصد إليه الشاعر من وراء نظمة لأبيات هذه القصيدة بنهجها المنظومة فيه، متمثلاً في استمالة قلبها حتى تعدل عن ارتحالها وتعاوده وودها من جديد، ومن ثم فقد هداه فكره إلى استعراض كل هذه المفاخر أمامها - بداية من مخاطبته لها بتلك اللهجة الأمرية التي تعلوها نبرة العزة والكبرياء، ثم باستعراضه لكامل سيطرته وتمكنه من ناقته التي تمتلك كل هذا القدر من مظاهر القوة والصلابة، ثم باستعراضه لطبيعة علاقته بعمر بن هند والتي تعلوها الندية والاعتداد بالنفس - حتى يكشف لها عن مكانته التي تجعله خليقاً بحبها، فتعاوده بوصلها وودها، كما وفر لها الوحدة الفنية وتتمثل في وحدة الطابع اللغوي والأسلوبي المخيم على أبيات القصيدة، هنا بالإضافة إلى وحدتي الوزن والقافية.

وهكذا تنطوي القصيدة على عدة وحدات فنية تقوى أو اصر الصلة بين أبياتها بصورة تبيح للناظر فيها أن يحكم عليها بتوفر الوحدة العضوية فيها بقدر ما توافرها من وحدات (كالوحدة الشعورية، والوحدة الفكرية، والوحدة الفنية، ووحدي الوزن والقافية).

ولعل هذا الرأي لا يوافق كثيراً ممن يجردون الشعر الغنائي من الوحدة العضوية نظراً لتداعي أفكاره وتوارد خواطره على مخيلة الشاعر في غير ترتيب مسبق أو إحكام بنائي مقصود، إلا أن الحقيقة الثابتة - والتي لا جدال فيها -

أن الوحدة العضوية عبارة عن مزيج منصرف من تلك الوحدات السابقة في بوتقة واحدة . بحيث تمثل كل وحدة منها رافداً من روافد الوحدة العضوية . ولا يمكن لأي عمل أدبي - مهما يكون نوعه - أن يكون خالياً من كل هذه الوحدات . وإثما الأصوب أن نحكم بتحقيق الوحدة العضوية في العمل الأدبي بقدر ما توافر فيه من الوحدات المكونة لها .

5 . اللغة والصياغة :

اتسمت القصيدة في لغتها بالتنقل بين السهولة والوضوح تارة ، وبين القوة والغموض تارة أخرى ، فأحياناً تنساب من جداول ألفاظه كلمات تتسم بالرقّة والوضوح فتكشف عن مضمونها في سهولة ويسر دون معاناة أو تكلف نحو (متعيني ، تبيني ، غزلان ، الدانيات من الغصون ، الديباج ، البشر المصون) .

وتارة تنطلق كلماته غامضة تحتاج إلى مزيد من الجهد للوقوف على معناها نحو الوساووس ، والسناف ، والتقنات " وما يتراءى لنا أحياناً من صعوبة متابعة الشعر لا يرجع إلى عمقه أو فلسفته بقدر ما يرجع إلى غرابة ألفاظه علينا في هذا العصر ، ووضوح الشعر الجاهلي بصفة عامة أو غالبه تفسره طبيعة الحياة الجاهلية نفسها ، الحياة البسيطة غير المركبة ، الواضحة غير المعقدة ، حياة الصحراء الواسعة التي ينطلق فيها الإنسان " (1) .

وقد اعتمد الشاعر في قصيدته على عديد من الأساليب الفنية التي تشهد على براعته الشعرية ، كالترخيم في قوله :

١- الشعر الجاهلي تطوره وخصائصه الفنية د / بهي الدين زيان ص ١٥٠ دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٢م .

أفاطم قبل بينك متعيني

ومنك ما سألت كأن تيني

والترخيم في اللغة التلين ، ومنه الترخيم في الأسماء ، لأنهم إنما يحذفون
أواخرها ليسهلوا النطق بها ^(١) .

والترخيم عند الثقب لا يقف عند حدود الإحساس بالقرب أو الاحتضان
فحسب ، بل ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالحالة النفسية لدى الشاعر وما يقتضيه
الحال ، وذلك كقوله السابق : إذ جاء النداء في قوله " أفاطم " بالهمزة وهي لنداء
القريب ، فهي حاضره في قلبه ، قريبة من روحه ، وإمعانا في هذا القرب - وكأنما
قد احتضنها بقلبه وروحه - رخم باسمها " فاطمة " فحذف آخره فجاء البناء "
أفاطم " بالترخيم والنداء بالهمزة خير شاهد على مكانة هذه المحبوبة في قلبه كما
جاء الترخيم هنا موافقاً لمقتضى الحال إذ وجد الشاعر صاحبتة التي ملكت عليه
قلبه قد تأهبت للرحيل فأراد مخاطبتها في عجلة قبل رحيلها ، فكان الترخيم خير
معين له نظرا لضيق المقام .

ومن الأساليب البديعية التي اعتمد عليها الشاعر في قصيدته الطباق ، وذلك في قوله :

فإني لو تخالفني شمالي

خلاقك ما وصلت بها يميني

إذ طابق الشاعر بين الجهتين " اليمين " و " الشمال " لما بينهما من تضاد .

ومن أمثلة ذلك قوله أيضاً :

فإما أن تكون أخى بحق

فاعرف منك غشى من سميني

١- لسان العرب مادة رخم .

وإلا فاطر حنى واتخذني

عدواً أتقيك وتتقيني

إذ جاء مطابقاً في البيت الأول بين اسمين " الغث والسمين " ، وهما من

الصفات الحسية ، على حين طابق في البيت الثاني بين فعلين " اطرحنى واتخذني " .

ومن الأساليب البديعية التي اعتمد عليها أيضاً في قصيدته الاستفهام ، وذلك كقوله :

لمن ظعن تطالع من ضبيب

فما خرجت من الوادي لحين ؟

تبصر هل ترى ظعنأ عجلاً

بجنب الصححان إلى الوجين ؟

إذ شخص الشاعر من نفسه شخصاً آخر - على سبيل التجريد - وتوجه

إليه مخاطباً في الأسلوب الاستفهامي ، والاستفهام هنا يكشف أبعاد تلك الحالة

النفسية التي تكتنف الشاعر ، إذ توجه إلى متسائل لمن هذا الظعن وهو يعلم أنه

لصاحبه ، وكأنما يبنى نفسه أن يكون هذا الظعن لشخص آخر ، فلا تقوى نفسه

على تحمل الحقيقة ، وهي ظعن المحبوبة .

وفي قوله " تبصر هل ترى ظعنأ " يبين أن عينيه لا تقوى على المشاهدة

بنفسها من شدة دموعها المنهمرة ، فيتوجه إلى صاحبة متلمساً منه أن ينظر

نيابة عنه ، حتى يمتعه بحديثه عنها .

ومن استفهاماته أيضاً قوله يتحدث على لسان ناقته :

تقول إذا درأت لها وضيبي

أهذا دينه أبداً وديني ؟

وقد يأتي باستفهامين في بيت واحد كقوله :

أكل الدهر حل وارتحال

أما يبقي على وما يقيني ؟

والاستفهام هنا معناه التعجب والتقريع ، وكرر الاستفهام مبالغة في

التعجب كما يَوْمُ هذا الاستفهام إلى عدة إشارات منها :

١. دقة ورهافة حسه إذا استطاع أن ينفذ إلى بواطن ناقته ويستشعر

وجدانها بهذا القول .

٢. شعور المثقب بظلمه لناقته وإثقاله عليها في رحلاته ، حتى أنها لو

قدر لها أن تتكلم لأعربت عن شكواه بهذا القول ، وفي هذا مظهر من

مظاهرها اهتمامه بها وحبها لها .

٣. إحساس المثقب بالضيق والملل من كثرة ترحاله ، فعبر عن إحساسه

هذا على لسان ناقته حرصاً منه على مظهره أما صاحبته .

هذا وقد حوت القصيدة عديداً من الصور الفنية التي تشهد على اقتدار

صاحبها وتمكنه من أدوات فنه ، ومن تلك الصور قوله :

يجذ تنفس الصعداء منها

قوى النسع المحرم ذي المتون

تصك الجانبين بمشفت

له صوت أبح من الرنين

كان نفى ما تنفى بداها

قذاف غريبة بيدي معين

وهي صورة كلية تكشف عن قوة ناقته وشدتها ، وتتكون من ثلاث صور جزئية تتمثل كل واحدة منها في بيت مستقل ، وتتصافر فيما بينها لتعطي مشهداً متكاملاً ينطق بالقوة والنشاط من جميع جوانبه .

ففي البيت الأول يصور الشاعر قوة ناقته وشدتها عند تنفسها حتى أنها لتكاد من شدة تنفسها واتساع صدرها أن تقطع سير الرجل عند التنفس ، وهي صور حسية بصرية مفعمة بالحركة تعتمد على خيال بسيط استمد روافدها من واقعه المشاهد .

وفي البيت الثاني يصور الشاعر قوة ناقته وشدتها من زاوية أخرى يعكس فيها سرعة ناقته وشدة عدوها، حتى أنها من فرط سرعتها تقذف جانبيها ببعض الحصى المتطاير من وقع نغماته دوى الرنين بل هو أقوى ، وهي صورة حسية بصرية مفعمة بالحركة أيضاً تعتمد على خيال خصب بسيط يستجلب روافدها من واقعه المشاهد ويعاود تركيبها أو رسم معالمها بعد إعمال خياله فيها .

وفي البيت الثالث يصور الشاعر قوة ناقته وشدتها من زاوية جديدة ، يعكس من خلالها شدة سرعة ناقته وشدة صلابتها في عدوها ، حتى أنها من شدة وقع قدمها على الأرض في عدوها تطحن ما يقع تحت قدمها من حصى فيبدوا دقيقاً في صغره وكأنه طحين منبعث من بين شقى رحي قوية سريعة الدوران ، وهي صورة حركية تعتمد على الحسن في إدراكها ، أعمل فيها الشاعر خياله إلى حد بعيد حتى استطاع أن يأتي بها على هذه الشاكلة المفعمة بالحركة والنشاط من جميع جوانبها .

وهكذا استطاع الشاعر أن يجاور بين هذه الصور الجزئية الثلاث في مقدرة فائقة تمكن من خلالها أن يصور مشهداً متكاملاً يمجج بالحركة من جميع جوانبه .

ومن بديع صوره أيضاً قوله يصور سرعة ناقته :

فسل الهم هنك بذات لوث

عذافة كمطرقة القيون

بصادقة الوجيف كأن هراً

يباريها ويأخذ بالوضين

فها هوذا يجمع بين صورتين أحدهما ساكنة يدعوفيهما نفسه إلى إزاحة الهم عنه باستطانه لناقته القوية الصلبة التي تشبه فيها صلابتها وشدتها مطرقة الحدادين ، والثانية متحركة يصور فيها سرعة ناقته العاتية واستمرارها وكان هرا معلقا بجانبها ينهشها بأنيابها ومخالبه فتجد في عدوها للفرار من شراسته ، وهما صورتان حسيتان اعتمد الشاعر في استجلاب روافدها على واقعه المشاهد بعد إعماله لخيال خصب وبخاصة في صورته الثانية التي جاءت مشعة بالنشاط والحركة من جميع جوانبها .

٦ . الموسيقى :

وقد اختار الشاعر لقصيدته بحر الوافر ، وتفعيلاته (مفاعلتن مفاعلتن مفاعل) في كل شطر ، وهو من البحور اللينة الطبيعة يشدد إنا شدته ويسرق إذا رققته ، وأكثر ما يجود به النظم في الفخر،^(١) ومن ثم فهو بحر يتواء مع عاطفة الشاعر الجياشة والمفعمة بمشاعر الصبوة والفحولة والاعتزاز .

كما اتخذ الشاعر من حرف النون المكسورة رويًا لقصيدته ، وقد اعقبها بياء وصل ممدودة حتى يتبع لنفسه مساحات رحبة تعينه في التنفيس عما بداخله من

١ - انظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٩٣/١ تحقيق / أحمد محمد شاكر ط ٢ دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٢ م .

جيشان مشاعر الصبوة والكبرياء ، وبذلك تنواءم القافية مع الوزن في إيجاد مناخ ملائم لعاطفة الشاعر وعمق تجربته ، وبهذا الوزن والقافية تمتعت القصيدة بنبرة موسيقية عالية الجرس ، واضحة الرنين ، اعلت من قدر شاعرنا ومكنت لشعره وشاعريته في قلوب السامعين ، مما دفع بأبي عمرو بن العلاء بتعقيبه على هذه القصيدة بعد سماعها واستحسانها بقوله مادحا : " لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه " هذا بالإضافة إلى إنها حظيت بتعليقات كثيرة من قبل الأدباء والنقاد ، حتى ورد ذكرها في أكثر من أربعين مصدراً .

النثر الفني في العصر الجاهلي

اثر عن العرب في العصر الجاهلي نثر كثير وكلام غزير، كما أثر عنهم شعر جيد، وكان العرب يستخدمون نثرهم في شتى معاملاتهم، وساتراً أغراضهم الحياتية، ومن ثم كانوا يحتفلون له، ويهتمون به، ويختارون له الألفاظ القوية المعبرة والمعاني الشريفة، والأساليب الرصينة، وكانوا يطلقون على هذا النوع من الكلام النثر الفني لأنهم كانوا يعتنون به عناية فائقة، وهذا النثر يعطينا صورة صادقة عن حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وتر تعرفت أنواع (النثر الجاهلي)، وأهم هذه (الأندراج هي):

١. الخطب.
٢. الوصايا.
٣. الأمثال والحكم.

الخطب .

الخطب مأخوذة من " الخطب "، وهو الأمر الخطير، لأنه إنما يقام بالخطب في الأمور العظيمة، والأحوال الخطيرة، ولا يسمى الخطيب خطيباً إلا إذا غلب ذلك عليه وعلى وصفه، وصارت الخطابة صناعة له .

والخطبة كلام قوي معبر، نو دلالة عميقة، وشأن عظيم من التأثير، يلقي هذا الكلام على حشد كبير من الناس لإقناعهم بما يعود عليهم بالخير العيمم والنفع العظيم في دنياهم وأخرتهم .

صفات الخطيب :

وضع أهل الجاهلية بعض الصفات لشخصية الخطيب البارع . ورأوا أنه لا يكمل الخطيب في نظرهم إلا إذا تحققت تلك الصفات في شخصيته، فمنها أن

يكون شريف الأصل ، صادق الحديث ، جهير الصوت ، قليل ، التلفت ، راسخ ، نظيف الملابس والهئية ، حسن السمات ، يطابق قوله فعله ، ذا وقار وسكينة وهدهو على أدب جم وأخلاق سامية ، وكانوا يمدحون فيه رباطة الجأش ، والثبات وابتعاده عن الارتعاش والارتعاش والحصر والعوي ودقته في اختيار الألفاظ وعنايته بالأساليب والمعاني ، قال الجاحظ " أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجاش ، ساكن الجوارح قليل اللحظ ، متخير الألفاظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون في قوله فضل التصرف في كل طبقة ، ولا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ، ولا يصفها كل التصفية "

وكان للخطباء في العصر الجاهلي أصول مرعية ، وعادات متبعة ، وسنن مطروقة في أداء خطبهم ، فقد كانوا يخطبون في المواسم والمحافل العظيمة ، والمجالس الكبيرة على رواجلهم ، وكانوا يلوحون أثناء إلقاء الخطب بالعصى والقسي والرماح قال " الجاحظ " في ذلك
وتعتمد على الأرض بالقسي وتشير بالعصى وانعدت عسى كانت المغاصر لا تفارق أيدي الملوك في مجالسهم "

وكان الخطباء في العصر الجاهلي يطيلون خطبهم أحيانا ويقصرونها أحيانا أخرى ، يفعلون ذلك مراعاة لما يقتضيه المقام ، وما يتطلبه الحال ، قال " أبو عثمان الجاحظ " أعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدر البدو والحضر على ضربين منها الطوال ومنها القصار ، ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه ، ومن الطوال ما يكون مستويا في الجودة ومتشاكلاً في استواء الصنعة يحسن فيه ومن الطوال ما يكون متشاكلاً في استواء الصنعة ومنها ذوات الفقر الحسان ،

والنق الجباد ، وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ ، وإنما حفظه التخليد في بطون الصحف ووجدنا عدد القصار أكثر ورواة العلم إلى حفظها أسرع " .

مجالات الخطابة :

والخطابة تستعمل في إصلاح ذات البين ، وإطفاء نائرة الحروب ، وقضاء الديات ، والتسديد للملك ، وإثارة المشاعر ، وإيقاظ العواطف ، وبعث الهم لخوض المعارك ببسالة وجرأة ورباطة جاش ، وتستعمل كذلك في التأكيد للعهد في عقد الأملاك ، والإشادة بالمناقب ، والوعظ والإرشاد ، والتقويم والتهديب والإصلاح ، وعقد الاتفاقات ، وإبرام العهود ، وأخذ الموائيق ، ونشر المودة والألفة والمحبة ، والمناسبات الاجتماعية مثل العزاء ، والزواج ، والتهنئة

أنواع الخطابة :

من يتتبع الخطب المختلفة ويحاول أن يقف على أنواعها يلاحظ أنها متعددة الأنواع ، مختلفة الألوان والاتجاهات ، والموضوع الذي يتناوله الخطيب هو الذي يجعل الخطب متعددة الأنواع متباينة الألوان والاتجاهات ، وهما هي ذي أنواع الخطب :

- ١ . خطب الوفود .
- ٢ . خطب الرثاء والعزاء .
- ٣ . خطب الصلح .
- ٤ . خطب الزواج .
- ٥ . خطب الحرب والتحضير .
- ٦ . خطب التهنئة .
- ٧ . الخطب السياسية والبرلمانية .
- ٨ . خطب التكريم والمدح .
- ٩ . خطب الاستخلاف والولاية .
- ١٠ . خطب الفتح .
- ١١ . خطب الدين والوعظ والإرشاد .
- ١٢ . خطب المفارقات والمنافرات .

١٣. الخطيب القضائنية . ١٤. الخطيب العلمية .
١٥. خطيب المناظرات . ١٦. خطيب المدافعة والاتهام .

والحق أننا لم نقف على هذه الأنواع فيما بين أيدينا من نثر جاهلي ، وأشهر

ما وقفنا عليه من أنواع الخطابة الجاهلية ما يلي :-

١. خطيب الوفود . ٢. خطيب إصلاح ذات البين .
٣. خطيب الاستهاض والدعوة إلى الحروب .
٤. خطيب المنافرات والمفاخرات . ٥. خطيب الزواج .
٦. خطيب التعزية والرثاء .

اشهر الخطباء في الجاهلية :

أنجب العصر الجاهلي كوكبة عظيمة من الخطباء ، أثروا الحياة الأدبية وزودوا المكتبة الجاهلية بمجموعة طيبة من الخطب التي تأسر الألباب وتستحوذ على الأفتدة بما تتسم به من فصاحة نادرة ، وبلاغة سامية ، فمن أقدم خطبائهم : " كعب بن لؤي " ، وهو الجد السابع للنبي ﷺ ، وكان كعب هذا يخطب للعرب جميعاً ، ويحضهم على البر ، ويحثهم على الصلاح والاستقامة ، ولما مات هذا الخطيب المصقع أكبروا موته ، وأرخوا به إلى عام الفيل ، ومن أشهر خطباء الجاهلية أيضاً " قيس بن خارجه " خطيب حرب داحس والغبراء ، و" خويلد بن عمرو الغطفاني " خطيب الفجار ، " وقس بن ساعدة " خطيب " عكاظ " الذي استمع إليه النبي ﷺ في سوق " عكاظ " ، " وأكثم بن صيفي " حكيم العرب المشهور وقاضيها وزعيم خطبائها ، " وهشام بن عبد مناف " ، " وعبد المطلب بن هشام " ، " قيس بن عاصم " ، و" عمرو بن الأهتم " ، و" زهير بن جناب " خطيب كلب

وقضاعة ، و " ربيعة بن حذار " خطيب بني أسد ، و " عامر بن الضرب العدواني أحد حكام العرب في الجاهلية ، " وهرم بن قطبة الفزاري " ، و " عمرو بن كلثوم " خطيب تغلب ، و " هاني بن قبيصة " خطيب بني شيبان " وابن عمار الطائي " خطيب مذحج .

وهناك غير هؤلاء كثيرون ذكرت مصادر الأدب والتاريخ أسماءهم ، وهذه الكثرة تدل دلالة ظاهرة على رقي النثر الفني في تلك الفترة ، كما تدل على ازدهار الخطابة وسمو منزلتها في الأدب الجاهلي .

نماذج من الخطابة الجاهلية :

ونسوق الآن بعضاً من النماذج التي وقفنا عليها من الخطب الجاهلية لنقف على أنماط الخطابة لدى الجاهلين وسماتها ، ومكانتها عندهم .

1 . " أكتثم بن صيفي " يعزى " عمرو بن هند " ،

قال " أكتثم بن صيفي " يعزى عمرو بن هند " ملك العرب عن أخيه :

أيها الملك ! إن أهل الدار سفر لا يحلون عقد الترحال إلا في غيرها ، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك ، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك ، وأقام من سيظعن عنك ويدعك ، إن الدنيا ثلاثة أيام : فامس عظة وشاهد عدل فجعك بنفسه وأبقى لك وعليك حكمه ، واليوم غنيمة وصديق أتاك ولم تأته ، طالت عليك غيبته ، وستسرع عنك رحلته ، ونعد لا تدرى من أهله ، وسيأتيك إن وجدك فما أحسن الشكر للمنعم والتسليم للقادر ، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفروع بعد أصولها !! وأعلم أن أعظم المصيبة سوء الخلف منها ، وخير من الخير معطيه ، وشر من الشر فاعله .

٢ . حطبة قس بن ساعدة في سوق عكاظ ،

روى " أبو الفرج الأصفهاني " عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما قدم وفد إياد على النبي ﷺ قال : ما فعل قس بن ساعدة ؟ قالوا مات يا رسول الله قال : كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق ، وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ، ما أجدني أحفظه ، فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا رسول الله ، قال : كيف سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول :

أيها الناس : اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت أت ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، بحار تزخر ، ونجوم تزهـر ، وضوء وظلام وير واثام ومطعم ومشرب ، وملبس ومركب ، مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ وإله قس ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلكم زمانه ، وأدرككم أوانه أو أنه ، فطويى لمن أدركه فاتبعه ، وويل لمن خالفه ثم أنشأ يقول :

فـي الـذاهـيـن الأولـين

من القرون لنا بصائر

لما رأيت موارد

للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها

يمضي الأضاغر والأكابر

أيقنت أنني لا محـا

لة حيث صار القوم صائر

٣ . خطبة أبي طالب عم الرسول ﷺ في تزويج خديجة بنت خويلد .

قال أبو طالب : " الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما ، وبيتاً محجوباً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد ابن عبد الله بن أخي من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه براً وفضلاً وكرماً وعقلاً ومجداً ونبلاً ، وإن كان في المال قل فالمال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى .

٤ . خطبة ماهم بن عبد المطلب في إخراج العبيد .

قال هاشم :

يا معشر قريش : أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوهاً ، وأعظمها أحلاماً ، وأوسطها أنساباً ، وأقربها أرحاماً ، يا معشر قريش : أنتم جيران بيت الله ، أكرمكم بولايته ، وخصكم بجواره دون إسماعيل وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزوار بيته ، فإنهم يأتونكم شعناً غرباً من بلد فورب هذه البنية لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتموه ، ألا وإنني مخرج من طيب مالي وحلاله ما لم تقطع فيه رحم ولم يؤخذ بظلم ولم يدخل فيه حرام فواضعه ، فمن شاء منكم أن يفعل منها ذلك فعل .

وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج رجل منكم لكرامة زوار بيت الله ومعونته إلا طيباً لم يؤخذ ظلماً ولم تقطع فيه رحم ولم يعتصب .

التعريف بالخطيب :

هو " عمرو بن عبد مناف والد عبد المطلب " جد الرسول ﷺ ، كانت له سقاية الحجاج وإطعامهم ، وكان أول من سن رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة

الصيف إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام ، وكان أحد الأجواد الذين ضرب بهم المثل في الكرم وحسن الضيافة ، أنقذ قريشا من مجاعات كثيرة ، وحماها من نوازل عديدة ، كادت أن تهزكيانها ، وتشتت شملها ، وهو أول من هشم الثريد لقومه ، ولذلك غلب عليه اسم " هشام " . مات وهو في طريقه إلى الشام .

مناسبة الخطبة :

لما كانت سقاية الحجيج مسندة إلى " هشام بن عبد مناف " ، ولما كان العرب يحجون بيت الله الحرام كل عام كان على " هشام " ألا يدخرو سعا في توفير سبل الراحة والأمان لهم ، وبالفعل كان " هشام " يبذل قصارى جهده ووقته ليؤمن البلاد ، ويعبد السبل ، ويكرم الحجيج ، وكان من ذلك تكرار حثه لقريش على أن تعطي وتبذل وتكرم الحجيج ، وهذه الخطبة أثر من آثار اهتمامه البالغ بالحجيج .

معاني المفردات :

- ١ . الاحلام : العقول .
- ٢ . اوسطها انسابا : أفضلها أنسابا .
- ٣ . اقربها ارحاما : أشدها قرابة .
- ٤ . اكرمكم بولايته : شرفكم بأن جعلكم قائمين على رعاية البيت .
- ٥ . اسماعيل : هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .
- ٦ . احسن ما حفظ جار من جاره : أكرمكم بأن أحلكم بلدا آمنا .
- ٧ . الاشعث : الملبد الشعر من وعثاء السفر .
- ٨ . البنية : وهي الكعبة .

٩. لكهيموه : أي لو كان لي مال عنكم كل ما يقدم لحجاج بيت الله .
١٠. فواضعه : أي مخصصة لحجاج البيت .
١١. بمرمة هذا البيت : بحقه عليكم .

أفكار لخطبة :

تقوى خطبة صفاء على ثلاث أفكار هي :

١. مدح قريش والثناء عليها .
٢. بيان تكريم الله لهم بأن جعلهم جيران بيته الحرام .
٣. حمل قريش على البذل والعطاء وإكرام الحجيج .

الدراسة والتعليق :

هذه خطبة من الخطب الكثيرة التي ورثناها عن أجدادنا الجاهلين ، قالها هشام بن عبد مناف ليحث قومه على حسن استقبال الحجيج ، وإكرامهم ، والعناية بأمورهم ، وقد حاول هشام أن تتضمن خطبته ما يكفل لها بأن تكون حقيقة بإقناع من وجهت إليهم ، فالخطابة تقوم أولاً وأخيراً على الإقناع ، والخطيب مطالب قبل كل شيء بأن يقنع جمهور المخاطبين بما يقول . وإذا لقينا نظرة سريعة على الخطبة لاحظنا أنها تتضمن ثلاث أفكار ، جعلها الخطيب محوراً ، أدار خطبته حوله ، فكأنني به من خلال هذه الأفكار قد قسم خطبته إلى مقدمة ، وموضوع ، وخاتمة .

وإذا أمعنا النظر في المقدمة رأينا أنها تتضمن الثناء على قريش وامتداحهم بالشرف والرفعة وطهارة النسب ، وعراقة الأصل ، وكرامة المنبت ، وأرى أنه فعل

ذلك ليستميل عقولهم وقلوبهم إليه ، وليعطوه آذانهم ومشاعرهم ، ومن ثم يكون قريبا منهم ملتحما بهم .

أما الموضوع فيتضمن لفت أنظارهم إلى قدوم الحجيج شعناً غبراً ، قد نالت منهم الغربة ، وأنهكهم السفر ، وأرهقهم التنقل وطول الطريق . كما يتضمن الموضوع أيضاً لفت أنظار قومه بأن الله قد كرمهم ، ورفع منزلتهم بأن جعلهم جوار بيته الحرام .

أما الخاتمة فقد ضمنها الخطيب الغرض الذي من أجله أنشأ خطبته ، وهو الحث على إكرام الحجيج ، وحسن استقبالهم ووفادتهم ، والعمل على راحتهم وأمنهم .

وقد حفلت الخطبة ببعض الألوان الفنية التي أضفت عليها الروعة والجمال ، وأكسبتها البراعة والجلال ، وقد تعددت الأوان الفنية في الخطبة ، فتقف فيها على الصور البيانية ، والأساليب الإنشائية ، وكذلك الأساليب الخيرية

١. فمن الصور البيانية : " يأتونكم شعناً غبراً " فهذه كناية ، أوردها هشام " في صورة حسية أعطت المعنى وضوحاً ، ومنحته قوة وتأثير ، وقد أوردها الخطيب ليثير في نفوس قريش الرغبة في إكرام الحجيج ، ولحفزهم على البذل والعطاء ، ومن الصور أيضاً قوله : " أحسنها وجوها " فهذه كناية عن الشرف والرفعة ، وقوله : " أوسطها نسبا " كناية عن عراقاة الأصل ، وكرم المنبت ، وقوله : " بيت آل " له كناية عن الكعبة المشرفة .

٢. وقد نوع هشام أسلوبه بين الأسلوب الخبري والإنشائي ، فمن الأساليب الإنشائية في خطبته قوله : " يا معشر قريش " وقد كرر هذا

النداء رغبة منه في استمالة قلوبهم والاستحواذ على عقولهم ، ومن الأساليب الإنشائية كذلك قوله : " أكرموا ضيفه " ، وقوله : " أسألكم بحرمة هذا البيت ، ومن الأساليب الخبرية قوله : أنتم جيران بيت الله " وقوله : " أنتم سادة العرب " .

٢. امتاز الخطبة بترتيب أفكارها ، حيث نلاحظ أن كل فكرة تسلم للأخرى ، وهذا ما أعطى للمخطبة تماسكاً ، ومنحها تلاحماً وقوة سبك .

٤. خلت الخطبة من الألفاظ الغريبة ، فألفاظها سهلة مأنوسة ، لا غرابة فيها ، ولا حوشية ، فالألفاظ ذات معان واضحة ، لا تكذب الذهن ، ولا ترهق الفكر في استخراجها والوقوف عليها .

٥. أما معاني الخطبة فهي واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، فلم نقف في الخطبة على غموض أو إغراق في معانيها ، كما لم نقف على تدخل ولا تعطل بين دلالاتها .

٦. خلت الخطبة من دلائل الصنعة التكلف ، فلم نقع فيها اهتمام كبير بالمحسنات البديعية والصنعة اللفظية ، وهذا ما جعلنا نقول : إن الرجل لم يتكلف في أداء خطبته وإنما ترك نفسه على سجيته .

٧. الخطبة تشير دون شك إلى تغلغل الروح الدينية في نفوس العرب ، فقد كانوا يكبرون البيت الحرام ويعظمونه ، ويكرمون زواره والوافدين إليه .

الوصايا :

الوصية : في الحقيقة الأمر توجيه شديد ، ونصح خالص ، وإرشاد سليم ، وحث على التمسك بأمر مهم وخطير ، والوصايا تصدر - عادة - من أناس عمروا طويلاً ، وخاضوا كثيراً من التجارب ، وعركوا الحياة وعركتهم ، وخبروا كثيراً من أمورها وشتى شئونها حتى أصبحوا على دراية كبيرة بعواقب الأمور وعلى علم تام بما ينفع ويضر ، وبناء على ذلك نجد أن الوصايا تصدر في الغالب الأعم من أب رحيم على أبنائه أو أم حانية على بناتها ، أو زعيم راع على قومه .

دواعي الوصايا :

وهناك دواع تفرض على نوى التجارب العريضة والآراء السديدة والعقول المستنيرة أن يقوموا بإصدار الوصايا وإرسالها ، ولعل من أهم هذه الدواعي الشعور بقرب الأجل وانتهاء الأمل ، والإحساس بتغير الأحوال ، ونزول الخطر .

نماذج من الوصايا في العصر الجاهلي :

١ . **فرو (الإصبع العرواني) يوصي ابنه أسيراً .**

قال ذو الإصبع :

يا بني إن أباك قد فنى وهو حي ، وعاش حتى سنم العيش ، وإنني موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغت ، فاحفظ عني : ألن جانبك لقومك يحبوك وتواضع لهم يرفعوك وأبسط لهم وجهك يطيعوك ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك وأكم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم . واسمح بما لك واحم حريمك ، واعزز جارك ، وأعن من استعان بك ،

واكرم ضيفك ، وأسرع النهضة في الصريخ فإن لك أجلا لا يعدوك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً فبذلك سؤددك .

التعريف بصاحب الوصية :

هو حرثان بن الحارث العداوني ، عاش في العصر الجاهلي ، وعمر طويلاً ، يعد من حكماء العرب ، وهو إلى جانب ذلك من الشعراء الفرسان ، فقد شهد وقائع كثيرة ، وخاض معارك مشهورة ، وله شعر جيد ، وسمى ذا الإصبع لأن حبة نهشت إبهام قدمه فقطعه ، أو لأنه كانت برجله إصبع زائدة .

معاني المفردات :

١. **سئم العيش** : كره الحياة .
٢. **الن جانبك لقومك** : كن رقيقاً بهم في معاملتك إياهم .
٣. **ابسط لهم وجهك** : أي كن طلق الوجه، ودع العيوس والانقباض .
٤. **ولا تستأثر عليهم** : أي لا تؤثر نفسك بشيء دونهم .
٥. **يسودك** : أي يجعلونك سيذاً .
٦. **واسمع بمالك** : أي لا تكن بخيلاً ، وكن جواداً كريماً .
٧. **واحم حريمك** : حافظ على حرمتك واحم كل ما يجب حمايته .
٨. **واعزز جارك** : انصره وكن سنداً له .
٩. **الصريخ** : المستغيث .
١٠. **لا يعدوك** : أي لا يتجاوزك أو يتخطاك .
١١. **صن وجهك** : احفظ ماء وجهك وحافظ على عزة نفسك .
١٢. **السؤدد** : الشرف .

أفكار الوصية :

ترور وصية • في الإصبع • حول مرة أنكار ، يحملها في (النقاط التالية) :

- ١ . كبر سنه وتأفقه من الحياة وبغضه لها .
- ٢ . الشيم الحميدة والخلال الكريمة التي تجعل المرء سيدا في قومه .
- ٣ . نجدة الصريح .
- ٤ . الابتعاد عن مواطن الذل .

معنى الوصية :

عندما نقرأ الوصية نلاحظ أن ذا الإصبع العدوانى بدأ وصيته بالإشادة إلى أنه عاش عمرا طويلا ، وأنه خاض تجارب الحياة العريضة ، حتى أصبح عليماً بأمور قد تخفى على الصغار ، وأنه أصبح علمياً وأكبرالظن أنه فعل ذلك ليشير إلى خطورة ما يريد أن يوصى ابنه به . صدق ما يقول ، لأن ما يقوله نتيجة خبرته الطويلة في الحياة ، ثم أخذ ذو الإصبع يوصى ابنه ، ويحثه على أن يتمسك بكمكارم الأخلاق ، وحميد الصفات أن يطرح الكبر جانباً ، ويتمسك بالتواضع ، فإنه إن فعل ذلك نال الحظوة في قومه ، والصفة الثانية التي حدث ذو الإصبع ابنه على أن يتمسك بها هي صفة بسط الوجه وترك العبوس والتجهم ، وأخذ ذو الإصبع بعد ذلك في سرد الخلال الكريمة ووضعها إزاء ابنه ليتمسك بها كالكرم ، ونجدة الصريح ، والابتعاد عن

تطيل الوصية :

- ١ . لم يهجم " ذو الإصبع " مرة واحدة على ابنه ليوصيه ، وإنما قام بتمهيد بدأ به الوصية ألح فيه إلى كبر سنه ، وقرب أجله ، وشعوره بالخطر ، وقد فعل ذلك ليستميل قلب ابنه إليه ، ولتكون وصيته ذات أثر فعال .

٢. انتقل " ذوالإصبع " من التمهيد إلى ما يكفل لابنه حياة سعيدة كريمة في قومه ، فجعل يضع أمامه خلال الطيبة التي تجعله في ألفة نامة ، وود مستمر مع أبناء قومه .
٣. يلاحظ أن " ذوالإصبع " قرن كل صفة بنتيجتها المترتبة عليها ، فلين الجانب يميل القلوب ، والتواضع يرفع صاحبه .
٤. وأهم ما يميز الوصية أن جملها قصيرة ، وعبارتها موجزة ، وأسلوبها قوى ومعانيها واضحة لا غموض فيها ولا التواء ، ومن ثم كانت الوصية أبلغ في التأثير واحظي بالقبول .

الأمثال:

المثل : قوله موجز مشهور يشبه به حال الذي حكى فيه بحال الذي قيل لأجله . ولكل مثل مورد ومضرب . فالمورد هو الحال التي قيل فيها المثل . والمضرب هو الحال التي يقال فيها . وتتميز الأمثال بأنها تصدر من وحي الفطرة السليمة . تحت تأثير من الشعور الصادق . والتجارب الفعلية .

وتتميز الأمثال كذلك بإيجاز ألفاظها . وإصابة معانيها . وما تتضمن عليه من حسن التشبيه . وجودة الكناية . ومن ثم فهي تهب الكلام رونقاً . وتفرغ عليه قبولاً وحسناً .

وقد اهتم كثير من العلماء بجمع الأمثال وشرحها . في مصادر مستقلة مثل كتاب " الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام " . والأمثال " لأبي عكرمة الضبي " . والأمثال " للمفضل الضبي " . وجمهرة الأمثال " لأبي هلال العسكري " . والمستقصى " للزمخشري " . ومجمع الأمثال " للميداني " . ويعد هذا الكتاب من أوفى الكتب وأفضلها وأشملها التي ألفت في هذا الموضوع . فقد جمعه الميداني من خمسين كتاباً . ألفت جميعها في الأمثال . ثم قام بترتيب أمثاله على حروف المعجم بعد أن أضاف إليها أمثال المولدين .

وأمثال الجاهلين سجل حافل يضم كل ما يتصل بحياتهم الاقتصادية . والسياسية . والاجتماعية . وتشير إلى كل ما تحتوي عليه بيناتهم من حيوانات أو زواحف أو حشرات أو ظواهر طبيعية . والنظر في مجموع الأمثال الجاهلية يجد أنها صورت الحياة الجاهلية تصويراً دقيقاً . وهذا ما يحذو بنا إلى أن نقول بكل اطمئنان إن الأمثال الجاهلية كانت بمثابة صورة صادقة للحياة الجاهلية . وإنها

كانت بحق صوت المجتمع الجاهل الذي جسد آماله وأحلامه وآلامه وأفراحه وأتراحه ، فمن الأمثال التي تعطينا صورة صادقة عن حياتهم السياسية وما كان يسرى خلالها من خصومات بين الإمارات العربية والقبائل المختلفة قولهم : " أشام من اليسوس " ، وقولهم : " لا ناقة لي فيها ولا جمل " ، وقولهم : " أجرى من داخس " .

ومن أمثالهم التي تعطينا صورة صادقة أمينة عن نمط حياتهم الاقتصادية قولهم : " إنما الدلو بالرشاء " ، وقولهم : " أنفك منك وإن كان أجدع " .

ومن أمثالهم التي تشير إلى ما كان يقع عليهم من خطوب وكوارث قولهم : " سبق السيف العدل " ، وقولهم : " رأى فاتر وعدو حاضر " ، وقولهم : " بالصيف ضعيف اللين " .

ومن أمثالهم التي تشير إلى قوة إدراكهم لبواطن النفس البشرية قولهم : " حبك للشيء يعمى ويصم " ، وقولهم : " رب أخ لم تلده أمك " ، " مقتل الرجل بين فكيه " ، والكثر كخاطب ليل " .

واليك طائفة من أمثالهم لنقف من خلالها على سمات الأمثال وما تميزت به :

1. لا تعدم العناء طاماً ،

يضرب مثلاً للشيء الفاضل يكون فيه ما يشينه .

وأول من قال ذلك " حبي بنت مالك العدوانية " وكانت جميلة فخطبها " مالك بن عسان " ، فلما حملها قالت أمها لنسوتها إن لنا عند الملامسة رشحة ، فإذا أردتن إدخالها على زوجها فمحن أعطافها بما في أصدافها ، فلما أردن ذلك بها أعجلهن زوجها عن تطيبها ، فوجد منها رويحة ، فلما أصبح قيل له كيف

رأيت طروقتك ؟ قال : لم أراك الليلة لولا رويحة أنكرتها ، فقالت من خلف الستر ، لن تعدم الحسنة ذاماً فذهبت مثلاً .

٢ . وافق هن طبقة ،

وقصة هذا المثل أن شنا كان رجلاً من عقلاء العرب ، قال والله لأطوفن حتى أجد امرأة مثلى فأتزوجها ، فبينما هو في بعض مسيرة إذ وافقه رجل في الطريق فسأله شن أين تريد ؟ فقال : موضع كذا ، يريد القرية التي يقصد لها شن ، فوافقه فلما أخذها في مسيرها قال له شن : أتحملي أم أحملك ، فقال له الرجل : يا جاهل أنا راكب وأنت راكب ، فكيف أحملك أو تحملي ؟ فسكت عنه شن وسار إذا قريبا من القرية إذا هما بزرع قد استحصد ، فقال له شن أتري هذا الزرع أكل أم لا ؟ فقال الرجل يا جاهل ترى نباتاً مستحصداً فتقول أتراه أكل أم لا ، فسكت عنه حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جنازة ، فقال شن أتري صاحب هذا نعش حيا أم ميتا ؟ فقال له الرجل ما رأيت أجهل منك . نرى جنازة فتسأل أميت صاحبها أم حي ؟ فسكت عنه شن وأراد مفارقتة ، فأبى الرجل أن يتركه حتى يصيربه إلى منزله فمضى معه ، وكان للرجل ابنة يقال لها طبقة فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه فأخبرها بمرافقتة إياه وشكا إليها جهله وحدثها بحدثه ، فقالت يا أبة ما هذا بجاهل .

أما قوله أتحملي أم أحملك فأراد أتحدثني أم أحدثك حتى تقطع طريقنا ، وأما قوله : أتري هذا الزرع أكل أم لا فإنما أراد أباعه أهلوه فأكلوا ثمنه أم لا ، وأما قوله في الجنازة فأراد هل ترك عقبا يحيا بهم ذكره أم لا ؟ فخرج الرجل فقع مع " شن " فحدثه ساعة ، ثم قال له أحب أن أفسرك ما سألتني عنه ؟ فقال : نعم .

ففسره، فقال : " شن " ما هذا من كلامك فمن صاحبة ؟ قال ابنة لي : فخطبها فزوجها إياها فلما رأوها قالوا وافق شن طبقة يضرب مثلاً .

٣ . جوع كلبك يتبعك ،

يضرب لما ينبغي أن يعامل به اللئام .

أول من قال ذلك ملك من ملوك حمير كان عنيفاً على أهل مملكته . يغتصب أموالهم ، ويسلبهم حقوقهم ، وكانوا يخبرونه أنه سيقتل ، فلا يحفل بذلك ، وأن امرأته سمعت أصوات السؤال فقالت : إني لأرحم هؤلاء لما يلقون من الجهد ونحن في العيش والرغد ، وإني لأخاف أن يكونوا عليك سباعا ، وقد كانوا لنا أتباعا فرد عليها ، جوع كلبك يتبعك ، فأرسلها مثلاً ، فلبث زمانا ثم أغزاهم فغنموا وحرّمهم من الغنيمة ، فقالوا لأخيه وكان أميرهم ، إنا نكره خروج الملك فيكم وقد ترى ما نحن فيه فساعدنا على التخلص منه وأجلس مكانه فوثبوا إليه فقتلوه ، فمر به " عامر بن جذيمة " وهو مقتول وقد سمع بقوله : جوع كلبك يتبعك فقال ربما أكل الكلب مؤذبة إذا لم ينل شبعه ، فأرسلها مثلاً يضرب لما ينبغي أن يعمل به اللئام .

٤ . لا تطر بعد عروس ،

يضرب لمن لا يحذر عنه نفيس .

وأول من قال ذلك امرأة من عذرة ، يقال لها " أسماء بنت عبد الله " ، وكان لها زوج من بني عمها يقال له عروس ، فمات عنها ، فتزوجها رجل من قومها يقال له نوفل ، وكان أعسر أبخر بخيلاً دميماً ، فلما أراد أن يظعن بها قالت له :

لوأذنت لي فرثيت ابن عمى وبكيت عند رسمه ، قال : افعلي . فأنشأت تقول :
يا عروس الأعراس ، يا أسداً عند الباس ، مع أشياء ليس يعملها الناس ، قال
نوفل : وما تلك الأشياء ؟ قالت : كان عند الهمة غير نعاس ، ويعمل السيف
صبيحات الباس ، ثم قالت : يا عرس الأعراس الأزهر الطيب الخيم ، الكريم
العنصر ، مع أشياء ليس نذكر ، قال : وما تلك الأشياء ؟ قالت : كان عيوناً للخنا
والنكر ، طيب النكهة غير أبخر ، أيسر غير أعسر ، فعرف أنها تعرض به فلما رحل
بها قال : أيتها المرأة ضمي عطرك ، ونظر على قشوة فيها عطرها مطروحة ،
فقالت : لا عطر بعد عروس فذهبت مثلاً ، ويقال إن رجلاً تزوج امرأة فوجدها
تفله فقال لها أين الطيب ؟ فقالت خبأته ، فقال : لا عطر بعد عروس ، يضرب
لمن لا يدخر عنه نفيس .

٥ . ربه ساع لقاعد ،

أول من قاله النابغة الذبياني شاعر النعمان بن المنذر ، وقصة هذا المثل أن
وفداً من وفود العرب أتى النعمان بن المنذر ، وكان فيهم رجل من بني عبيس يقال
له شقيق ، فمات عنده ، فلما حيا " النعمان " الوفود بعث على أهل شقيق بمثل
حبايا الوفد فقال النابغة : رب ساع لقاعد .

٤ . جزاء سنمار ،

يضرب لمن يجزي بالإحسان الإساءة .

ومعنى هذا المثل أن جزائي جزاء سنمار ، وسنمار رجل رومي بني الخورنق "
للنعمات بن امرئ القيس " ولما فرغ منه ألقاه " النعمان " من أعلاه فخرميتاً ،
وإنما فعل ذلك به لئلا يبني مثله لغيره ، فضربت العرب به المثل لمن يجزي
بالإحسان الإساءة .

الحكم :

الحكمة قول يتسم بالإيجاز، يتضمن حكماً إما يحث على الخير، ويدعو إلى الفضيلة، وإما ينهي عن الخبث، ويكف عن الشر، فالأمة العربية من أكثر الأمم إرسالاً للحكمة وإفرازاً لها، ويرجع ذلك إلى كثرة تجارب أبنائها في الحياة، وحصانة عقولهم، ورجاحة تفكيرهم من ناحية، ويرجع كذلك إلى فصاحتهم النادرة، وقوة تمكنهم من زمام الأساليب من ناحية أخرى.

والملاحظ أن الحكمة تجيء في الشعر كما تجيء في النثر، فتقف عليها في الشعر في صورة أبيات منظومة وموزونة داخل القصائد الطويلة، ونقف عليها في النثر الجالي في صورة عبارات دقيقة قصيرة موجزة من الوزن، تتضمن خلاصة تجارب عريضة لأفراد أو جماعات.

وقد حفظت لنا كتب الأدب ومصادر التاريخ كثيراً من أعلام الحكمة في العصر الجاهلي في الشعر والنثر، فمن حكماء الجاهلية، " ذوالإصبع العدواني " واسمه " عامر بن الظرب "، و " قس بن ساعدة الإيادي "، و " طرفة بن العبد ".

وللحكمة أثر بالغ في الكلام، فهي تورث بهاء وقبولاً، وتمنحه عذوبة وشرفاً، وترتفع به، وتضعه في منزلة سامية، ومن ثم تقبل عليه نفس البشرية في لهفة، وترتاح إليه الأفتدة، وتطمئن إليه الأذهان، فالكلام الذي يشتمل على الحكمة يكون أمتع في الصدور وأوقع في النفوس، وأنقى في الأسماع، وأسير في الأفاق، ولا شك في ذلك، فالحكمة تثير في النفوس حب الفضيلة وتدعو إلى الهداية وتحت على مكارم الأخلاق.

وإليك طائفة من حكم (المأهلية) :

قال أكرم بن صيفي ^(١) .

حبلة من لا حبلة له الصبر .

العاقبة الملك الخفي .

من لم يأس على ما فاته أراح نفسه .

عدو الرجل حقه وصديقه عقله .

الكرم حسن الفطنة وحسن التغافل ، واللؤم سوء التغافل .

الحر حروان مسه الضر ، والعبد عبد وإن كان في رعد .

الحر لا يكون صريح بطنه ولا فرجه .

أحق من يشركك في النعم شركاؤك في المكاره .

الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة وإفراط الأُنس مكسبة لقرناء السوء .

إن سرك من دمك فانظر أين يريقه .

لا تفضس سرك إلى أمة ولا تبل على أكمة .

الصمت يكسب أهلة المحبة .

وقال أيضاً ^(٢) :

من لا حاك فقد عداك . فضل القول على الفعل دناءة . وفضل الفعل على

القول مكرمة . المناكح الكريمة من مدارج الشرف ، الوقوف عند الشبهة خير من

اقتحام الهلكة . من يصحب الزمان ير الهوان . في كل عام سقام . ومن كل خبرة

عبرة كل فرحة ترحة . من مأمنه يؤتى الحذر ، رب صباية غرست من لحظة .

١ - أكرم بن صيفي ومثوره د / كاظم الطواهر ص ٢١٣ وما بعدها دار الصابوني - ط ٢ - ١٩٩١ م .
٢ - السابق ٢٠٨

ورب حرب شبت من لفظة . رب كلمة سلبت نعمة . رب ملموم لا ذنب له : رضا
الناس غاية لا تدرك . خير السخاء ما وافق الحاجة . ومن عرف قدره لم يهلك .
ومن صبر ظفر ، وأكرم أخلاق الرجال العدو .

حكم للصعقب بن عمرو بن النهدي^(١) :

قال ابن دريد أخبرنا السكن بن سعيد الرموزي عن محمد بن عباد عن
الكلبي قال : وفد " الصعقب بن عمرو النهدي " في عشرة من بني نهد على "
النعمان بن المنذر " ، وكان الصعقب رجلاً قصيراً دميماً تقتحمه العين شريفاً
بعيد الصوت ، وكان قد بلغ النعمان حديثه ، فلما أخبر النعمان بهم قال للأذان :
اأذن للصعقب ، فنظر الأذن إلى أعظمهم وأجلهم ، فقال : أنت الصعقب ؟ قال :
لا ، فقال للذي يليه في العظم والهيئة : أنت هو ، فقال لا : فاستحيا ، فقال ايكم
الصعقب ؟ فقال الصعقب ؟ الصعقب : هانذا فأدخله إلى النعمان ، فلما رآه
قال : تسمع بالمعدي خير من أن تراه ! فقال له الصعقب : أبيت اللعن : أن
الرجال ليسوا بالمسوك يستنقى فيها ، إنما الرجل بأصغريه بلسانه وقلبه ؟ أن
قاتل قاتل بجنان ، وأن نطق نطق ببيان ، فقال له النعمان : فله أبوك : فكيف
بصرك بالأمور ؟ فقال : أنقض منها المفتول ؟ وأبرم منها المسحول وأحليها حتى
تحول ، ثم أنظر إلى ما يثول ، وليس لها بصاحب من لم ينظر في العواقب . قال : قد
أحلت وأحسننت ، فأخبرني عن العجز الظاهر والفقير الحاضر . قال : أما الظاهر
فالشاب الضعيف الحيلة المتبوع للحيلة ، الذي يحوم حولها ويسمع قولها ، إن
غضبت ترضاها وإن رضيت تفداها ، فذاك الذي لا كان ولا ولد النساء مثله .

١ - تطبيق من أمالي ابن دريد ٢٢٤ - ٢٢٥ ، ومعنى الصعقب : الطويل ، والمسك : الجلد لو خاص بالسخلة ، والسحل :
الذي قوة واحدة ، داء . عياه . لا يبرأ منه ، سبع فلانا : شتمه ووقع فيه .

وأما الفقر الحاضر فالذي لا تشبع نفسه ، وإن كان له قنطار من ذهب .
قال : فأخبرني عن السوءة السوءاء والداء العياء ، قال : أما السوءة السوءاء فالمرأة
السليطة التي تعجب من غير عجب ، وتغضب من غير غضب ، فصاحبها لا ينعم
بأله ولا يحسن حاله ، إن كان ذا مال لم ينفعه ، وإن كان فقيراً عير به ، فأراح الله
منها بعلها ، ولا متع بها أهلها .

وأما الداء العياء فالجار جار البيت إن شهدك شافهك ، وإن غبت عنه
سبعك ، وإن قاولته بهتك ، وإن سكنت عنه ظلمك ، فقال له النعمان : أنت أنت !
فأحسن صلته وصلة أصحابه " .

وقال · عامر بن الظرب العدواني ^(١) :

يا معشر عدوان : الخير ألوف عروف ، وإنه لن يفارق صاحبه حتى يفارقه ،
وإني لم أصبح حكيماً حتى صاحبت الحكماء ، ولم أكن سيدكم حتى تعبدت لكم .
وقال · النعمان بن المنذر · :

من سأل فوق قدره استحق الحرمان ، ومن ألحف في المسألة استحق الرد ،
والرفق بمن ، والحزن شؤم ، وخير الطاعة ما وافق الحاجة ، وخير العفو ما كان مع
القدرة ^(٢) .

وقال أيضاً ^(٣) :

الملك حلوا الطعم مر التكاليف ، وكان يقول من خان جان ، ولما وقع في
حبس ابرويز وأشرف على التلف قال : من له يدان بغوائل الزمان ، ومن كلامه :
الملك عقيم أي لا أرحام بين الملوك وبين أحد .

١- امالي لأبي القالي ١٧٩ / ٢ .

٢- كتاب الأدب لجعفر بن شمس الخلافة ص ١٨ .

٣- الإعجاز والإيجاز للثعالبي ص ٦١ - ٦٢ ومعنى : جان ، الجان السود : أي من خدع وغش يسود : وجهه يوم الدين
وغوائل جمع غائلة وهي الداهية المهلكة .

وقال عمرو بن هند ^(١) :

السلاح ثم الكفاح والمحاضرة، وكان يقول الملوك يشتمون بالأفعال لا بالأقوال، ويتسفهون بالأيدي لا بالألسن.

وقال الحارث بن أبي شمر الغساني ملك عرب الشام ^(٢) .

إذا التقى السفيان بطل الخيار، وكان يقول من اغتر بكلام عدوه فهو أعدى عدول نفسه، ومن كلامه: الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود.

وقال حسان بن تبع الحميري - احد ملوك اليمن - ^(٣) :

لا تثقن بالملك فإنه ملول، ولا بالمرأة، فإنها خؤون، ولا بالدابة فإنها شرود، ومن كلامه المعروف حصن النعمة من صروف الزمن، وضروب المحن.

١- السبق ص ٦٢.

٢- السبق ص ٦٣.

٣- السبق ص ٦٣.

الشعر في العصر الأموي

إذا نظرنا إلى بيئة الشعر في العصر الأموي نجدها قد تغيرت وتطورت فهذه مكة والمدينة قد تحضرتا وكثر فيهما الترف والرقى ، والعبيد والمغنيات والغنيين والإماء ، واكتملت لها كل أسباب المرح البرئ الذي قوامه الذوق الراقى المهدب ، مما جعل أهلها يحزنون على فراقها كما حدث لأبي فطيفة الأموي حين نفاه ابن الزبير إلى دمشق أخذ يبكي بلدته في شعر مؤثر مقارناً بينهما وبين دمشق ، ولا نقرأ هذا الشعر حتى نحس كأنه طرد من فردوسه الأرضي يقول في مطلع قصيدة له :

القصر فالنحل فالجماء بينهما

أشهى إلى القلب من أبواب جيرون

ويقول :

أقطع الليل كله باكتئاب

وزفير فما أكاد أنام

وكان للحروب الدامية والمعارك العنيفة ، والثورات المتلاحقة التي شهدتها العصر الأموي أثر كبير في إنكفاء روح الشعر ، وإشعال ناره إذ كان يجري على كل لسان ، واتخذ الأمويون وخصومهم أداة للتعبير عن آرائهم السياسية المختلفة ، وتأييداً لذهبهم ، ودفاعاً عنه ، ورداً على الآخرين ونقضا لهم .

وقد ظهرت أعراض جيدة في الشعر في هذا العصر على رأسها الغزل ، إذ كان في العصور السابقة يتخذ بداية ومقدمات للقائد في مختلف أغراضها ، أما في العصر الأموي فقد أصبح فناً مستقلاً قائماً بذاته عند كثير من الشعراء في

مقدمتهم (عمر بن أبي ربيعة) إنا جعل ديوانه كله غزل وكذلك ظهر شعر النفاض على يد جرير والفرزدق والشعر التعليمي والرجز إلى غير ذلك من الأغراض التي جدت في هذا العصر.

وقد أثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموي تأثيراً واضحاً ، فنرى الغزل وقد تطهر وصفي مما كان عليه من قبل ، ونشأ الغزل العزري وكأنما أضفى الإسلام على المرأة وعلاقتها بالرجل عند هؤلاء الشعراء ضرباً من القدسية أحاطها بهالة من الجلالة والوقار. كما نرى في شعر عمر بن أبي ربيعة وغيره .

أما شعر المديح فقد تحول إلى تصوير الفضيلة الدينية في المدوح ، ووثق هذا التصوير في مديح الخلفاء والولاة أن الحكم والدين كانا مرتبطين ارتباطاً لا تنفص عراه . فنهض الشعراء يتحدثون عن تقواهم ، وأنهم يقيمون ميزان العدالة السماوية بين الرعية . وعلى نحو ما تقرر المديح بالإسلام ، تأثر فن الهجاء كذلك . إنا أخذ الشعراء يهجون خصومهم بالتحرافهم عن الدين ، فأطالوا في وصفهم بالفسوق والبغي والظفیان .

أما شعر الحماسة فقد كان أقوى في تأثيره بالإسلام . إذ كان أكثره ينظم في الجهاد ، وحب الشهادة والتضحية في سبيل الله .

كما طبع الرثاء بطابع الإسلام وميلاته من التسليم لله بالرضا بفضائله ، فكل نفس نائفة الموت ، وهو حسمٌ في رقاب العباد ، وعليهم أن يتذرعوا إزاءه بالصبر الجميل .

هنا من ناحية موضوعات الشعر وأغراضه ، أما من حيث الألفاظ والأساليب والأوزان ، فلم يختلف بناء القصيدة في هذا العصر عنه في عصر الجاهلية وصدر الإسلام فقد اشتملت على عدة عناصر من الأغراض والمقاصد

فكان الشاعر يبدأ بالنسيب وذكر الديار ثم يفخر بنفسه وقومه ، ثم يقتضب الكلام إقتضاباً ، وينتقل إلى الغرض الذي يقصده من مدح أو هجاء على ما كان متبعاً في العصر الجاهلي وعند شعراء الإسلام .

ولم يخرج شعراء هذا العصر في جملة تصوره وتخليهم عما الفوه في العصرين السابقين وإن خالفوه في ترتيب الفكر ، وتقريب المعاني إلى الأذهان والوجدان بما هذب نفوسهم ، ووفق طباعهم ، من دراسة كتاب الله وأحاديث رسوله الكريم ، بما نوع خيالهم ووسع معارفهم من مشاهد الحضارة وبدائع الصناعات .

كما لم يخرجوا جملة في تأليف ألفاظهم ، ونسج أساليبهم عن نظائرهم في الجاهلية والإسلام ولكنهم أثروا جزالة اللفظ ، وفخامته وحسن جرسه ، ومؤلفته لسابقه ولاحقه دون غرابة أو تنافر ، وربما تعمد بعضهم الغريب ، ومداخلة بعض الكلام في بعض ليعجب علماء اللغة والنحو كالفرزدق ، كما أثروا جودة الأسلوب وروعة تأثيره ورقته وعزوبته في الغزل القصصي والنسيب والعفيف البدوي .

هذا عن القصيدة أما الرجز فقد كانت الغرابية من ألزم طبائعه . أما الأوزان والقوافي فلم يصيبها تغيير يذكر عما كانت عليه من قبل ، ولكن شاع في هذا العصر نظم الأراجيز والتطويل فيها واستعمالها في جميع أغراض القصيدة ، حتى في افتتاحها بالنسيب والتخلص منه إلى المدح والزهد ونحو ذلك .

جميل بثينة والحب العزري

"من بحر الطويل"

يقول جميل :-

أَلَا لَيْتَ أَيَّامَ الصَّفَاءِ جَدِيدٍ
وَدَهْرًا تَوَلَّى يَا بُثَيْنُ يَعُودُ
فَفَغَنَّى كَمَا كُنَّا نَكُونُ وَأَنْتُمْ
صَدِيقٌ وَإِذَا مَا تَبْذُلِينَ زَهِيدُ
وَمَا أَنْسَى مَلَأَ شَيْءٌ لَا أَنْسَى قَوْلَهَا
وَقَدْ قَرَبْتَ نِضْوِي أَمْضِرُ تَرِيدُ
وَلَا قَوْلَهَا : لَوْلَا الْعُيُونُ الَّتِي تَرَى
أَتَيْتُكَ ، فَاعْذِرْتِي فَدَتِكَ جُدُودُ
خَلِيلِيَّ مَا أَخْفَى مِنَ الْوَجْدِ ظَاهِرًا
وَدَمَعِي بِمَا أَخْفَى الْغَدَاةَ شَهِيدُ
أَلَا قَدْ أَرَى وَاللَّهِ أَنَّ رُبَّ عَبْرَةٍ
إِذَا الدَّارُ شَطَطَتْ بَيْنَنَا سَتَرِيذُ
إِذَا قُلْتُ : مَا بِي يَا بَثِينَةَ قَاتِلِي
مِنَ الْحُبِّ قَالَتْ : ثَابِتُ وَيَزِيدُ
وَإِن قُلْتُ رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعْشِ بِهِ
مَعَ النَّاسِ قَالَتْ : ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ
فَلَا أَنَا مَرْدُودُ بِمَا جِئْتُ طَالِبًا
وَلَا حُبُّهَا فِيمَا يَبِيدُ يَبِيدُ

جَزَنُكَ الْجَوَازِي يَا بُثَيْنُ مَلَامَةً
 إِذَا مَا خَلِيلُ بَانَ وَهُوَ حَمِيدُ
 وَقُلْتُ لَهَا : بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَاعَلِمِي
 مِنْ اللَّهِ مِيثَاقَ لَهُ وَعُهُودُ
 وَقَدْ كَانَ حُبُّكُمْ طَرِيقًا وَتَالِدَا
 وَمَا الْحُبُّ إِلَّا طَارِفٌ وَتَلِيدُ
 وَإِنْ غَرِوضَ الْوَصْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
 وَإِنْ سَهَلْتَهُ بِالْمَنَى لَصَعُودُ
 فَأَقْنَيْتُ عَيْشِي بِانْتِظَارِي نَوَالِهَا
 وَأَبْلَيْتُ ذَاكَ الدَّهْرَ وَهُوَ جَدِيدُ

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُبَيْتَنَّ لَيْلَةً
 بَوَادِي الْقُرَى إِيَّيْ إِذَا لَسَعِيدُ
 وَهَلْ أَهْبَطَنَ أَرْضًا تَظَلُّ رِيَاخُهَا
 لَهَا بِالتَّنَائِيَا الْقَاوِيَاتِ وَتَبِيدُ
 وَهَلْ أَلْقَيْنَ سَعْدِي مِنَ الدَّهْرِ مَرَّةً
 وَمَارَتْ مِنْ حَبْلِ الصَّفَاءِ جَدِيدُ
 وَقَدْ تَلْتَقَى الْأَهْوَاءُ مِنْ بَعْدِ بَأْسَةِ
 وَقَدْ تَطَلَّبَ الْحَاجَاتُ وَهِيَ بَعِيدُ
 وَهَلْ أَزْجُرَنَّ حَرْقًا عِلَاةً شَمْلَةً
 بِخَرَقٍ تُبَارِيهَا سَوَاهِمُ سُودُ

على ظهر مرهوبٍ كان نُشُوزُهُ
 إذا جازَ هُلاكَ الطريقِ رُقُودُ
 سَبَّتني بِعَيْنِي جُودِرٍ وَسَطَ رَبِّرَبٍ
 وصَدَرَ كَفًا ثُورِ اللِّجِينِ وَجِبْدُ
 فَمَنْ يُعْطَى فِي الدُّنْيَا قَرِينًا كَمِثْلِهَا
 فذلك فِي عَيشِ الحِياةِ رَشِيدُ
 يموتِ الهَوَى مِني إِذا ما لَقِيتُهَا
 وَيَحِيَا إِذا فَرَقْتُهَا فَيَعُودُ
 يَقُولونَ : جَاهِذِ يا جَميلُ بَغْزَوَةَ
 وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرَهُنَّ أريدُ؟
 لِكُلِّ حَدِيدٍ بَيْنَهُنَّ بَشاشَةٌ
 وَكُلِّ قَتيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ
 وَمَنْ كانَ فِي حَبِيٍّ بُنَيَّةً يَمْتَرِي
 فَبِرِقاءِ ذِي ضالٍ عَلَيَّ شَهِيدُ
 أَلَمْ تَعَلِّمي يا أُمَّ ذِي الوَدَعِ أَنَّني
 أَضاحِكُ ذِكرِ أَكْمَ وَأَنْتِ صالُودُ

وراسة القصيرة :

١- التعريف بالشاعر :

هو أبو عمرو جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي . وهو شاعر فصيح مقدّم .. جامع للشعر والرواية ، كان راوية هذبة بن خشرم ، وكان هذبة شاعراً راوية للحطيئة وكان الحطيئة شاعراً راوية لزهير وابنه كعب وكان كثيرين

عبد الرحمن (كثير عزة) راوية لجميل ، ومعنى ذلك أنه موصول الأواصر بمدرسة شعرية كان لها تاريخ كبير في الحرص على شرف المعنى وقوة الأسلوب وجزالته .

ويعد جميل من عشاق العرب ، فقد افتتن بحب بئينة ، وهام على وجهه حتى استقر في مصر تاركاً بني عذرة في وادي القرى ، وقرب المدينة المنورة ، وظل مقيماً في رحاب عبد العزيز بن مروان واليهما فأكرمه وظل بمدحه حتى توفي عنده عام ٨٢ هـ / ٧٠١ م ، وتناقل الناس أخباره وأشعاره العذرية الرقيقة في الشعر العذري الذي ابتكره مع شعراء اشتهروا بذلك في العصر الأموي ، منهم : قيس بن الموح ، وقيس بن ذريح ، وكثيرة عزة ، وتوبة الخفاجي . ويعدده النقاد في البادية نظير عمر بن أبي ربيعة في الحاضرة وكلاهما حجازي خضعا لعوامل متقاربة .

أما صاحبة جميل فهي بئينة بنت حبا بن ثعلبة بن ربيعة ... حيث تلتقي مع جميل في النسب ، وكانت تكني أم عبد الملك لكن ماذا عن قصة هذين العاشقين ومآساتهما ؟

تشهد أخبار جميل وبئينة أن هذه المأساة بدأت بحادث عابر ، تفجرت منه كل الروافد العاطفية حتى نهاية المدى ، فقد كان جميل في أول عهده بالعشق يهوي (أم الجسير) أخت بئينة الكبرى ، وذات يوم أقبل جميل بإبله حتى أوردها وادياً ترعى كما تشاء ، وكان يقطن في طرف هذا الوادي قوم بئينة ، وتصادف في هذا اليوم أن خرجت الفتاة بصحبة جارة لها .. تردان الماء ، فمرتاً على بعض من إبل جميل فنفرته ، وشق ذلك على الفتى فقام من ضجعته إلى بئينة تلك الفتاة الصغيرة التي خالها حمقاء فعنفها على سلوكها وسبها فردت عليه سبه بسب آخر وغالت فيه .

وأدرك جميل كم هي رقيقة تلك الفتاة ، وكم هو مليح سبابها . فشعر بسهم
الحب ينفذ إلى عمق قلبه ، فأحب سبابها ، وعلق بها .
أية عاطفة طاغية تلك التي تقيهما الإساءة والحرمان والسباب . وكأن قلبه
كان ينفث في شوق جارف لعاطفة تملؤه .

وينصرف جميل عن أم الجسير إلى أختها الجميلة بثينة وفي ذلك يقول :

وأول ما قاد المودة بيننا

بوادي بغيض يا بثين سبابُ

وقلنا لها قولا فجاءت بمثله

لكل كلام يا بثين جوابُ

وبهذا تبدأ سطور قصة العشق بين جميل وبثينة ، وتتتابع فصول القصة
يوماً بعد يوم حتى ينسى المؤرخون نسب جميل ، ويذكروا فقط اسمه مقروناً
بمحبوبته بثينة .

وتورد الأخبار أنه قد وقع لبثينة هوى جديد مع رجل اسمه حجنة الهلالي ،
فلم يزهه ذلك إلا فتوناً إلى فتون ، ووقعت الجفوة بينهما ، وهي جفوة لم تشفه من
جواه ؛ لأنه كان قد صار إلى حالة لا ينفع فيها بواء .

ولم يفلح أهله في إقناعه بوجوب الكف عن هوى امرأة ليس له من أطايبها
غير النعيم بأوهام الخيال .

وقد اعترف جميل بأن من الحمق أن يذوب الرجل وجداً بامرأة تكون
أطايبها في زمام رجل سواه . ثم اعتذر بأنه لا يملك الصبر عن الهيام بتلك المرأة .
لأنها ملكت عليه أقطار نهاه وقد أضله هواه فلم يعد يعرف مذاهب التجميل ولا
مسالك العقل .

وتشهد أخبار جميل وبثينة بأنهما كانا عاشقين يريان للعشق غاية أشرف من المتاع المبدول في دنيا الأهواء ، ومن أجل هذا سخر جميل من العبارات التي وجهت إلى من يعشق امرأة لها بعل ، وهي عبارات غليظة تؤذي الرجل البدوي أشد الإيذاء .

ولم تقف بليّة الحب عند الهيام بامرأة متزوجة لا تنال منها المطالب الحسية إلا عن طريق الإثم - وهو مسلك يمقته جميل كل المقت - فقد صدر أمر السلطان بإهدار دم جميل إن فكر في زيارة بثينة ، فرحل إلى اليمن مرة ، وإلى الشام مرة ، وطالت به الحيرة في تلمس أسباب الخلاص من هواه ، فلم يجد أفضل من الرحيل إلى مصر ، ولم تطل أيامه بمصر ، فقد أخذ النور يخبو واحس أن الستار الأخير سوف يسدل عليه ، فدعا صديقا له وأوصاه أنه إذا مات عليه أن يأخذ حلته في حقيبته ويذهب إلى قوم بني الأحب من عذرة - وهم قوم بثينة وأن يصيح بهذه الأبيات :

بكر النعي - وما كنى - بجميل

وثوى بمصر ثواء غير ققول

بكر النعي بفارس ذي همة

بطل إذا حمل اللواء مديل

ولقد أجر الذيل في وادي القرى

نشوان بين مزارع ونخيل

قومي بثينة فاندبي بعويل

وابكى خليلك دون كل خليل

ففعل الرجل ما أوصاه به جميل ، فما كاد ينقضي من إلقاء هذه الأبيات حتى برزت إليه بثينة يتبعها نسوة قد بزتهن طولاً وبرزت أمامهن كأنها بدر قد برز في جنة فقالت : يا هذا لئن كنت صادقاً لقد قتلتنني ، ولئن كنت كاذباً لقد فضحتني : فقال الرجل : والله ما أنا إلا صادق . وأخرج حلة جميل فلما رأتها بثينة صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها واجتمع نساء الحي يبكين معها ويندبنه حتى صعقت ووقعت مغشياً عليها . فلم ير يوم كان أكثر بكاء منه .

وهكذا تغلق الصفحة الأخيرة في هذه المأساة ، على صورة عاشقين كتب عليهما قدرهما أن يعيشا على وجد ومرارة وشوق جارف ، يموت العاشق بعيداً عن وطنه ونحبي العشوقة في كمد وحزن ووحشة تجتر ذكرياتها القديمة حتى طوقتها رمال عذرة بعد موت حبيبها بقليل ليلتقيا في جنة العاشقين التي لا تعرف الفراق مهما بعدت بينهما المسافة .

ويقتضينا المقام أن نقول إنه إذا كانت مأساة قيس ولبنى - على شهرتها الواسعة - أشد هذه الماسي اختلاطاً واضطراباً في أخبارها الكثيرة وما دخلها من وضع الرواة وتزيد القصاص وأوهام السمار ، فإن قصة جميل وبثينة لم ينلها هذا الاختلاط ولا تختلف مصادرها كثيراً ، ومن ثم فهي أقرب هذه الماسي للواقع ؛ حيث نجت من عبث الرواة والقصاص والسمار . أقرب أقر

غرض القصيدة :

قصة جميل في الشعر والحب العذري تعد من النوادر في تاريخ الأدب العربي ، فهو من حيث الشعر رجل قوي الأسر محكم الأسلوب ، وقد استعد للشعر كل الاستعداد .

أما من حيث الحب فقد تأهب له جميل بمواهب تجعل قصته فيه على جانب عظيم من الجاذبية ، فقد كان جميل فتى شريف النفس ، شجاع القلب يخافه العدو ويرجوه الصديق .

ولم يكن العشق والحب العذري عنده فنا من اللهو أو العيث ، وإنما كان محنة أصيب بها قلبه الجريء ، وقد طال بلاؤه بمحنة العشق ولم ينقذه غير الموت وهو مغترب وحيد .

ولما كان جميل بعيداً طريد الحب ، فقد عاش على الذكرى والأمل في لقاء المحبوبة وتجدد أيام الصفاء والحب ، وهذه القصيدة إحدى النفاثات التي أخرجها جميل من حنايا نفسه ومن بين ضلوعه ، وسويداء قلبه ليعبر بها عن حبه وإخلاصه واشتياقه لمحبوته بثبينة . وقد قال هذه القصيدة وهو مرتحل إلى مصر .

٢ - تطيل القصيدة :

إذا ما أنعمنا في القصيدة كلها نجد أنها تشتمل على عناصر وأفكار عدة ، أبرزت قصد الشاعر وكشف اللثام عن تجربته التي اضطرت بين جوانحه وعاني منها ما عاني ، فراح يصدق بهذه القصيدة وبتلك الأجزاء الفنية التي تعبر عن شعوره وإحساسه وصدق عاطفته . وأول هذه العناصر :

﴿المريض عن الماضي﴾ (السعير):

الفكرة في الأبيات التالية :

١. ألا ليت أيام الصفاءِ جديداً
ودهراً تولى يا بئس يعود
٢. فنغني كما كنا نكون وأنتم
صديق وإذا ما تبذلين زهيد
٣. وما أنس ملاءمات لا أنس قولها
وقد قربت نصوى أمصر تريد ؟
٤. ولا قولها: لوى العيون التي ترى
أنتيك ؛ فاعزني ، فدتك جدود
٥. خليلي ما أخفي من الوجد ظاهر
ودمعي بما أخفي الغداة شهيداً
٦. ألا قد أرى والله إن رباً عبسة
إذا الدار شطت بيننا ستزيد

التفسير اللغوي :

١. جديد : تجدد الماضي ورجوعه .
دهرا : الفترة من الزمن .
٢. تولى : ذهب وابتعد . وصار : في حكم الماضي .
بئس : بئس الحرف الأخير من الاسم يسمى ترخيماً .
٣. نغني : نسعد بالإقامة .
نكون : نوجد .
٤. ما تبذلين : ما تنيلين من الوصل والوداد .
زهيد : قليل .
٥. ملاءمات : من الأشياء .

٦. **النضو**: الضعيف المهزول من الحيوان يريد ناقته .
 يقول مهما أنس من شيء فلا أنس قولها وقد قربت من ناقتي أتريد مصر .
٧. **الجدود** : جمع جَد .
٨. **بالفتح** : وهو أبو الأب تدعوله بالسلامة وتفتد به بالأهل .
٩. **الوجد** : الحب الشديد . **الغداة** : ما بين الفجر وطلوع الشمس .
شهيد : ظاهر .
١٠. **العبرة** : الدمعة أو الحزن من غير بكاء .
شطت : بعدت . أي سيكثر بكائي إذا افترقنا .
ستزيد : خبر عبرة والجملة خبر أن المخفة .

شرح وتعليق :

يبدأ الشاعر قصيدته بالحديث والتغني بأيام الصفاء الخالية والذكريات الحلوة الجميلة التي قضاها في رحاب محبوبته أو بالقرب منها : فليتها ترجع كما كانت لتزفر عليهما السعادة ، وتهدأ النفس وتقر العين ولو بالقليل من الوصل والوداد . فما زالت كلماتها عالقة بذهنه ساعة الوداع وهو مرتحل إلى مصر لا يستطيع نسيانها وقلبه ، ذلك لأن بثينة كانت تودعه بحرارة وشوق وفي صوت هامس تقول له : أتصرف عن لتبتغي مصر؟ تقولها وهي تخشى التلاقي ويصدها عنه عيون الحساد ونظرات العذال ، ولا تملك لا الاعتذار عن اللقاء ، والدعاء له والتضحية من أجله بالأهل والأحباب .

ويسير الشاعر بعد أن ودع محبوبته ، متقطع القلب يعصف به الشوق، ويمزقه الحب ويتلظى بنار الفراق ، ويدوب من كثرة البكاء والحزن على فراق

محبوبته ، وتبادلته محبوبته الشعور نفسه إذا ما بعدت بينهما الشقة والفراق ، فسيزداد في قلبها الحب ويشدد مع أنها تتأبى عليه ، وتخب آماله ، فلا هي تمكنه من الوصال ، ولا هو يستطيع نسيانها .

تلك ساعة من ساعات الماضي السعيد ، يذكرها ليخفف عن قلبه المتيم المكلوم وطأة الفراق ونار البعد ، واستعادة الذكريات أمرواق لكل إنسان ، لكنه في جانب المحبين أكثر وأشم ، فالحب يعيش على الذكرى إذا ما حال البين بينه وبين من يحب ، كما الحال عند جميل .

وصف ما في نفسه من حب وشوق :

استطاع الشاعر أن يعبر عن هذا الإحساس وذلك الشعور في الأبيات التالية :-

٧. إذا قلت: ما بي يا بثينة قاتلي

من الحب: قالت: ثابت ويزيد

٨. وإن قلت: ردي بعض عقلي أعش به

مع الناس ، قالت : ذاك منك بعيد

٩. فلا أنا مردود بما جئت طالبا

ولا حبهما فيما يبىد يبىد

١٠. جزتك الجوازي يا بثين ملامة

إذا ما خليل بان وهو حميد

١١. وقلت لها : بيني وبينك فاعلمي

من الله ميثاق له وعهود

١٢. وقد كان حبكم طريفا وتالدا

وما الحب إلا طارف وتلبد

١٣. وإن عروض الوصل بيني وبينهما
وإن سهلته بالمني لصعود
١٤. فأفئيت عيشي بانتظاري نوالها
وأبليت ذاك الدهر وهو جديد

التفسير اللغوي :

٧. أي إذا قلت لها إن الحب سيقتلني قالت : إنه باق وسيزيد .
وهذا معنى قوله : ثابت ويزيد .
٨. ردي بعض عقلي : صوابي ورشدي ، والمراد الوصال الذي به يحيا بين الناس .
٩. فلا أنا مردود : أي لم أتل ما طلبت من بعض عقلي ،
يبيد : يفني وينتهي .
١٠. جزتك : عاقبك . الجوازي : جمع جازية وهي المكافئة المنصفة .
والمعنى : أنه إذا جوزي الأحبة بالثناء عليهم وقت الفراق فليس لك في
نفسى إلا العتب واللوم .
- والببت : في الأصل جملة دعائية .
١١. الطريف : الجديد وضده التليد .
١٢. العروض : الطريق في عرض الجبل .
صعود : مرتفع أو الطريق الشاق .
- والمعنى : أن الوصل صعب المنال وإن سهلته بالوعود .
١٣. نوالها : قربها ووصلها .
ابليت الدهر : ذهب العمر بغير وصل .

شرح وتعليق :

بعد أن وقف الشاعر طارقاً أبواب الذكريات والأيام الحلوة الجميلة ، ليخفف وطأة الحب عن قلبه المتيم ، ويسري عن نفسه المملوءة شوقاً وجنيناً يعد ذلك يحدثنا الشاعر (جميل) عما في نفسه من حب وشوق ، ويورد لنا حواراً بينه وبين محبوبته نسجه من خياله السامق ، نيؤنس وحدته وغريته ، ويطفى نار الشوق المتأججة بين جوانحه .

وهو في هذا الحوار الملتهب ، يحاول إظهار ما يدور بين جنباته من حب قاتل يؤرقه ليلاً ونهاراً ، فلا يكاد يحس بطعم الحياة ولا لذة العيش ما دام بعيداً عن محبوبته لا ينال منها وصلاً ولا قريباً .

وترتفع نبرة الشاعر ، فيصف ما أصابه من جراء هذا الحب ، فنراه وقد ذهب عقله بسبب البعد والفرق ، فجاء يطلب الوصل عليه يرجع إلى رشده وصوابه ويعش بين الناس عاقلاً رزيناً سعيداً هادئ النفس ساكن اللب .

لكن هيهات هيهات وقد بعدت الثقة بينه وبين بثينة ، فلم ينل منها ما أراد من وصل وقرب ينعم به ، ولا انشغل قلبه عنها وذهب حبها منه فيستريح ، بل ظل مشغول القلب ، شارد اللب ، ولا يملك إلا أن يلوم محبوبته التي أبت أن تمد إليه يد القرب والوصل ، ويذكرها بأنهما قد أخذتا على نفسيهما العهد والميثاق أمام الله على اللقاء والمودة والمحبة .

ويرجع الشاعر إلى الحقيقة المؤلمة أنه مهما أعطته محبوبته من وعود وأمنيات بالوصل والقرب إلا أن ذلك صعب محال ؛ ذلك لأنه قد حيل بينها وبين محبوبها . ولا تملك من أمر نفسها إلا هذا القلب النابض بالحب ، لذا فقد أفنى الشاعر دهره في انتظار وعدها المزعوم وقضى زهرة عمره في طلب نوالها لكنه عاد بخفي حنين .

بصور الشاعر هذا العنصر قائلاً :

١٥. ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بوادي القرى إنسي إذا لسعيد
١٦. وهل أهبطن أرضاً تظل رياحها
لها بالثنايا القاويات وتيد
١٧. وهل ألقين سعدي من الدهر مرة
ومارثاً من حبل الصفاء جديد
١٨. وقد تلتقي الأهواء من بعد بأسه
وقد تطلب الحاجات وهي بعيد
١٩. وهل أزجرن حرفاً علا شملة
بخرق تباريها سواهم سود
٢٠. على ظهر مرهوب كأن نشوزه
إذا جاز هلاك الطريق رقود
٢١. سببتني بعيني جؤنر وسط ربرب
وصدر كفا ثور اللجين وجيد
٢٢. فمن يعط في الدنيا قرينا كمثلها
فذاك في عيش الحياة رشيد

التفسير اللغوي :

- ١٥ . **ليت شعري** : ليتني أعلم أو أشعر .
وادي القرى : بلادها شمالي المدينة بالحجاز .
- ١٦ . **الثنايا** : جمع ثنية وهي طريق ملتوي في الجبل أو هي الجبل نفسه .
القاويات : جمع قاوية بمعنى الخالية .
وئيد : صوت شديد عاصف .
- ١٧ . **سعدئ** : يكنى بها عن بثينة .
رث : بلى وتقطع .
ما : مبتدأ خبره جديد .
- ١٩ . **أزجر الناقة** : أصبح بها لتسرع .
الحرف : الناقة الضامرة أو المهزولة أو العظيمة .
العلاء : الناقة الطويلة .
والشملة : السريعة .
الخرق : القفر والأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح .
تباريها : تسابقها .
سواهم : جمع ساهمة وهي الناقة الضامرة .
- ٢٠ . **مرهوب** : طريق مخوف .
نشوز : جمع نشز وهو المكان المرتفع .
هالك الطريق : الذين ضلوه .
رقود : نيام وهو خبر كأن .
- ٢١ . **سبتني** : أسرتي وسحتني .
الجؤذر : ولد البقرة الوحشية .
الربرب : القطيع من بقر الوحش .
الفائور : الجفنة وهي الإناء الواسع .
اللجين : الفضة .
الجيد : العنق وهو بالرفع على أنه مبتدأ خبره (لها) محذوف .
- ٢٢ . **القرين** : الصاحب والزوج .
رشيد : موفق .

شرح وتعليق :

استطاع الشاعر (جميل) أن يصور ما في داخله من شوق ومحبة لبثينة وما يعانیه من الهجر والصد وضياع الأمل في اللقاء ، مما جعله يحلم ويتمنى بأسلوب المشتاق المتلهف - المبيت ليلة واحدة في أرض محبوبته ليأس بها ويسعد بالقرب منها - وإن كان لا يراها تلك الأرض (وادي القرى) التي شهدت أول بذور للحب العذري بينهما ، فما أحلاه من مكان خال إلا منهما ، تعزف الرياح فيه أعذب ألحان الهوى العذرى ، فيتم الوصل ويتجدد الحب ، ولم لا وقد يتحقق هذا الحلم وتلتقي الأهواء بعد اليأس ، وهذا يجعله يقطع الفيافي والقفاز من أجل الوصول إلى تحقيق هذا الأمل المنشود، والوصول إلى هذه الجميلة التي سحرته بجمالها أخذته بعيونها الجذابة ، وقوامها المعتدل الرائع ، وكل ما يتمناه أن يسعد الدهر بليلة في هذا الوادي الذي يقطن فيه هذا الجمال الأخاذ ، وتكتمل سعادته ويرتوي ظمأ قلبه بمجرد المبيت دون أن يلتقي بها أو يراها ، فهي في نظره نموذج صالح للمرأة التي جمعت المحاسن كلها في نسبها وخلقها وجمالها ودينها ، ومن يفز بها فقد فاز بالخير كله وعاش في الحياة سعيداً موقفاً .

عروة إلى وصف حبه (العزري) وجهاؤه فيه :

يقول الشاعر مصورا هذا الصب :

٢٣. يموت الهوى مني ما لقيتها

ويحيا إذا فارقتها فيعود

٢٤. يقولون : جاهد يا جميل بغزوة

وأى جهاد غيرهن أريد ؟

٢٥. لكل حديث بينهن بشاشة

وكل قتيل بينهم شهيد

٢٦. ومن كان في حبي بثينة يمتري

فبرقاء ذي ضال على شهيد

٢٧. ألم تعلمي يا أم ذي الودع أنني

أضاحك نكراكم وأنت صلود

التفسير اللغوي :

٢٣. يموت الهوى مني : يضعف الحب . فارقتها : ابتعد عنها.

٢٤. جاهد بغزوة : أخرج للجهاد في سبيل الله كي تنسى حبا.

٢٥. بشاشة : بهجة وسرور.

شعيد : الميت لغاية نبيلة كالمجاهد في سبيل الله تعالى .

٢٦. يمتري : يثك .

البرقاء : أرض غليظة ذات حجارة ورمل وطين أو كل شيء فيه سواد

وبياض وبرقاء ذي ضال إحدى بروج بلاد العرب . يتخذ من

مواقفه فيها شاهدا على حبه الشديد .

٢٧. ذو الودع : طفلها يعلق عليه الودع وقاية ، وهو محار صغير أبيض

صلود : بخيلة .

معروف .

شرح وتعليق :

علم الشاعر أنه لا أمل في لقاء محبوبته والانتناس بها . فراح يصف حاله وما ألم به من وجدٍ وصباية ، واشتعال الحب بين جوانحه . ولا يطفى هذه النار المتأججة إلا لقاء محبوبته ، ثم تعود لتشتعل مرة ثانية بعد فراقها . فهو لا يستطيع نسيان (بثينة) حتى لو خرج للجهاد كما نصحه إخوانه وأهله . حتى ينسى هذا الحب الجارف ويرى أن الجهاد الأكبر في مجاهدة هذا الحب والصبر عليه . أو يموت شهيدا في سبيله .

ثم ينتقل الشاعر إلى بيان صدقه وإخلاصه في حبه (لبثينة) فيخاطب من يشك في هذا الحب وذلك الإخلاص بأن يذهب إلى وادي البرقاء ويسأله عن مواقفه مع بثينة في هذا الوادي . كي يكون دليلاً على حبه وإخلاصه وتفانيه في حب بثينة في بُعدها وقربها ؛ ففي قربها يهدأ القلب وتصفو الروح وفي بعدها وهجرها يعيش الشاعر يخاطب الذكرى الجميلة ويضاحكها . حتى لو بخلت عليه باللقاء . فهو يعيش على الذكرى الجميلة ، والأيام الحلوة الخالية .

تحليل ونقد :

تناولنا في الصفحات السابقة شرح بعض من شعر جميل في الحب العذري، ورأينا كيف تلاءمت المشاعر والخواطر مع موضوع واحد ، وتراسلت المعاني وتابعت الأفكار من أول بيت إلى آخر القصيدة ، لتتلاقى في مجرى واحد يصب في موضوع واحد هو الحب العذري .

وإذا ألقينا نظرة على هذا الحب ، وحقيقته نرى أن الحب له صورتان .

الأولى : حب حسي يفتن فيه الرجل بالمرأة من حيث هي أنتى تحقق له المتعة واللهو وإرضاء الحواس ، وفتنة تدفعا إلى طلب الجنس الآخر في عمومه لأنه يري فيه الوسيلة لتحقيق متعته ولهوه وإرضاء حواسه ، وعلى ذلك فالمرأة في هذه الصورة ليست غاية للحب ولكنها وسيلة إليه ، ولذلك فالمحب بهذا اللون لا يقف حبه عند واحدة بعينها يهب لها قلبه وحبه ومشاعره وإخلاصه ووفاءه ، ولكنه ينتقل من واحدة إلى أخرى كما تنتقل النحلة من زهرة إلى زهرة طلبا للرحيق والعطر الفواح ، لذا لا نراه يقنع بالشرب من كأس واحدة ، وهو لا يطلب الكأس إلا أن تروي ظمأه ، ونيل صده ، وتطفئ نار لوعته . فالمرأة نفسها لا تعنيه إلا بقدر ما ينال منها من متعة .

والثانية : حب روحي طاهر عفيف يصدر عن مشاعر راقية متدفقة وعاطفة نبيلة صادقة وصباغة عنيفة مبرحة ، ويقوم على الإخلاص الشديد ويميل إلى المبالغة غير المقبولة أحيانا في التفاني والضراعة ، ليعبر عن فطرة سليمة ونزعة إنسانية مهذبة .

كما أنه حب يتعلق فيه العاشق بمحبوبة واحدة ، يري فيها مثله الأعلى الذي يحقق له المتعة الروحية ، ورضا النفس ، واستقرار العاطفة ، وهو استقرار يجعل فتنته بواحدة تقف عندها آماله ، وتحقق فيها كل أمانيه ، فالمرأة عنده هي هدفه الذي يطلبه ، والغاية التي يسعى إليها ، والأمل الذي يرتجيه ، والمعبود الذي يقضي عمره في محراب حبه ، ويوقد له الشموع ، ويحرق البخور . مثله مثل الفراشة التي تتهاوت على النور ولا تزال تحوم حوله حتى تحترق بناره ، فالمحبوبة عنده هي الكأس التي يقضي حياته ظامئاً إليها لا يعدوها إلى غيرها ، ولا يتجاوزها

إلى سواها، لأنه لا يطلب الرّي في أي كأس، ولكنه يطلبه في كأس بعينها هي تلك التي تعجبه وترضيه^(١).

والحقيقة التي لا جدال فيها أن العرب قديماً عرفوا هاتين الصورتين من الحب، (العذري والحسي الفاحش) فكل من يقرأ الغزل الجاهلي ويتتبع الحياة الاجتماعية في هذا العصر يستطيع أن يتبين الاتجاهين الأساسيين من اتجاهات الحب.

فإلى جانب امرئ القيس والأعشى وأضرابهما ممن يمثلون الاتجاه الحسي في الحب، عرف المجتمع الجاهلي في باديته ومدنه طائفة من الشعراء يمثلون الاتجاه العذري العفيف، وأطلق عليهم لقب (المتيمين) تمييزاً لهم عن سائر الشعراء وربطوا بين كل ميتم وصاحبه كما كان الحال عند العذريين في العصر الأموي: فالمرقش الأكبر وأسماء والمرقش الأصغر وفاطمة وعبد الله بن العجلان وهند وقيس بن الحدادية، ونعم وعبد الله بن علقمة وحبيشة ومالك بن الصمصامة وجنوب، وعمرو بن كعب وعقيلة، وعترة وعبلة.

وهذا يعطينا إشارة إلى أن الحب العذري لم يأتي من فراغ، أولم يكن نتاجاً أمورياً خالصاً وإنما كانت له جذوره الممتدة في العصر الجاهلي، لكنه لم يتحدد معاله، ولم تكتمل صورته وعناصره الفنية والخلقية، ولم يظهر في قصائد مستقلة تحققت فيها الوحدة الموضوعية، إلا في العصر الأموي، بعد أن استقام الأمر لبني أمية واستقرت لهم بولتهم الجديدة ومع هذا الاستقرار تميزت صورة الحب العفيف لسّمات معينة واتخذت لها طابعاً خاصاً اكتسبت اسماً جديداً عرف باسم "الحب العذري" نسبة إلى قبيلة بني عذرة، وفي أرجاء البادية العربية

١- انظر: الحب المثالي عند العرب، د/ يوسف خليف.

ظهر عشاق عدوا النماذج الصحيحة لهذا الحب والمثل العليا له بكل سماته المميزة، وطوابعه الخاصة، فأطلق عليهم أسم العذريين نسبة إلى هذا اللون من الحب.

كما أن الإسلام كان سببا في أن يصيح هذا اللون من الحب اللون الأول في لوحة الحياة البدوية الإسلامية. فالإسلام هو الذي حال بين عرب النادية وبين ألوان الحب الأخرى الحسية، فلم يجدوا لعواطفهم متنفسا إلا في هذا الحب العفيف الذي لا يحرمه الإسلام ولا ينكره.

والقصيدة التي بين أيدينا لشاعر من أكبر الشعراء العذريين الذين أبدعوا في هذا المضمار، وعبروا تعبيراً صادقا للفترة الإنسانية الصافية، استجابة فعلية لتناقضات مذهبية، وتوازنا روحيا وإسلاميا وخلقيا بين الصراعات السياسية والمبالغة والإسراف المادي والترفيهي واللاهي العابث، فكان الحب العفيف وأصحابه الوجه الآخر للصراع السياسي الدائرين شعراء الأحزاب السياسية من شيعة وخوارج وزبيريين والحزب الأموي الحاكم، فترفع بعض الشعراء عن الخوض في هذه التيارات السياسية ليتغنوا بالحب الطاهر العفيف، مجردا عن الأهواء والشهوات والمذات والإسراف المادي؛ للتعبير عن الخلق السامي، والروحانية الصافية المهدية^(١).

١- انظر الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق ج ٢ / ٥٤، ٥٤ / على صبح.

القيم الموضوعية والحللية :

أولاً : من حيث الموضوع :

أشرنا فيما سبق إلى أن موضوع القصيدة هو الحب العذري الذي شاع في العصر الأموي واشتهر به كثير من الشعراء أمثال جميل ، الذي استطاع أن يخاطب قلوب المحبين بأشعار مطبوعة بأريج من الحب الصادق النبيل ، ولهيب من العواطف الجياشة والأحاسيس المتأججة التي تذوب لها حشاشات القلوب ، كما جاء مطبوعاً بجملة من القيم العذرية التي تتسم بالعفة والطهارة وتتعالى فيها صيحات الروح وحسن الخصال على نداء الغريزة ومطالب الجسد ، وما ذلك كله إلا من ينابيع الفروسية النبيلة التي كانت تتحلى بها القبائل العربية قديماً وبخاصة قبيلة (عذرة) التي نسب إليها هذا الحب.

والقصيدة التي بين أيدينا تعد مرآة صافية لحياة الشاعر، ودليلاً فنياً على صدق فنه ورقته لما تجسدت فيها من ملامح الحب العفيف الطاهر وتوارت فيها القيم الإسلامية الراقية ، وذخرت بها من قيم عصره وزمانه ، فكانت بذلك نموذجاً راقياً تتجلي فيه عذرية الشاعر ومقومات فنه فما مظاهر ذلك كله ؟

١- الملامح العذرية :

استطلعنا فيما سبق أن نضع أيدينا على مفهوم الحب العذري . ولكي يكون الحب أو الغزل بهذه الصفة لا بد لها من ملامح تظهر في عمل الشاعر وتجربته التي يعانيتها ويصوغها شعراً ، وتجسد القيم النبيلة في الغزل مثل العفة ووحدانية المحبوبة، والحرمان من وصلها ، والإخلاص لها والوفاء بعهدتها ، والأمل في وصلها ولقائها ، وكلها سمات عذرية اكتنفت علاقة المحبة المتبادلة بين جميل وبثينة .

وبخاصة إذا عرفنا أنه شاعر عربي أصيل تربي على أخلاق الفروسية العربية الأصيلة وتحلى بأخلاق الفوارس النبلاء من الشجاعة والكرم والمروءة والاعتداد بالنفس والذود عن المرأة وحمياتها ، وكلها صفات خلقية اكتسبها شاعرنا (جميل) من منابعها الأصيلة من البيئة العربية .

ومن ثم وجدت عاطفة المحبة والغزل العذري مناخاً طيباً وتربة خصبة لنموه وازدهاره وتعدد ملامحه وصوره في القصيدة .
فمن أقواله التي تتجسد فيها الملامح العذرية وتبرهن على حبه الذي يكتمه بين جوانحه .

خليلي ما أخفي من الوجد ظاهر

ودمعي بما أخفي الغداة شهيد

وقسمه على صدق حبه في القرب منها أو البعد عنها وازدياد عبرته وحرزه إذا فارقتها :

ألا قد أرى والله أن رب عبرة

إذا الدار شطت بيننا ستزيد

وقوله يبرهن به على تأله وشدة وجده وصابته ، وتأجج الحب بين جوانحه :

إذا قلت : ما بي يا بثينة قاتلي

من الحب قالت : ثابت ويزيد

ومن الملامح العذرية أيضاً قوله يبرهن به على شدة حرمانه ولوعته لفراقها وصعوبة وصلها :

وإن عروض الوصل بيني وبينها

وإن سهلته بالمني لصعود

وقوله يبرهن به على أمله الدائم في لقائها ومعاودة وصلها من جديد والتنعم بالصفاء والهناءة كما كان في سالف عهده ، ويبرهن به كذلك على إخلاصه في حبه لها وعدم العدول عنه إلى غيرها .

ألا ليت أيام الصفاء جديد

ودهراً تولى يا بئين يعود

فأفانيت عيشي بانتظاري نوالها

وأبليت ذاك الدهر وهو جديد

وهل ألقيت سعدي من الدهر مرة

ومارث من حبل الصفاء جديد

وقد تلتقي الأهواء من بعد بأسه

وقد تطلب الحاجات وهي بعيد

ومن الملامح العذرية في القصيدة قوله يبرهن به على صدق حبه ومجاهدة

نفسه فيه ورده على المشككين في هذا الحب وذاك الطهر:

يموت الهوى مني إذا ما لقيتها

ويحيا إذا فارقتها فيعود

يقولون جاهد يا جميل بغزوة

وأني جهاد غيرهن أريد

ومن كان في حبي بثينة يمتري

فبرقاء ذي ضال على شهيد

ومن أقواله الشاهدة على عذريته والاعتداد بحبوبيته وتمجيدها وإثبات

أنها خير قرين :

فمن يعط في الدنيا قرينا كمثلها

فذلك في عيش الحياة رشيد

وهكذا توافرت في القصيدة ملامح عذرية الشاعر وعفته وطهارته التي تشهد على إخلاصه في حبه وتفانيه وتهالكه في صبابته ، وهذا لا يتنافى مع شهامة العربي ورجولته وفروسيته ، فكما كان يعتد برجولته وقوته وشجاعته في ميدان الحرب والقتال ، كان يعتد كذلك بخضوعه واستسلامه لسلطان المحبة والهوى والغرام ، وقد استحسنت النقاد هذا الأمر وبخاصة في ميدان الغزل العذري ومن ذلك قول ابن قدامة مشيراً إلى ذلك : " يجب أن يكون النسيب الذي يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهاك في الصباية، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابي والرقة أكثر مما يكون من الخشن والجلادة ، ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزة ، وأن يكون جماع الأمر فيه من الإباء والعزة ، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة، ووافق الانحلال والرخاوة، فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض " (١) .

كما ينبغي الإشارة إلى أمر هام وهو ورود بعض الأوصاف الحسية لبثينة في القصيدة وهذا لا يتنافى مع عفة الشاعر وطهارته وعذريته في حبه، لكنها صورة تتفق مع إجلالها وقدسيتها ومنزلتها في قلبه ، كما أنها دليل على تعلقه بها . فهو قد تعلق بجمال روحها وحواسها .

١- نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ١٣٤

ومن ذلك قوله :

سبتني بعيني حوَّز وسط ربرب

وصدر كفاثور اللجين وجيد

فهذه أوصاف حسية ، ولكن الشاعر لا يقصدها لذاتها ، وإنما لما تركته في نفسه من أثر طيب جعله يتعلق بها جسماً وروحاً ، دون أن يعرضها في صورة من الفحش والابتذال ، ومن ثم يتأني لنا وصف رائع لجمال محبوبته - كما يراها في عينيه - في صورة تجمع بين جمال الروح والجسد .

وهذا ليس معناه أن يتمادى الشاعر العذري في وصف محبوبته وصفاً حسياً مبتذلاً ، وإلا لا يتسم بالعذرية والعفاف .

٢- القيم الطقية والحينية :

كان للإسلام وتعاليمه السمحة الراقية الأثر الكبير في تأصيل الحب العفيف وانتشاره ، ذلك لأن الإسلام دعا إلى ترسيخ القيم السامية ، والتحلي بالأخلاق الفاضلة ، ولما كان الحب العذري أساسه التعاطف الروحي والوجداني ، فقد أقره الإسلام ، وازداد الشعراء تمسكاً بتعاليم الإسلام ، ووجهوا عواطفهم وأحاسيسهم نحو مظلة الإسلام وتعاليمه السمحة ، كما جاءت أشعارهم في هذا الاتجاه مشتملة على كثير من القيم الخلقية والدينية ، حتى صار هذا منهجاً في النسب والغزل ، سار عليه شعراء الحب والنسب في الشعر العربي والإسلامي في كل العصور الأدبية ، حتى يرى بعض النقاد أن الحب الإلهي انطلق من هذا الفن ،

وأصبحت صورته وأعلامه ومعالمه رموزاً ومصطلحات وصوراً في الأدب الصوفي يعد ذلك عند سلطان العاشقين ان الفارض وغيره^(١).

وقد اشتملت القصيدة على كثير من القيم الخلقية والدينية منها :

التعاطف الروحي المجرد من الشهوات والمذات ، ذلك لأنه لا يبغى من ورائه المتعة الحسية والجسدية الغانية بغناء وقتها ، بل يرمي المحب إلى الصفاء الروحي والتعاطف الوجداني ، الذي يملأ النفس اطمئناناً ، ويشع جواً مليئاً بالطهر والعفاف وقد تجسد هذا المبدأ السامي وتلك القيمة الروحية العالية ، في قول الشاعر جميل :

ألا لبيت أيام الصفاء جديد

ودهراً تولى يا بشين يعود

فهو هنا لا يطلب إلا ذلك الصفاء الروحي المجرد من الشهوات والمذات الفانية ، وهذا مبدأ سام يرفع من علاقة الرجل بالمرأة ، كي لا تكون قائمة على النفع المادي الفاني .

التعلق بالذكريات الجميلة ، وأحاديث النجوى الطاهرة ، ذلك أنها خلق

إسلامي يدل على الوفاء وعدم الجحود والعرفان بالجميل ومن ذلك قوله :

وما أنس مألُشياء لا أنس قولها

وقد قربت نصوي أمصر تريد ؟

ولا قولها : لولا العيون التي تـري

أتيتك فاعزرنى فدتك جـود

١- انظر الأدب الإسلامي ج ٢ / ٥٥٥ / علي صبح .

كما نلاحظ في البيت الثاني خلقاً سامياً هو خلق الحياء الذي هو شعبة من شعب الإيمان بالله عز وجل ، والحياء والإيمان مقترنان إذا ارتفع أحدهما ارتفع الآخر ، ومن لم يستح من الناس لا يستحي من الله عز وجل .

الدموع والعبرات دليل على رقة القلب ، وهي رحمة ينفس بها الإنسان عن نفسه ويذهب بها بعضاً من نار الوجد ، ويتصبر بها على بلائه ، ولنا في رسول الله الأسوة الحسنة والقذوة الطيبة ، حيث بكى النبي ﷺ ولده إبراهيم ، فتعجب بعض الصحابة من بكائه فرد عليهم ﷺ قائلاً : " إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزن ، وإنا لفرارق يا إبراهيم لمحزونون وإنها رحمة ولا نقول إلا ما يرضي ربنا " .

وقد تجسد هذا الخلق الرفيع وتلك القيمة الروحية في قول (جميل) معبراً عن تأله لفراق محبوبته وإنهماار الدموع من عينيه :

خليلي ما أخفي من الوجد ظاهر

ودمعي بما أخفي الغداة شهيد

ألا قد أرى والله أن رباً عبرة

إذا الدار شطت بيننا ستزيد

من القيم الخلقية النبيلة التي اشتملت عليها القصيدة ، المشاركة الوجدانية في المشاعر والأحاسيس الإنسانية الفياضة بالحب ، وهذه قيمة إسلامية فإذا بادرك إنسان بمشاعر الحب والود لزم أن تبادلها هذا الشعور وتصرح له بذلك ، وبخاصة إذا كان حبا مبرئاً من الغرض الزائل ، والمجرد عن الشهوة الفانية ، وفي الحديث النبوي الشريف :

" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ورجلان تحابا في الله

اجتمعا عليه وتفرقا عليه "

ومن ثم كان تبادل المشاعر الوجدانية من القيم الإسلامية التي حث عليها الإسلام ورغب فيها ، ونفر من التقاطع والتدابير والحقد والحسد والبغض ، وتمثل هذا المبدأ السامي في قول جميل :

إذا قلتُ : ما بي يا بثينة قاتلي

من الحب قالت : ثابت ويزيد

وإن قلتُ: ردي بعض عقلي أعش به

مع الناس ، قالت : ذاك منك بعيد

فلا أنا مردود بما جئت طالبا

ولا حبهما فيما يبئد يبئد

من القيم التي اشتملت عليها الأبيات الوفاء بالعهد ، ورعاية المواثيق ، ونحن نعلم أن هذا الأمر من مبادئ الإسلام السامية التي حث عليها القرآن الكريم، والسنة النبوية ، يقول الله عز وجل أمراً بالوفاء بالعهد :

﴿ ... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ (١)

وقول الله تعالى :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ... ﴾ (٢)

ويقول سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣)

١- سور الإسراء : من الآية ٣٤ .

٢- سور المائدة : من الآية ١

٣- سور النحل الآية ٩١

ويقول عز وجل :

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿١٠٦﴾ (١)

ويقول الرسول ﷺ :

" آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان "

ومن هذا المنطلق ومن تلك القواعد الثابتة انطلق جميل وراح يذكر بثينة بذلك العهد المبرم بينه وبينها والله شهيد عليه ، ليكون أدعى للوفاء به وعدم نقضه. يقول جميل :

وقلت لها : بيني وبينك فاعلمي

من الله ميثاق له وعهود

وقد كان حبكم طريفا وتلدا

وما الحب إلا طارف وتالد

وهكذا اشتملت القصيدة على مجموعة من القيم الخلقية والدينية ، التي تنم عن ثقافة الشاعر الدينية التي تربي عليها ، فهذبت من سلوكه ورققت حواشيه وجوانحه ، وكانت تمثل سياجاً يحميه من الانفلات نحو الغزل المكشوف المبتدل .

ثانياً : من حيث الشكل :

الشعر له رسالته الفنية الخطيرة في تجارب الحياة والمجتمع ، بل فاعليته المؤثرة في البناء والهدم ، والسمو والانحطاط ، وذلك من خلال الأثر الفني والشعوري الذي يكون مادة أساسية في التأثير على المتلقي ، والتعامل المباشر مع مشاعره وأحاسيسه ، وبالتالي تطويعها ، وتشكيل مزاجها سلبياً أو إيجابياً ، ولم يكن

١- سور الرعد : الآية ٢٠: ٢١ .

للشعر - عامة - من فضل في هذا التأثير إلا عبر عناصر فنية يتشكل منها الأسلوب، تغدو مقوما أصيلا في تشكيل قالب الفني للأداء والتعبير، ومقوما فنيا أصيلا - كذلك - في تحقيق القوة التأثيرية للتجربة فيما تحمل من مضامين وفيما تعالج من موضوعات .

وتتعدد هذه العناصر الفنية التي يتشكل فيها القالب الأسلوبي من لغة وعاطفة وخيال وموسيقى ، تغدو كلها لبنات أساسية في تجسيد الأفكار ، والألوان الشعورية ، وما تكنه النفس من مكبوتات ودفائن .

وحيثُذ تكون شاهدة عيان على شاعرية الشاعر؛ إذا نحتاج هذه المواد - في تحقيق أثرها الفني في التنسيق بينها ، واستغلال إحياءاتها للتمكين من إنشاء قالب أسلوبي فني ، يتضمن السمات الفنية الحية والرصانة والقوة والمتانة .

ولم يكن ثمة شيء قد مكن الشعراء من توظيف أحاسيسهم ومشاعرهم في نقل الجوانب الإنسانية وغيرها سوى مهارتهم في التعبير الفني المحكم بهذه العناصر الفنية للأسلوب .

والقصيدة التي بين أيدينا اشتملت على كثير من القيم الفنية ، ونحن بصد تنفيذها .

١- الصورة والأظية :

والصورة من الأمور التي يركز عليها الشعر، فهي المعرض الذي يعرض فيه الشاعر أفكاره وخواطره ، كما أنها تتلون بعاطفته وانفعالاته ، وتتكون من الكلمات والعبارات في نسق يخطط له الأديب في اختيار نقطة البداية ولحظة

النهاية . وفي اختيار اللغة المناسبة والوزن القادر على الإيحاء بالعاطفة الموفقة التي يدل تكرار الصوت فيها أو تنوعه على حالة نفسية مقصودة^(١) .

إذن فالصورة عبارة عن أجزاء نحتاج إلى مصور بارع ليجمع شتاتها، وينسق ألوانها حتى تكون معبرة وموحية عن خواطره وأفكاره وتجربته . ولا يأتي هذا إلا من خلال تناول الموضوع والسير فيه عن طريق الكلمات والعبارات . التي هي من أهم مكونات الصورة لما تؤديه من دور بارز في الإيحاء عن نفسية الشاعر، لكنه المسنول عن تنسيقها وتنظيمها ، وضبط إيقاعاتها مع الجو الشعوري الذي يريد أن يرسمه ، وألا يقف بها عند الدلالة المعنوية الذهنية .

ولهذا لا ينبغي للشاعر أن يقف على المدلول القاموسي للفظه وحسب بل يخرجها منه إلى معنى أرحب وأوسع وأجمل ، ووضعه في مكانه المناسب من العبارة لتكون اللفظة رهينة الأصوات الموسيقية التي تتألف في تركيبها ولتعطي صورة واضحة متناسقة الألوان والظلال ولكي تكون الصورة باهرة رائعة ، ينبغي أن يصاحبها شيء من الخيال ليجمع بين أجزائها وينظمها ، ويوفق بين ما يكون فيها من متناقضات عن طريق رؤية الوحدة الباطنة الخفية وراء هذه المتناقضات ، فإذا التفرق في الطبيعة يصبح متكاملًا موحدًا لتكون ذات تأثير إذ إن قوتها تتمثل في الإيحاء بالأفكار عن طريق الصور المدعمة بشيء من الخيال بعيداً عن الأفكار المجردة أو المبالغه .

وعلى هذا الأساس فالصورة عبارة عن قالب له أجزاء يصب فيه الشاعر أفكاره وخواطره ويلونها بالألوان المناسبة ، وينظم أبعادها ، وسيلته في ذلك الألفاظ والعبارات وشيء من الخيال ، أو هي أداة الشاعر الفنية يعبر عن تجربته ،

١ - انظر مقدمة في النقد الأدبي . محمد حسن عيد الله ص ٢٤٠ .

ويرسم مشاهد من حياته وواقعه ، قوامه الكلمات وما يحدثه بينها من علاقات يتكرر بها دلالات جديدة غير مباشرة يبني بها عالماً متميزاً جديداً يجمع فيها بين عناصر متباعدة . في إطار من الانسجام والوحدة ويصور المعنى تصويراً جمالياً ، ويخاطب الشاعر.. ويدع للخيال حرية التخيل حول الصورة المشكلة .

والصورة الرائعة هي التي يصل الشاعر من خلالها إلى قلوب الآخرين ، ويؤثر فيهم ، والتجربة الشعورية للحب العذري من أقوى التجارب الأدبية ، وأبلغها غاية في الصدق الفني الذي يقوم على التلائم بين المعاناة في مشاعر الحب الهادر ، ووجدانه القوي ، وبين عناصرها من العاطفة والمشاعر الروحية والخواطر وأدواتها في التصوير من الألفاظ والأساليب والصور المستمدة من الحقيقة والخيال ووافد الموسيقى المختلفة ، لذا فقد رأينا الشاعر (جميل) يبرهن على رقة مشاعره ومعاناته في الحب ، بدخوله في الغرض الأصيل للقصيد وهو الحب العذري دون أن يقدم لها كما اعتاد معاصروه من الشعراء ، وقد عمد جميل إلى هذا النهج الفني نتيجة لاحتشاد مشاعره وشاعريته بوابل من زفرات الوجد المكبوتة بلهيب الشوق إلى محبوبته ، ومن ثم فهوليس في حاجة إلى مقدمة طويلة يتوسل بها إلى ذكر صاحبته ، وإلهاب مشاعره وحشد شاعريته نحوها كما أعتاد كثير من الشعراء قبله بل هو في حاجة ملحة إلى التنفيس عن عواطفه وجراحه المكبوتة ، عليه يجد من خلاله متنفساً يريح به قلبه ، ومن ثم قصد إلى ذكرها والحديث عنها في عجلة مباشرة .

ومن هذا المنطلق فإن هذا النهج الفني سرعة الولوج إلى موضوع القصيدة ومباشرة الحديث فيه يكاد يمثل عاملاً وخاصة مشتركة عند شعر الحب العذري .

ولعل أبرز دليل على صحة هذا الرأي تلك البداية الرائعة التي بدأ بها جميل هذه القصيدة حيث يقول :

ألا ليت أيام الصفاء جديد

ودهراً تولى يا بئس يععود

إن قصد إلى مخاطبة صاحبه في تلقائية ولهفة وتطلع إلى أيام الصفاء والنقاء والظهر والعفاف وتزداد تلقائية الشاعر وبراعته في استهلاله لغرضه دون واسطة أو مقدمة ، من مخاطبته لمحبوته بقوله (يا بئس) ، فقد حدد حاجته وسؤاله ورجاءه ، وهذه صورة تبعث على الإعجاب بشاعرية جميل ، وحسن استهلاله لهذه القصيدة وتمكنه من أدوات فنه .

ومن الصور التي أسهمت في إظهار المعنى ، والتعبير عن مكنون الشاعر ، والإفصاح عن مراده . قوله في البيت الثالث :

وما أنس من الأشياء لا أنس قولها

وقد قربت نضوي أمصر تريد

فهو يوحي بأن بئس قد أخذت منه كل شيء وسلبت عقله ولبه حتى عاد لم يتذكر شيئاً إلا شيئاً واحداً هو قولها " أمصر تريد " وفي هذا إيحاء باستمرار الحب بينهما ، لكنها تستفهم وتستنكر الفراق والاعتراب الذي يوجب الحب ويزيد حرارة الشوق والحرمان .

كما أن في البيت صورة أخرى قوله " قربت نضوي " حيث يصور ذلك الحياء الذي يملأ قلب بئس ونفسها وهو من سمات الحب العذري القائم على الطهر والعفاف ، فهي لا تصرخ بما يدور في نفسها من خوف ولهفة على فراق محبوبها ، لكنها اقتربت منه كي تهمس في أذنه ، فالصورتان نابعتان من

الحقيقة، فهي - في نظره - لا تسأل بالإستفهام عن سفره إلى مصر، فهو أمر مقرر وحقيقة واقعة، وإنما تصور لوعة الفراق وآلام الغربة ومرارة الابتعاد.

وشمة صورة في البيت الرابع، تبرز كذلك - حياء محبوبته وعفتها وخوفها من الوشاة والحساد لذلك فهي لا تستطيع توديع محبوبها، وحتى لا يظن بها محبوبها التقصير، بل هي في حالة من الخوف والحياء معاً خوف من عيون الحساد والوشاة، وحياء من أن يراها أحد لذا فإنها تقسم له بأنها غير مقصرة وأنها تفديه بنفسها وروحها، بل بأبائها وأجدادها، دليلاً على إخلاصها ومحبتها.

وأما قوله: " فيما يبديد يبديد " فهو صرخة الشاعر الذي لا يملك الفرار من لوعته العاتية لأن المقادير نزهتها عن الفناء، كما نلمح هذا التجانس في الإيقاع من حيث اللفظ والتناسق في التقابل بين المعنيين وهو إيقاع موسيقي أيضاً، فالعنى الأول يغيّر الثاني رغم هذا التجانس اللفظي، وهذا يعطي نغماً موسيقياً يدل على موهبة الشاعر في التصوير، وإبراز معالم الحب العذري وسمات الغزل العفيف.

وفي الأبيات الخامسة عشر وحتى الثامن عشر، صور أدبية متراكبة ومتنوعة فالاستفهام في " ألا ليت شعري " يعطي صوراً متلاحقة مثل صور العرض، للأسلوب الإنشائي وبين الوصل والمنع إلى حد " التندر " أو اليأس القاتل.

وكذلك الاستفهام في قوله: " وهل أهبطن أرضاً " يصور الرجاء والتحسر والدعاء والصراع العنيف والخوف من عوائق الطبيعة كالسهول والوديان والجبال، والعواصف والرياح والأنواء والأمطار، فمظاهر الطبيعة تشاركه الثورة والصراع

والعنف وهي من سمات المشاركة الوجدانية بين الشاعر وبين الطبيعة ومظاهر الحياة والكون .

والاستفهام الثالث : " وهل ألقين سعدي " بصور النفسي والإنكار والخوف من الوشاة ثم الرمز بـ " سعدي " عن بثينة حفاظا عليها أو حماية لها من أهلها ، أو مراعاة للتقاليد والعادات عند العرب ، أو سيرا على نهج الشعراء وفي التكنية عن أسم محبوبتهم الحقيقي بسعدي أو بليلي وغيرها من الصور التي تتراحم حول هذا الرمز الغزلي .

ثم تنتهي القصيدة إلى قمة التصوير الأدبي للمبالغة في قمة الحب العذري الطاهر، لتكون كالحكم القضائي والنتيجة الحتمية لهذه التجربة الشعرية في الحب العفيف الصادق ، وذلك في تصوير مكابدة الحب، والعاناة فيه، والجهاد في الحفاظ عليه، وتقويته ومقاومة الصراعات والتيارات من حوله، حتى يتحقق له إحدى الحسنين ؛ إما الزواج والتمتع بالحديث العذب وإما أن ينال الشهادة في سبيل الحب العفيف . يقول جميل بثية :

يقولون : جاهد يا جميل بغزوة

وأى جهاد غيرهن أريد

لكل حديث بينهن بشاشة

وكل قتيل بينهن شهيد

٢- الألفاظ والتراكيب :

الألفاظ والكلمات تلعب دورا بارزا في الشعر إذ إنها تساعد على بعث صور إيحائية ، وفي هذه الصور يعيد الشاعر إلى الكلمات قوة معانيها التصويرية الفطرية في اللغة .

ومن ثم عندما يتخذ الشاعر لنفسه كما ضخما من الكلمات التي يخدم أو يعرض بها موضوعا ما يجب أن تكون هذه الكلمات ملائمة ودالة على المعنى الذي يسوقه . إذ يساعدنا هذا على معرفة الشاعر ونفسيته ، وذلك من خلال نوعية الكلمات التي يكثر دورانها في شعره . إذ إن ما يعبر الكاتب عنه حقا هو طبعه وشخصيته العميقة وما يفضل وما ينفرد منه ، ومظهره ، ونمط حياته ونفوذه واتزانه وحبوبته وفتوره ، وهذا ما يعبر عنه إن كان يقدم بياناً حقيقياً باهتماماته الخاصة .

ويتجاور مع هذا العنصر عنصر آخر له أهميته ، وهو العاطفة ، ومن خلالها يندفع إلى الشاعر الكشف عما يعتمل في نفوسنا ، أو خبايا الكون استجابة لهذه العاطفة وفي لغة هي صور ، ولذا فإن اختيار الشاعر لكلمات معينة يرجع لأسباب نفسية ، أو لاتجاه شعري ، إذ أن لغة الإنسان جزء من تركيبته النفسية ، وإن انتقاءه للكلمات والمفردات يعتمد على طبيعة ما يريد الإفصاح عنه من داخل تكوينه الذاتي ، ومما ترسب في أعماقه .

ومن هذا المنطلق فقد اتسمت القصيدة بالسهولة والوضوح في ألفاظها ومعانيها في إحياء تام وجلاء بين ، وهي سمة فنية تكشف عن قدرة الشاعر وتمكنه من أدوات فنّه ، وتنم عن ثقافته الفنية وديارته بألفاظ اللغة ومعانيها ، لذا نراه يعمد إلى المعاني المركبة فتسلس له وتذوب رقة وسهولة فإذا هي مجلوة واضحة يدركها المتلقي دون عناء أو تعب ، ويرجع ذلك - كما أشرنا من قبل - إلى قوة العاطفة ونوعيتها ، والشاعر هنا شديد الشغف بحبوبيته فهمي تفكيره وحواسه ومشاعره وحبّه الذي ينصرف إليه بفكره وفنّه . ويسخرهما لخدمة هذا الغرض وتلك العاطفة الجياشة ؛ لذا نراه لا يجهد نفسه وراء المعاني البعيدة أو الخيال

الجامع ، ولا يتكلف الألفاظ العربية المتقعرة ، وإنما ينساق بشاعريته وعاطفته
وفيض حبه إلى المعاني الرقيقة والتراكيب السهلة التي توحى بمكنون نفسه وتنم
عن مراده وتفصح عن تجربته دون عذاء أو مشقة.

ومن ثم فالناظر إلى المعجم اللفظي للشاعر في هذه القصيدة ، يرى كما هائلاً
وسيلاً منهمراً من كلمات الحب ، والوصال التي تدل عما في نفسه من حب وعشق
وهيام مثل : الوجد والدمع ، عبيرة ، الحب ، حبكم ، الوصل - نوال - سعيد -
سعدي - الصفاء أهواء إلى غير ذلك من الكلمات التي توحى وتعطي دلالة على
حبه وصدقه فيه .

كما أن هناك كما من الألفاظ التي توحى بمعاناته وتآله من البعد والفرق
وقلة الوصال ، ومن ذلك : ألا ليت ، تولى ، يعود ، فنغني كما كنا نكون - وما
أنسى ، لا أنسى قولها ولا قولها : لولا العيون . فاعذرني - فدتك جدود - خليلي ما
أخفى - قاتلي - ردي بعض عقلي - بعيد ، فلا أنا مردود ، صعود ، أفنيت
عيشي - أبليت ذاك الدهر - هل أبيت ليلة - هل أهبطن أرضاً - هل ألقين - هل
تلتقي إلى غير ذلك من الألفاظ والتراكيب التي تدل على معاناته وتأجج صبابته
وحرمانه ، وانتظار الوصال لم يحظ به .

وهكذا أستطاع الشاعر أن يبرز ملامح تجربته وحبه نحو محبوبته ، وكذلك
معاناته وعفته وطهره في هذا الحب .

كما ينبغي الإشارة إلى أن القصيدة اشتملت على بعض الألفاظ التي تتم
عن ثقافته الإسلامية ، مثل : صديق ، الله ، حميد ، ميثاق ، عهد ، والبيت
الثالث عشر كله حيث يعلم أن بثينة ليست زوجته وإنما هي في عصمة رجل آخر

وهذا خلق إسلامي . ومن الألفاظ الدالة عن ثقافته الإسلامية أيضاً : قرين - رشيد - يموت - يحيا - جاهد غزوه - جهاد وحديث - قتيل - شهيد .

ولم ينس الشاعر أن يمتاح من الطبيعة ما يعبر به عن جزء من تجربته مثل أرض .. رياح جؤذر ، الثنايا .

وهكذا استطاع الشاعر أن يعبر عن تجربته في الحب العذري من خلال القيم الموضوعية والفنية التي وظفها في هذه القصيدة لتكون الركيزة التي يركز عليها في إخراج هذه التجربة من أعماق قلبه ووجدانه .

الخطابة في العصر الأموي

اما الخطابة في العصر الأموي فقد تهيأ لها من أسباب النهضة والنمو والسعة والازدهار من البيئة السياسية والاجتماعية ما زاد في أفقها ونوع في أغراضها ، وأنضح أسلوبها .

فقد أتيح لها حرية القول ، وهي الدعامة القوية ، والرغد العظيم الذي يمدها بالري والحياة .

ومتى أستطاع الخطيب أن يعبر عما يحول بنفسه ، وبحوك في صدره ، ويدلي بماله من رأي في السياسة ، ويدعو لما يدين به من مذهب ، لا تهدده سطوة ، ولا تتوعده قوة ، يدعم بالدليل ما يعتقده ، ويفند بالحجة ما لم يؤمن به ، فهو صاحب الخطب الموصولة والبيان الجهير .

وإذا كان الإسلام قد كفل للناس الحرية فيما يقولون ، ولم يحجر عليهم فيما يدينون به بعد أن تبين الرشد من الغي فإن (معاوية بن أبي سفيان) حين قال : (إن لم تكن إلا حكمة يشتفي بها مشرف جعلتها تحت قدمي ودبر أذني إننا لا نحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا) ، قد مد في حبل هذه الحرية ، وأراح صدور الناس بما وفره لهم من الأمن على أنفسهم حين تنطلق ألسنتهم بكل ما يذهبون إليه من رأي أو مذهب .

وقد كان (معاوية) من الحجي والحكمة وسداد الرأي بمكان حين سن هذه الحرية للناس راضياً بها ، أو مضطراً إليها ؛ لما يعرف في نفوس العرب من قوة الشكيمة .

وقد كانت الحرية التي دعا (معاوية) إليها دافعاً قوياً لقيام الأحزاب السياسية وأول الطريق إليها

وكم كان للأحزاب السياسية من يد على الخطابة بالصيال والجدال ،
والمنافسة . بل إنها كانت نعمة على (معاوية) نفسه ، ففي تفرق الكلمة ،
واختلاف الجماعة ، سبيل لقوته واستقرار لحكمه .

ولا يغيب عنا أن مناهضة بني أمية للأحزاب ، وأخذهم بالقسر لم يكن إلا
بعد أن قويت شوكة الأحزاب ، وباتت تهدد الدولة ، أما قبل استفحال امر
الفراق فإن (معاوية) وخلفاءه لم يضيقوا على الألسنة ، ولم ينهتوا من حدة
الرأي .

ولقد أثر أن أعرابياً شهد أمام (معاوية) بشيء كرهه فقال له (معاوية)
كذبت يا أعرابي ، فقال الأعرابي : الكاذب والله متزمل في ثيابه ، فقال (معاوية)
وتبسم : هذا جزء من عجل ^(١) .

والمعارضات في ذلك كثيرة مع الحجاج والمغيرة بن شعبة وعبد الملك ابن
مروان وغيرهم . وبعد ذلك كله امتداد لما حدث في العصر الإسلامي .

قوة الملكة :

اتصف العربي في عصر بني أمية بقوة الملكة ، أو قل إن شئت نمت قوة الملكة
وازدهرت ، وسلامة السليقة ، واكتمال الموهبة كل ذلك أمدتهم بالقدره على مواقف
الخطابة وارتياح ميادينها وليس ذلك بغريب - فهم عرب فصحاء مفطورون على
القول ، ولهم بالجرأة على القول تميز واشتهار .

١ - انظر دراسات في الأدب - د/ كامل الفتى ص ٣٣ وجمهورية خطب العرب ج ٢ ص ١٨٢ .

وقد قيل إن العرب أهل فصاحة لسانية أكثر منهم أهل بلاغة كتابية ولعل هذا هو السبب في أنهم وضعوا للفصاحة كلمة مشتقة من اللسان فقالوا : رجل لسن إذا كان ذا بيان وفصاحة . ولم يشتقوا مثل ذلك من الكتابة (١) .
لقد نضجت العقول في عصر بني أمية . وهذبت الملكات . وطوعت أزيمة القول . واستمد الخطباء ما استمدوا من الأمصار المفتوحة . وصار ذلك مجالات جديدة للخطيب ، يجد فيها المعاني الوافدة ، والأغراض المستحدثة وإن كانت الملكات في أواخر هذا العصر قد ضعفت وتطامنت وهان شأنها إلا أنه ضعف لا يخرج أصحابه إلى حد العجز والانهيار .

الأحزاب والفرق :

يعد قيام الأحزاب السياسية ، وتعدد الفرق الذهبية من أهم بواعت الخطاب . وتنشيط سوقها في هذا العصر .
وقد أثر في ذلك ما أثر من الترشق بالتهم ، ولقد كان فيهم أمويون وزبيريون ، وكان فيهم الشيعة والخوارج ، وبين كل صيال وجدال ومن أثر ذلك حطب تتأجج . وبيان يتدافع . ووراء كل فريق عشاق يتبارون في القول ليهيجوا النفوس . ويحموا الأنصار ، ولن تجد أفعل من ذلك النضال في إثارة البيان وصفله وتهذيبه .

وحين ضعفت الأحزاب ، وأعمدت سيوفها ، سلنت مكانها الألسنة . فكان للدولة معارضون أنكباء ينكرون سياستها ويذيعون قالة السوء عنها ، واضطر الخلفاء والأمراء أن يدافعوا عن أنفسهم وعن سياستهم باللين حيناً وبالقوة حيناً .

١- ضحى الإسلام ج ١ ص ١٧٤ .

وكل ذلك جعل حظ الخطابة في هذا العصر عظيماً لم تبلغ مثله أمة من قبل إلا ما كان من أمر اليونان والرومان ، ولقد كان للإيمان الذي يخالط شغاف القلوب ، والعقيدة التي ترسخ في أعماق النفوس ، من دُفع قوى جريء لأولى الإيمان والعقيدة أن يجهروا برأيهم ، ويناضلوا لنصرة مذهبهم ، ويستमितوا في نشر فكرتهم. لا يبالون في هذا بأذى ، ولا يرهبون من جراء ذلك صاحب سطوة فلما نعي (الحسين) ع في الكوفة نادى وبها (ابن زياد) إلى الصلاة الجامعة ، ثم صعد المنبر وخطب فقال: (الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب بن الكذاب الحسين بن علي وشيعته ، وما أكمل ابن زياد جملته حتى وثب إليه شيخ ضريرهو (عبد الله بن عفيف الأزدي) وصاح قائلاً: يا ابن مرجانه ، أتقتل أبناء النبي وتقوم على المنبر مقام الصديقين؟ إنما الكذاب أنت وأبوك ، والذي ولاك وأبوه ، ولم يطلع عليه النهار إلا وهو مصلوب ^(١) .

وللخوارج في ذلك شأن عجيب ، فقد كان لهم من قوة العقيدة ما حملهم أن ينتهزوا كل فرصة للدعوة إلى مبادئهم جهرا ، بل كانوا يرسلون إلى الخلفاء والأمراء يدعونهم لمشايعة مذهبهم .

وقد بلغ من شأن الخطابة في هذا العصر أن أصبحت فناً يدرس ، وعلماً يلقن يقاس به قيمة الرجال وقد روى أن (بشر بن المعتمر) مر على (إبراهيم بن جبلة) وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فوقف عليه وكأنه لم يعجبه كلام (إبراهيم) فدفع إلى الفتيان صحيفة من تحبيره وتنميجه فإذا فيها من جملة ما فيها: ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين

١- انظر دراسات في الأدب ص ٣٦ .

وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات.. الخ .

سمات الخطابة الأموية :

لم تقم دولة الأمويين على الدين ، فقد علم قاداتها أن مظهر الدين لا يقبل منهم ، ومن ثم عولوا على السياسة وشفقت الخطابة عن هذه النزعة ، وكان من أثر هذه الصبغة في خطبهم أنهم لم يعمدوا إلى الاقتباس من آيات القرآن الكريم ، كما كان يفعل السلف الصالح ، بل غلابعضهم فتجافي عن استهلال الخطبة بالحمد كما فعل (زياد بن أبيه) في خطبته (البتراء) وقيل إن تمثله بالشعر أحب إليه من الاقتباس من القرآن الكريم .

وهذا اللون من الخطابة السياسية قد ظهرت فيه قوة الأسر ، وضخامة العبارة ، والتزيد في الوعيد ، والإنزار الشديد ، وكل ذلك قد اتضح في خطبة (زياد) البتراء .

أما خصوم الأمويين المناوئين للخلفاء ، المناهضين لهم قد سيرت في خطبهم سمات من الابتداء بحمد الله ، والصلاة على النبي ، والاقتباس من الكتاب الكريم ، كما يبدو في هذا الضرب من الخطابة التذكير بالأخرة والتنفير من الدنيا ، والدعوة إلى مجاهدة النفس والالتزام بحدود الله وظهر ذلك في خطبة أبي حمزة الشاري .

خطبة لعمر بن عبد العزيز

خطب عمر بن عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً يحكم الله فيه بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وحرّم الجنة التي عرضها السموات والأرض ، واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف ربه وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بباق ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين ، ثم أنتم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحبه وبلغ أجله ، ثم تغيبونه في صدع من الأرض ، ثم تدعون غير موسى ولا مههد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ، غنياً عما ترك ، فقيراً إلى ما قدم ، وأيم الله إنني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي ، فاستغفر الله لي ولكم ، وما تبلغنا حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددها ، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي ويحمي الذين بلونتي حتى يستوي عيشنا وعيشكم ، وأيم الله أن لو أردت غير هذا من عيش أو غصارة لكان اللسان مني ناطقاً ذلولاً عالماً بسبابه ، لكنه مضى من الله كتاب ناطق ، وسنة عادلة ، دل فيها على طاعته ، ونهى فيها عن معصيته .

ثم بكى فتلقى دموع عينيه بطرف ردائه ، ثم نزل فلم ير على تلك الأعواد حتى قبضه الله .

الخطبة البتراء لزياد بن أبيه :

أما بعدُ ، فإنَّ الجهالةَ الجهلاءَ ، والضلالةَ العمياءَ ، والغِيَّ (١) ،
الموفي (٢) بأهله على النَّارِ ، ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حماؤكم من
الأُمُورِ العِظامِ ، ينبتُ فيها الصَّغِيرُ ولا يتحاشى عنها الكَبِيرُ . كأنكم لم
تقرأوا كتابَ اللهِ ، ولم تَسْمَعُوا ما أَعَدَّ اللهُ مِنَ الثَّوابِ (٣) الكَرِيمِ لأهلِ
طاعته ، والعذابِ الأليمِ لأهلِ معصيته (٤) في الزَّمنِ السَّرْمَدِيِّ (٥) الذي لا
يزول .

أتكونون كَمَنْ طَرَفَتْ عَيْنِيهِ الدُّنْيَا (٦) وَسَدَّتْ مَسَامِعَهُ الشَّهَوَاتُ ،
واختارَ الفانيَّةَ على الباقيةِ . ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلامِ الحَدِثَ
الذي لم تُسبقوا إليه من تَرَكِّمِ الضَّعِيفِ يَقْهَرُ وَيؤْخَذُ ماله .

ما هذه المواخيرُ (٧) المنصوبةُ والضعيفةُ المسلوبةُ في النهارِ المبصرِ ،
والعددُ غيرُ قليلٍ ، ألم يكن منكم نهاة (٨) تمنعُ الغِوَاةَ (٩) عن دَلَجِ اللَّيْلِ (١٠)
وغارةِ النَّهَارِ ؟ قرَّبتمُ القِرابَةَ وباعدتمُ الدِّينَ . تَعْتَذِرُونَ بغيرِ العِزْرِ
وتغضُّونَ على المختلسِ . كل امرئٍ منكم يذُبُّ (١١) عن سفيهِه ، صنيغٌ من

١- الغي : الضلال

٢- الموفي : المشرف

٣- الثواب : الجزاء على أعمال الخير

٤- المعصية : الزلة

٥- السرمدي : الأزلي الأبدى

٦- طرفت عينيه الدنيا : طمعت عيناه إلى الدنيا وزخرفها فشقنا بها عن الآخرة

٧- المواخير : بيوت الريبة

٨- النهاة : الزاجرون ، المانعون

٩- الغواة : الضالِّمون

١٠- دلج الليل : السير فيه

١١- يذُبُّ : يدفع

لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً^(١) ما أنت بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرقوا وراعكم كنوساً من مكانس الرّيب^(٢) .

حراماً على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً !
إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوّله : لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف. وإني أقسم بالله لأخذنّ الولي بالمولي^(٣) ، والمقيم بالطاعن^(٤) ، والمقبل بالمدير^(٥) ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح بالسقيم ، حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول : " انجُ سعد ، فقد هلك سعيد ، أو^(٦) تستقيم فئاتكم .

إن كذبة الأمير بقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم على بكذبة حلت لكم معصيتي ، فإذا سمعتموها فاغتموزها فيّ ، وأعلموا أن عندي أمثالها . من نُقب منكم عليه^(٧) فأنا ضامن لما ذهب منه . فإياي ودلج الليل فإني لا أوتي بمُدلج إلا سفكتُ دمه . وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم . وإياي ودعوى الجاهلية^(٨) ، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعتُ لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ننب عقوبة . فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش

١- المعاد : الأخرة .

٢- الكنوس : المختبئون . المكانس الملاجن ، وتكون للوحوش تختبئ ، فيها . الريب التهم .

٣- الولي : السيد . المولى العبد .

٤- الطاعن : المسافر .

٥- المدير : الذهاب .

٦- أو ناصبة لأنها أتت بمعنى : إلى أن .

٧- نقب عليه : سرقت داره .

٨- دعوى الجاهلية : دعوى العصبية والنزق .

قبراً دفنناه فيه حياً ! فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفوا عنكم يدي ولساني .
 ولا تظهر من أحد منكم ريباً بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه .
 وقد كانت بيني أقوم إحن^(١) فجعلت ذلك ذنب^(٢) أذني وتحت قدمي . فمن
 كان منكم مسيناً فليزرع عن إساءته . إنني لو علمت أن أحدكم قد قتلته السل
 من بغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك^(٣) له سترأ ، حتى يبدي لي
 صفحته^(٤) فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم
 ، فرباً مبتئس بقومنا سيئس^(٥) ، ومسرور بقومنا سيبتئس .

أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسةً وعنكم زادةً ، نسوسكم بسلطان الله
 الذي أعطانا ، وندوؤد عنكم بفيء^(٦) الله الذي خوّلنا ، فلنا عليكم السمعُ
 والطاعةُ فيما أحببنا ولكم علينا العدلُ فيما ولىنا ، فاستوجبوا عدلنا وفيتنا
 بمناصحتكم لنا واعلموا أنني مهما قصّرت فلن أقصر عن ثلاث : لست
 محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل ، ولا جابساً عطاء ولا
 رزقاً عن إيّانة^(٧) ، ولا مجمراً^(٨) لكم بعثاً .

وأيم الله ، إن لي فيكم لصرعي كثيرةً ، فلينحذر كل امرئ منكم أن

يكون من صرعاي .

١- الإحن : الأحقاد

٢- ذنب : خلف

٣- أهتك : أشق

٤- يبدي لي صفحته : يكشفني

٥- الفيء : النعيم

٦- إيّانة : حينه

٧- التجمير : حس الجنود عن العودة إلى أهله

زياو بن أبيه

٦٧٢ م و ٥٢ هـ

حياته :

لما كان زياد غير شرعي الوالد فقد تعددت أسماء والده ، فهو زياد ابن أبيه وهو ابن سمية وابن أبي سفيان وابن عبيد . ولد بالطائف بين السنة الأولى والثامنة للهجرة ، وأمه جارية للحرث الثقفي تدعى سمية .

عرف زياد منذ حداثة بمزايا لا تظهر عادة إلا في الرجال ، منها النجابة : والفصاحة ومنها الحزم والشدة والدهاء ، فما كاد يشب عن الطوق حتى استكتبه أبو موسى الأشعري ، وهو على البصرة من قبل عمر بن الخطاب . فاستبد بإعجاب الناس . وإذا بعمر يوكل إليه إحدى المهام فقام بها على أحسن وجه ، وعند رجوعه دخل على عمر ، وفي حضرته قوم من المهاجرين والأنصار بينهم عمرو بن العاص وأبو سفيان والد معاوية ، وألقى خطبة هرّ بفصاحتها قلوب الحاضرين ، فقال عمرو : " لله در هذا الغلام ، لو كان أبوه قرشياً لساق العرب بعصاه ، فقال أبو سفيان : إنني أعرف أباه . فقال عمر : من هو ؟ قال أنا هو . وإلى هذا القول استند معاوية حين استلحق زياداً بأبيه .

ولما استخلف على بن أبي طالب ولي زياداً على فارس فساسها بدقة وحزم . ولكن ذلك لم يرق لمعاوية فكتب إلى زياد يعنفه ويعرض به ، فردّ عليه زياد بلهجة أشدّ عنفاً وقسوة . فلما بلغ الأمر عليا كتب إلى زياد يطري عليه ويحذره من معاوية .

وما كاد يقتل على حتى استمال معاوية زياداً إليه واستلحقه بنسبة ثم ولاه البصرة وأعمالها . وعندما مات المغيرة بن شعبة أمير الكوفة وألقي في مسجدها أولى خطبة حصيه الناس . فأمر بإقفال الأبواب والقبض على المشبوهين وقطع أيديهم .

وكان زياد على وشك أن يتولى أمور الحجاز عندما أصيب بالطاعون ففضي عليه . وكان ذلك سنة ٦٧٣ م و ٥٢ هـ .

قال عبد الله بن عمر بن الخطاب لما بلغه موته : " أذهب ابن سمية . لا الآخرة أدركت . ولا الدنيا بقيت عليك " .

المناسبة :

كانت البصرة في أيام معاوية مركزاً لاستفحال المعارضه ، وخليئة لمختلف العصبيات يؤلف الخوارج والبدو المتعصون لتقاليدهم القبليية معظم سكانها . لذلك كان يسودها تياران : تيار النزاع المستمر والفساد والاضطراب ، وتيار التماسك ضد الأمويين .

وكان على معاوية أن يقف بوجه المدينة الثائرة فلم ير خيراً من زياد يرميها به وهو العليم بإخمد الفتن والخروج من المأزق .

دخل زياد البصرة والياً عليها وهمه ضبط أمورها وإخضاعها للحكم الأموي . وما كاد يستقر به المكان حتى جمع الناس في مسجدها وألقى بين أيديهم خطبته البتراء التي لم يبدأها بالحمدلة أو البسمة أو التصلية . ومن ثم أخذ يطبق الشرائع التي سننها ، يسير وبين يديه الحراب والعمد . ولكثرة ما عنف في حكمه وقسا . هابه الجميع وخضعت له الأحزاب واستتب الأمن .

قيل أن أعداء زياد هم الذين أطلقوا على خطبته أسم البتراء ليشنعوا عليه . ولكن تلك التسمية لم تخفض من قيمتها . وقيل أيضاً إنما سميت البتراء لأنها كالسيف القاطع .

المصطفى :

أوضح ما في البتراة أقسام أربعة هي التالية :-

١. **حالة البصريين** : لقد جمحت بهم المساوىء والشورور ، فالجهل والضلال والغى من بضاعة سفائهم وحلمائهم على السواء ، ربي عليها الصغار وفي ركابها سار الكبار . أتراهم جهلوا الإسلام وتناسوا تعاليم القرآن وأغمضوا عيونهم عما أعد الله من ثواب للمتقين وعذاب للفاسقين في الحياة الباقية ؟

أباستطاعة من دانوا بالإسلام أن يجعلوا طريقهم محفوفة بالأثام والفواحش ؟ هل ضربوا بالعمى فحجبت عن عيونهم الفضائل . أم صمت منهم الأذان فليس في آذانهم غير ضجيج الشهوات ؟

ما أعجب أمر أهل البصرة ، يعلنون شأن الدنيا الزائلة ويخفون قيمة الآخرة الدائمة . هم دعاة المعاصي في الإسلام ، فالضعيف على أيديهم يقهر ، والضعيفة تسلب في وضوح النهار وليس بينهم من ينهي عن منكر أو يدفع عن غواية . إنكم يا أهالي البصرة خارجون على تقاليد الدين ، وأعداركم غير مقبولة . تشيخون بأنظاركم عن الفحشاء ، وتتعهدون السفهاء بالعناية ، كأنكم لم تخشوا عقاباً ولم تأملوا معاداً . لقد فسحتم المجال للأشرار فتمادوا في شرهم وانتهكوا حرمة الإسلام وتستروا في أقبية الريب ومخابىء الفجور .

٢. **موقف زياد من هذه الحالة** : يخطط زياد في هذا القسم من خطبته لسياسية إصلاح عامة ، عمادها " اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف . بهذه السياسة قضى قبله عمر ابن الخطاب على مفاسد الجاهليين . وبها سيقضى زياد على مساوىء البصريين .

هو يحرم على نفسه الطعام والشراب إلى أن يسوي البصرة بالأرض هدماً وإحراقاً. وفي سبيل الوصول إلى غايته يقسم أن يأخذ السولي بالمولي، والمقيم بالظاعن، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم، حتى يضع الناس من هول ما يلاقون ويخلدون إلى السكينة.

إن في هذا القول غير لئيل على تفهم زياد لعمق المسؤولية، والإحاطة بالتبعات الملقاة على كواهل الجماعة. فهو يعلم أن وراء الخارجين على القوانين ومرتكبي الآثام أصابع تحرك الفتن في الخفاء وتعمل في الظلام، ثم يتلبس أصحابها البراءة ويدعون المسألة.

ويسير زيادة في بسط تشريعه القائم على الشدة، فيتعهد بتنفيذ ما يعد به، وبتطبيق ما يعلن من نظام عرفي يتعلق بالسرقة ودلاج الليل ودعوى الجاهلية "فمن نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله. وإياي ودلاج الليل، فإنني لا أوتي بمدلاج إلا سفكت دمه... وإياي ودعوى الجاهلية، فإنني لا أجد أحدا دعا بها إلا قطعت لسانه".

وجعل لكل ذنب عقوبة. "فمن أغرق قوماً أغرقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً".

بمثل هذه اللغة يدعوزياد الناس إلى أن يكفوا عنه أيديهم وأسننتهم، وإلا كان عقاب كل ريبة ضرب العنق.

لقد كان بينه وبين بعض البصريين عداوات سابقة، ولكنه لن يحرك رمادها ويتخذ منها سبيلاً إلى القسوة والتشفي، وإنما سيرتك لهؤلاء مجال العودة إلى حياة العمل والمسألة حيث سيسود العدل والنظام. "فاستأنفوا أموركم، وأعينوا على أنفسكم، فرب مبيتئس بقدومنا سيسر، ومسرور بقدومنا سيبتئس"

٣. شرعية الظافة الاموية والإذعان لها : بعد أن حقق زياد غايته في القسمين السابقين من ضبط أمور البصرة ، ينتقل هنا إلى إخضاع البصريين للحكم الأموي معلناً نوع العلاقة التي يجب أن تقوم بين الراعي والرعية . وأول ما يريد تثبيته في الأذان هو ما للأمويين من حق إلهي في سلطتهم ، فهم أصبحوا للناس ساسة وعنهم زادة ، يسوسونهم بسلطان الله الذي منحهم إياه ، فهم خلفاؤه على الأرض ، فعلى الناس إذن أن يسمعوا ويطيعوا ، وعلى الحكام أن يعدلوا ، إنها شراكة بين الحاكم والمحكوم قائمة على التناصح والتعاون .

ثم يعلن زياد أنه لن يقصر عن ثلاث : قضاء حاجاتهم ولو أتوه تحت ستر الظلام ، إعطاؤهم الرزق في حينه ، عدم حبس الجنود في أرض الأعداء .

٤. الخاتمة : وينتهي زياد خطبته بقسم صاعق يدعوبه الناس إلى احترام القانون وإلا كان له بينهم صرعى كثيرون .

الدراسة الأدبية :

أول ما يجبه به زياد البصريين في الخطبة البتراء عرضه لما يبيحون لأنفسهم من عصيان قام على المنكر والفساد . ثم تعدي نطاق البيئة بأحكامه حين سن للعقوبات قانوناً لم يالفوه .

وبعد ذلك ينفي إضمار الحقد لأي كان من أعدائه أو مبغضيه . فيدعوهم إلى استئناف العمل ويعددهم بإقامة العدل .

وفي النهاية ينصحهم بالخضوع للأمويين الذين استمدوا من الله سلطانهم . وإذا به يأبى إلا أن يكون الختام صاعقاً مدياً .

لقد نزلت هذه الخطبة على البصريين لاهية مجلجلة فأرهبتهم وتركتهم مذهولين واجمين ، فالتهديد فيها صارخ ، والوعيد مخيف . ولئن قال قائل عند سماعها : " أنبأنا الله بغير ما قلت " ، أجاهه زياد : " إننا لا نبليخ المراد منك ومن صاحبك حتى نخوض إليكم الباطل خوفاً . " ولقد حقق تهديده ووعيده فكان رهيباً في تطبيق أحكامه .

إن مميزات الخطبة ، من حيث العمل الصناعي ، كثيرة أبرزها البلاغة ، وما يتحدر عنها من جلاء المعاني ، وإيجاز الألفاظ ، وتنسيق فني متكامل .

هو يبدو مرشداً يضع البصريين أمام ذنوبهم ، ويحرك روح الدين في صدورهم ، فيذكرهم بالعقاب والثواب .

ثم يبدو مشترعاً يضع عقوبات جديدة لمفاسد غير مألوفة . وهذه العقوبات ستنفذ بدقة وحزم ، حتى إنه يحل لهم معصيته إن هو تباطأ في التنفيذ أو أخذ عليه شيء من الكذب .

والظاهر أن العرب في مطلع الإسلام ظلوا متعلقين بجاهليتهم لكثرة ما فرض عليهم الدين الجديد من نظم لم يتعودوها . لذلك يسألهم زياد أن يتمثلوا به وإلا ضرب منهم الأعناق .

وبعد ذلك يبدو حكيماً عادلاً يترفع عن الضغائن والأحقاد ويتنزه عن الحزازات والميول الشخصية .

ويبدو أخيراً سياسياً داهية ، تمرس بالتجارب ، فيعلى شأن الأمويين ، ويفضلهم على سواهم من الحكام ، سائلاً البصريين الانقياد لهم ، فتقضي حاجاتهم ، وينالون رزقهم في وقته ، ويطلق سراخ الجيش فلا يحبس في أرض العدو .

وكأني بزياد أراد أن يكون النغم الأخير داوياً ليظل صدى التهديد هادراً في الأذان ، فختم خطبته بهذه الجملة الصاعقة التي قفز إليها قفزاً : " إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امريء أن يكون من صرعاي " .

لقد اعتمد زياد الأسلوب الخطابي بما فيه من بناء ووضوح وإقناع وتأثير . وهو في مقدمته وندرجه إلى الموضوع ، واستخلاص النتائج ، يقيم خطبته على الفكر المجرد والتقسيم المنطقي والأدلة الدينية .

وقد يعود ما في خطبة زياد من إرعاد وإراقة دماء إلى تأثيره بعمر ، ولكنه تجاوز لين الخليفة الراشدي الذي دعا الناس إلى إصلاحه أن رأوا فيه إعوجاجاً ، وكاد يصعق أحد منتقديه .

نستنتج من ذلك أن التشابه بين الخطيبين ، هو في الصلابة لا في الإسراف في العقاب .

ومتى عرفنا أن الخطابة الإسلامية عامة وخطابة زياد خاصة تأثرت بواقع السياسة الأموية وقد هددت بالتداعي ، لم تنكر عليها العنف والقسوة .

ولشدة إنفعال زياد رأينا التناقض من مزايا خطبته ، فبعد أن أعلن في مستهلها إتباع سنة اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف ، نراه ينسى خطته وينقض على سامعيه بالويل " فيسوى البصرة بالأرض هدماً وإحراقاً ، ويقسم بالله ليأخذن الولي بالمولي والمقيم بالطاعن والمقبل بالدبر والمطيع بالعاصي " .

ويريد أن يعلم الناس أن تهديده ليس من قبيل الإيهام فهم في حل من طاعته أن لم يصدق فيما وعد به " فيستغرق من أغرق ، ويحرق من أحرق وسيدفنههم أحياء " .

ومن البراهين على شدة تماسك الفكر عند زياد عدم اشغاله بالحكم المتفرقة شأن الجاهلين على أن البتراء وإن كانت خلوا من الآيات القرآنية فهي لم تخل من النفحة الدينية يثير الخطيب ملامحها في تضاعيف السطور بطريقة غير مباشرة .

وزياد شديد التخير لألفاظه وتعايره ونعوته ، يحسن المزاج بين الإيجاب والنفى ، يتلاعب بأساليب الإنشاء فمن تقديم إلى تأخير إلى تأكيد أو قسم ، يدعم بكل ذلك فكرته ويوطد بناء خطبته .

وفي البتراء تتجلى شخصية زياد القوية ، فهو الممثل للبيت الأموي ، العارف بأحوال البيعة ، الخبير بالسياسة والحكم ، يرفده ذكاء وقاد ومعرفة عميقة بطبائع الجماهير .

وفيها مظهر للفتن التي هزت عصر بني أمية ، ولتكاثر الأحزاب والفرق ، ولاهتمام الأمويين بما آلت إليه البلاد من اضطراب كان عليهم أن يخدموه لتوطيد سلطانهم .

قال الثعالبي : " ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلاماً " .

وقال احسن البصري : " أوعد عمر فعفا ، وأوعد زياد فابتلي " .

ولا عجب أن يقال في زياد مثل هذا القول وهو الذي صح فيه ظن أبين

العاص فساق الناس بعصاه .

ملاحح تطور وازدهار الأدب في العصر العباسي

مهما يكن من أمر التغيير الذي أصاب الحياة في العصر العباسي ، فقد ظلت اللغة العربية أداة التعبير ووسيلة الفن القولي ، على الرغم مما أتاحه ذلك العصر للناس من ثقافات جديدة متنوعة ، وتجارب حيوية مختلفة . إلا أن أداة التعبير في ذلك كله كان باللغة العربية بكل ما فيها من إمكانات وطاقات تعبيرية .

ولما كان الأديب لسان قومه وعصره كان طبيعياً ، أن يكون هناك صراع بين التقاليد الفنية الموروثة وبين ثقافة وذوق المجتمع الجديد ، لكنه مع مرور الوقت بدأ التيار الجديد يفرض نفه ويؤكد جودته ، ونفذ الشعراء العباسيون من خلاله إلى استحداث أسلوب جديد عرف باسم أسلوب المولدين اعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الزاخرة بالكلمات الوحشية ولغة العامة الزاخرة بالكلمات المتذلة .

وبعبارة أخرى أسلوب يجمع بين مادة اللغة بمقوماتها النحوية والصرفية الملائمة بينها وبين الحياة الحضرية المترفة في العصر العباسي ، من حيث القدرة على تخير البعيد عن الغرابة والوحشية ، وعن العامية المتذلة ، وبدأت الأساليب ذات سمة خاصة تشق عن ذلك المزيج من القديم الفصيح والذوق الحضري الجديد .

وقد كان بشار أحد الأوائل الذين استخدموا هذا الأسلوب ، وأرسوا قواعده وسار على نهجه شعراء كثيرون أمثال البحتري وأبو تمام الذي رد ذلك الأسلوب

إلى قوة السيك وضخامة البناء ، وكذلك ابن الرومي ، والذي يقول فيه بن خلكان :
" والشاعر المشهور صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب، يغوص على المعاني
النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك الفن حتى
يستوفيه إلى آخره ولا يبقى فه بقية ."

ويظهر صاحب كتاب العمدة منهج الشعراء في العصر العباسي بقوله "
ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي حيث وقع من هجنة
اللفظ وقبحه وخشونتته كإبن الرومي ، وأبي الطيب ومن شاكلهما هؤلاء
المطبوعون .

كما لعبت الثقافة اليونانية والفارسية دوراً كبيراً في التركيبة الثقافية
لبعض الشعراء تمثلت في التشخيص الذي يشبه توليد الأساطير واختراع الأرباب
والريات لكل قوة من قوى الطبيعة عند اليونان ، وكذلك المعاني النادرة والأخيلة
المتكررة ، كأن يصور بعض الشعراء المعاني المجردة أرواحاً ينسب إليها ما ينسب
إلى الأحياء من الأعمال والأقوال ، ومن ذلك قول ابن الرومي ساخراً من العوسج
كانه إنسان .

غذرنا النخل في إيداء شوك

يذود به الأنامل عن جناه

فما للعوسج الملعون أبدي

لنا شوكة بلا ثمر نراه

تراه ظن فيه جنى كريماً

فأظهر عدة تحمي حماه

فلا يتسلحن لتدفع كف

كفاه لؤم مجناه كفاه

ولما كان من ملامح العصر الثقافية ، دراسة الفلسفة والمنطق ومذاكرة علم الكلام ، والعلوم المترجمة ، فقد كان لزاماً أن ينشأ الشعراء أو بعضهم على نصيب من تلك العلوم في شعرهم ، بحيث لا يلم المتصفح ببعضه إلا جزم بإطلاع قائله على الفلسفة ومصاحبة أهلها واشتغاله بها ، حتى سرت في أسلوبه وتفكيره .
والجدير بالذكر أن مثل هذه الأشياء تعد ملمحاً واضحاً في الشعر العباسي ، لم يكن موجوداً من قبل ، بل كانت نتيجة حتمية لانتشار الثقافات المختلفة بصورة أثرت تأثيراً جدياً في الشعر والشعراء بالإضافة إلى أغراض الشعر الأخرى والتي سيأتي بيانها .

كما أن الشعراء بجانب ما جددوه في الأسلوب إلا أنهم ظلوا ينظمون في الموضوعات القديمة مثل المدح والرثاء والهجاء والغزل والوصف والمجون والزهد وظلت تلك المجالات قائمة وإن كانوا قد توسعوا في بعضها مثل المدح والمجون والزهد واستجابة للأوضاع والمتغيرات التي طرأت على العصر العباسي .

أبو العتاهية وأثره في الزهر:

ترجمته :

هو : أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان وينتهي نسبه إلى عنزة بالولاء من قبل أبيه وإلى بني زهرة من قبل أمه التي كانت مولاة لهم. وأبو العتاهية كنيته . ولقب بها بعد أن دعاه المهدي بها يوماً : وعتاهية يقال للرجل المتحذلق ، فقد روى الأصفهاني أن المهدي قال له يوماً أنت متحذلق متعته فاستولت له من ذلك كنية غلبت عليه دوناسمه وسارت في الناس ^(١) ويقال أنه لقب بذلك الاضطراب كان فيه وقيل لأنه كان يحب الخلاعة والمجون والتعته.

وقد ولد عام ١٢٠ هجرية في بلدة تعرف بعين - التمر وهي كما يقول ابن خلكان من أعمال سقي الفرات بالعراق ، وقد نشأ في الكوفة ، والكوفة وعين التمر كلتاها من سقي الفرات .

وقد أجمعت كتب الأدب أنه نشأ نشأةً وضيعة فاسدة ، فكانت أمة مولاة وأبوه بائع جرار أو كان حجاماً ، إلا أن أبا العتاهية لم يعبأ بهذا الأصل وظهرت في شعره إشارات إلى فضل العلم والتقوى على النسب والأصل امتثالاً لقول الله ﷻ :

﴿ ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ ... ﴾ ^(١)

١- الأغاني ج ٤ ص ٢ .
٢- سورة الحجرات : من الآية ١٣ .

ومن ذلك قوله :

ألا إنما التقوى هي العزم والكرم
 وحبك للدنيا هي الفقر والعدم
 وليس على عبد تقى نقيصه
 إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم^(١)

وقد نشأ الشاعر في الكوفة - كما أشرنا - وأخذ يختلط بالبيئات المختلفة، والتي كانت سمة من سمات العصر العباسي، فاختلط بالجان من الشعراء وأختلف إلى حلقات العلماء والوعاظ في المساجد، مما كان سبباً في إتقانه اللغة العربية والتعرف إلى مذاهب أصحاب الكلام.

كما توثقت الصلة بينه وبين إبراهيم الموصلي الغني، وتعهدا على أن ينزلا بغداد ليروجوا بضاعتهم - الشعر والغناء - ففتحت الأبواب أمام إبراهيم الموصلي بينما أوصدت دون أبي العتاهية، فقرر العودة إلى الكوفة، ولما فتحت الدنيا على الموصلي في خلافة المهدي دعاه إبراهيم وأرسل في طلبه ليقدمه إلى الخليفة، فذهب إليه أبو العتاهية، وأعجب الخليفة بشعره وقربه إليه وأغدق عليه بالعطايا والمنح.

وتمر الأيام ويرحل المهدي ويخلفه الهادي، فيلزمه أبو العتاهية ينشده ويمدحه في كل مناسبة فينال منه المنح والجوائز، ويستمر على هذا الحال مع ابنه الرشيد حينما ولي الخليفة وأصبح لا يفارقه في سفر ولا حضر، وكان يجري عليه خمسين ألف درهم في السنة بالإضافة إلى ما كان يحصله من جوائز وصلات من كبار رجال الدولة.

١- الاغانى ج ٤ ص ٥

وقد امتنع في هذه الفترة عن قول الغزل والهجاء والمدح لغير الخليفة مما كان سبباً في إيذائه وسجنه ، ولعل ذلك بداية زهده ، إذ إنه ما لبث حتى أخذ في قول الزهد والإكثار من الدعوة إلى مكارم الأخلاق ، وقد اتهم في عقيدته " ، لكنه يرد على ذلك بقوله : " زعم الناس أنني زنديق والله ما ديني إلا التوحيد ، فقلنا له : فقل شيئاً نتحدث به عنك أي من الشعر - فقال :

ألا إننا كنا بئد
 وأي بنى أم خالد .
 وبدؤهم كان من ربهم
 وكل إلى ربه عائد
 فوا عجباً كيف يعص الإله
 أم كيف يجحد الجاحد
 وفني كل شيء له آية
 تدل على أنه الواحد

ولعل الظروف السياسية والصراعات الحزبية كانت وراء مثل هذه التهم التي كانت تلقي على بعض الشعراء ، ممن كانوا يتناولون هذه المثالب بالنقد والتوجيه والثورة على المفاسد التي كانت منتشرة آنذاك لكن الناظر في شعر أبي العتاهية لا يجد هذه التهمة أي الزندقة أو أي أثر لنظر نقدي في الكون أو لنزعة فلسفية في الدين .

شعره ومكانته الأدبية :

بعد أبا العتاهية من الشعراء المطبوعين في العصر العباسي . فقال صاحب الأعماني : أطبع الناس بشار وأبو العتاهية . وقال ابن الأعرابي وقد أثاره رجل رمي أبا العتاهية بالضعف . فوالله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت منه وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر .

ونظراً لكثرة الشعراء في العصر العباسي ، وشدة التنافس بينهم إلا أنه استطاع أن يشق طريقه بين الحاسدين والواشين ، وأن يجعل لنفسه مكانة عالية وعرف بشعره وفنه طريق القصور والقلوب .

وهذه المكانة تعطينا بأن أبا العتاهية كان شاعراً مطبوعاً وكان شعره لطيف المعاني سهل الألفاظ بليغ التراكيب ، قليل التكلف ، وهذا ما أكده المبرد بقوله : أبوالعتاهية حسن الشعر قريب المأخذ لشعره ديباحة ويخرج القول كمخرج النفس قوة وسهولة واقتداراً ^(١) .

وقد سئل كيف تقول الشعر قال : ما اردته قط إلا مثل لي . فأقول ما أريد وأترك ملا أريد .

ويؤكد الجاحظ هذه الحقيقة حين سمع من ينشد قول أبي العتاهية :

يا للشباب المرح المتصابي

روائح الجنة في الشباب

فيقول للمنشد كف : أنظر إلى قوله " روائح الجنة في الشباب " فإن له

معنى كمعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب وتعجز عن ترجمته الأسنة

١- انظر الكامل ج ١ ص ٢٣٩ .

إلا بعد التطويل وإدامة التفكير وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه .

وهذه الأقوال وتلك الشهادات لا تمنع من وجود بعض العثرات والسقطات مع اقتداره وتمكنه من قرض الشعر وسهولته عليه ، لكن هذه العثرات لا تخرجه من إمارة الشعر في العصر العباسي ولا تقلل من شأنه ولا من مكانته بين الشعراء المطبوعين الذين كانوا يتمتعون بغزارة النظم وقوته وتعبيره عن الأحاسيس والشاعر . وكلما كان الشاعر صادقاً في فنه مخلصاً له ، كان فنه هذا خالداً بخلود الفن الأصيل .

زهد :

يكاد يجمع المؤرخون والباحثون على أن أبا العتاهية قد ختم حياته بالزهد وظل نحو ثلاثين عاماً يتغنى بالموت والزهد في الدنيا والابتعاد عما فيها من زخرف وبهجة وفتنة ، وحاول الاقتراب من الآخرة ، فكثرت في شعره العظات والتذكرة بالموت في صفحات فنية رائعة تشيع في جنباتها الفلسفة الروحية العميقة القائمة على المعاني الإيمانية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

ولعل الذي دفعه إلى هذا الاتجاه الشعري وتركه ما كان عليه الشعراء هو تأثير العصر الذي جمع بين المتناقضات ؛ حياة اللهو والشراب والرقص والغناء والغزل ، وحياة الزهد والتقوى والخشوع ، فهذه العوامل أسهمت في تكوين نزعة الزهد عنده ، فترك الغزل والمنادمة واختط لنفسه أسلوباً آخر واتجاهاً يخالف ما كان عليه الشعراء آنذاك .

كما يرجع هذا التحول الشعري عند أبي العتاهية إلى أنه كان يحس بالضعفة والحرمان والنقص ؛ فقد نشأ محروماً فقيراً من أسرة وضيفة يعير عائلها بعمله كحجام في الوقت الذي أحب فيه الشاعر الدنيا وأقبل عليها وكلف بها لكنه لم يجد من تصبو إليه نفسه ، فولد إحساسه بالحرمان في نفسه النقمة على الدنيا ، ولم يلبث أن بالغ في ذمها وتحقيرها ، وذم الحرص عليها والتكالب على مباحها وزينتها .

هذا بالإضافة إلى أن عصر الشاعر أسهم في هذا التحول إذ إنه كان من أحفل العصور الإسلامية بالزهد والزهاد ولم يرق إلى درجة الرقي والازدهار واعتباره اتجاهها شعرياً إلا في العصر العباسي ، فقد استغرق بعض الشعراء في الذات العلية وحاولوا التجرد من كل ما سواه من عرض المادة والحس واللجوء إلى الحب الخالص لله والاقتراب من اليوم الآخر ، وكان أبو العتاهية أحد هؤلاء الشعراء من أمثال : ذوالنون المصري وعمر بن الفارض ، وأبو يزيد البسطامي والحسين بن منصور الحلاج ، إلى غير ذلك من الشعراء ممن اشتهروا بهذا الاتجاه .

وإذا سلمنا بأن الزهد قد ظهر في شكل ثورة نفسية من الشاعر على ماضية وحنقه على الدنيا فلم لا تقول أنه بالإضافة إلى ذلك ، يعتبر صدى لثورة أوسع انبعثت من الجانب المتدين في المجتمع العباسي ، والذي يعد بمثابة اتجاه مضاد لاتجاه الخلاعة والفجور ، والتباين الكبير بين الطبقات في الغني والفقير ، لذا نلمح في أشعاره توبيخاً وتسفيهاً للأغنياء ، وحنساً لهم على التخلي عن لذائد الدنيا الفانية .

في مثل قوله :

يا من بني القصر في الدنيا وشيده
أسست قصرك حيث السيل والغرق
لا تغلفن فإن الدار فانية
وشربها غصص أو صفوها رنق
والموت حوض كريمة أنت وارده
فانظر لنفسك قبل الموت يا مذق
وأشعاره في هذا الاتجاه كما نرى تمتاز بالسهولة واليسر، وتدل على صدق
عاطفته ورهافة حسه .

وفاته :

وافته المنية وانتقل إلى الدار التي طالما تغني في أشعاره بها والانتقال إليها
سنة عشر أو إحدى عشرة ومائتين من الهجرة ، ودفن ببغداد ، عن عمر يناهز
التسعين عاما ، كما يبدو من هذه الأبيات التي أوصي أن تكتب على قبره ، والتي
يقول فيها :

أذن حيي تسمعي	اسمعي ، ثم عي ، وعي
أنا ، رهن بمضجعي	فاحذري مثل مصرعي
عشت تسعين حجة	أسلمتني لمضجعي
ليس زاد سوى النقي	فخذي منه ، أو دعني

نماذج من شعره :

قال في التضرع إلى الله والندم على ما اقترف من ذنوب :

إلهي لا تعذّبنني فإني

مقر بالذي قد كان مني

ومالي حيلة إلا رجائي

وعفوك إن عفوت وحسن ظني

فكم من زلة لي في البرايا

وأنت علىّ ذو فضل ومن

إذا فكرت في قلمي عليها

عضضت أناملي وقرعت سني

يظن الناس بي خيراً وإني

لشر الناس إن لم تعف عني

ويقول في الزهد في الدنيا وعدم التعلق بها إلا بقدر ما يعين المرء على الحياة ،

وأنه لن يأخذ من الدنيا ، إلا على قدر حاجته مهما بلغت أمانيه وأطعامه ولن

يبقى له إلا ما قدمه خالصاً لوجه الله :

جمعت من الدنيا وحزت ومنيتنا

ومالك إلا ما وهبت وأمضيتنا .

ومالك مما يأكل الناس غير ما

أكلت من المال الحلال فأفنيّنا .

ومالك عن شيء جعلته

أمامك إلا شيء لغيرك أبقيتا

ومالك مما يلبس الناس غير ما

كسوت وإلا ما لبست فأبليتا.

وهو بهذا القول يتمثل القول المأثور: ليس لك من مالك إلا ما أكلت

فأفنيته وما لبست فأبليت وتصدقته فأبقيته .

قصيدة أبي العتاهية في مخاطبة الدنيا وفومها

١. قطعت منك حبال الأمل
وحططت عن ظهر المطي رحالي
٢. وينست أن أبقى لشيء نلت مما
فيك يا دنيا ، وأن يبقي لي
٣. فوجدت برد اليأس بين جوانحي
وأرحت من حلي ومن ترحالي
٤. ولئن ينست لرب برقة خلب
برقت لذي طمع ، وبرقة آل
٥. ما كان أشأم إذ رجاوك قاتلي
وبنات وعدك يعتجلن بيالي
٦. فالآن يا دنيا عرفتك فاذهبي
يا دار كل تشئت وزوال
٧. والآن صار لي الزمان مؤدباً
فغدا على ، وراح بالأمثال
٨. وألان أبصرت السبيل إلى الهدى
وتفرغت هممي عن الأشغال
٩. ولقد أقام لي المشيب نعاته
يفضي إلي بمفرق وقذال
١٠. ولقد رأيت الموت يبرق سيفه
بيد المنية حيث كنت حيالي

١١. ولقد رأيت غرّ الحياة تخرمت
ولقد تصدي الوارثون لمالي
١٢. ولقد رأيت على الفناء أدلة
فيما تنكر من تصرف حالي
١٣. وإذا اعتبرت رأيت خطب حوادث
يجرين بالأرزاق والأجال
١٤. وإذا تناسبت الرجال فما أري
نسبا يقاس بصالح الأعمال
١٥. وإذا بحثت عن النقي وجدته
رجلا يصدق قوله بفعال
١٦. وإذا اتقى الله أمرؤ وأطاعه
فيدها بين مكارم وفعال
١٧. وعلى النقي إذا ترسخ في النقي
تاجان ، تاج سكيئة وجلال

وهي قصيدة طويلة تفيض بالانفعال الصادق والعزم القوي على الطريق الذي أدت إليه فلسفته في الحياة بعد أن خبرها وبلاها وتأملها واكتسبها بنار شرورها ، وذاق فيها طعم الحرمان والشقاء ، فأطال التأمل ، وأمعن في النظر فدقق الإمعان ، ثم وصل إلى النتيجة القوية الواضحة التي وثق بها .

وتكاد تكون هذه القصيدة نموذجا متكاملًا لشعره في الذهب ، إذ إنها جامعة لأهم خصائصه الفنية في هذا الاتجاه ، كما أنها تشتمل على الكثير من أسباب فلسفته وزهده ، وستعرض لهذا الجزء من هذه القصيدة بالشرح والتحليل لنقف على ملامح الزهد عند الشاعر .

الشرح والتحليل :

حقيقة الدنيا والبعد عنها :

يقول أبو العتاهية مخاطباً للرنيا .

١. قطعت منك حبال الأمل
وحططت عن ظهر المطي رحالي
٢. وينست أن أبقى لشيء نلت مما
فيك يا دنيا ، وأن يبقي لي
٣. فوجدت برد اليأس بين جوانحي
وأرحت من حلي ومن ترحالي
٤. ولئن ينست لربّ برقة خلب
برقت لذي طمع ، وبرقة آل
٥. ما كان أشأم إذا رجاؤك قاتلي
وبينات وعدك يعتجن بيالي

اللغة :

١. **حبال** : جمع حباله وهي شرك الصائد .
- المطي** : جمع مطية من المطاء وهو : الظهر .
ويطلق لفظ مطية على الذكر والأنثى .
- والرحال جمع رحل وهو** : ما يعد للرحيل من المتاع .
٢. **اليأس** : القنوط وعدم الرجاء .

- الدنيا : نقيض الآخرة وهي أنثى الأدنى وسميت الدنيا لدنوها .
ولأنها دنت وتأخرت الآخرة وكذلك سميت السماء الدنيا لقربها إلينا .
٣. البرد : ضد الحر ، والبرودة نقيض الحرارة ، والمراد الهدوء والسكينة والفتور .
الجوانح : جمع جانحة وهي الأضلاع التي تحت الترائب والمراد ما تحتويه وهو القلب .
- الحل : الإقامة ، الترحال السفر .
٤. رب هنا تعني : التكثير .
وبرقه الطب : لمعة البرق التي لا تعقب مطراً .
- الال : السراب .
٥. اشام : من الشؤم وهو التطير والشر .
بنات الوعد : كناية عن الآمال الزائفة الخادعة .
يعتجن : يسرعن .

المعنى :

يبدأ الشاعر قصيدته بجملة من الحقائق تتمثل في الكشف عن حقيقة الدنيا ومحاولة البعد عنها ، وعدم التعلق بها ، والجري وراء ما فيه من آمال زائفة وغرور يضل صاحبة ، لذا فإنه لم يعد له طمع في زخارفها الزائلة وزينتها المغرية الخادعة ، ولم الطمع والتعلق بها ويرقها لا يخلف وسرابها دائم الخداع ، وبخاصة وقد ظل طوال الماضي من عمره متعلقاً بها مخدوعاً بسرابها ، مفتوناً بزینتها وبهرجها مقتولاً برجائه منها ، مشغولاً بآماله فيها فما وجد غير السراب ، والهباء المنثور .

والشاعر بذلك يقرر تلك الحقيقة وهي أن الدنيا متاع الغرور وحياة فانية من تعلق بها وانشغل بزينتها وزخرفها ، ساقته إلى الهوان والضياع والخسران وهذا يدل على أن الشاعر قد تمرس الحياة وعاش ضروباً من لذائدها وتعلق بكثير من زخارفها ، وزينتها ، فحديثه عنها وكشف حقيقتها ، يوحي بتجربة صادقة عاشها الشاعر واعتملت نفسه بكل جزئياتها . فخرجت تلك الحقيقة معبرة عن واقعه وما أضحت عليه حاله من جراء تعلقه بها .

هداية بعد ضلال:

٦. فالآن يا دنيا عرفتك فاذهبي

يا دار كل تشئت وزوال

٧. والآن صار لي الزمان مؤدباً

فغدا على ، وراح بالأمثال

٨. وألآن أبصرت السبيل إلى الهدى

وتفرغت هممي عن الأشغال

٩. ولقد أقام لي المشيب نعاته

يفضي إلي بمفرق وقذال

١٠. ولقد رأيت الموت يبرق سيفه

بيد المنية حيث كنت حيالي

١١. ولقد رأيت عُرَ الحياة تخرمت

ولقد تصدي الوارثون لمالي

اللغة :

٦. **تشتت** : تفرق وهو ضد التجمع .
٧. **مؤدبا** : معلما ومهذباً . **غدا على** : أقبل .
- رام** : ذهب . **الامثال** : القصص وال نوادر والعظات .
٨. **بصرت** : رأيت . **السبيل** : الطريق المستقيم .
- الهدى** : الرشاد والفلاح .
- همم** : جمع همة وهي الاهتمام وتعني العزيمة والإصرار .
- الاشغال** : جمع شغل وهو ما يلهي عن غيره من الأعمال .
- كما في قوله تعالى :**
- ﴿ **إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾** ﴾ ^(١) .
٩. **النعاة** : جمع ناع وهو المصوت بما يكره أي الذي يأتي بخبر الموت .
- بفضي** : يخبر ويُسِر .
- المفروق** : بكسر الراء وقتحها : وسط الرأس .
- الغذال** : بفتح القاف - جماع مؤخر الرأس والمراد أن رأسه اشتعل شيباً .
١٠. **بهرق** : يلمع ، سيف الموت : علامته كالكبر والمشيبي .
- هالي** : إزائي ونحوي .
١١. **الغرا بضم العين** : جمع عروة ، وهي مبيت الأزرار في الثياب والمراد أحوال الدنيا وما كان يأمله فيها .
- تخرمت** : ثقبت وانثقت واحترمته .
- المنية** : أخذته ، واحترمهم الدهر أي اقتطعهم وأستأصلهم .
- تصدي الوارثون** : تعرضوا واستعدوا للميراث واقتسامه .

المعنى :

بعد أن كشف الشاعر النقاب عن حقيقة الدنيا ، وأنها زائفة وفانية ، تسلل الندم إلى نفسه وقلبه على ما ضاع من عمره في ظل خداعها وزيفها وتأمله في سرابها . فأعلن قطع صلته بها بعد أن تعرف إلى طريق الهدى والفلاح وانصرفت غايته عما كان يشغلها من قبل وانقطع للتدبر والتفكير في الاستعداد للأخرة ، وكيف لا وقد اشتعل رأسه شيباً وهو رسول من رسل الموت ، جاء يحمل سيفه لينقض عليه كما رأى أحوال الدنيا وما كان يأمله فيها قد تقطع من حوله وتمزقت صلته بها وتراءى له الأبناء وهم يتريصون بساعة فراقه لهم ويترقبون نشوة لقائهم بميراثهم .

وكل هذه أدلة يسوقها الشاعر ليؤكد بعده عن الحياة وعن فعل ما يشينه أو يعيبه باقي عمره وأنه بدأ مرحلة جديدة عرف فيها طريق الهدى والرجوع إلى الله ﷻ .

التقوى سبيل الفلاح :

١٢. ولقد رأيت على الفناء أدلة

فيما تتكرر من تصرف حالي

١٣. وإذا اعتبرت رأيت خطب حوادث

يجرين بالأرزاق والأجال

١٤. وإذا تناسبت الرجال فما أري

نسباً يقاس بصالح الأعمال

١٥. وإذا بحثت عن التقى وجدته

رجلاً يصدق قوله بفعال

١٦. وإذا اتقى الله أمرؤ وأطاعه

فيسداه بين مكارم وفعال

١٧. وعلى التقى إذا ترسخ في التقى

تاجان ، تاج سكينه وجلال

اللغة :

١٢. **الفناء** : الموت والعدم وهي نهاية كل المخلوقات ومنه

قول الله تعالى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾^(١)

تفكر : تغير وأصبح منكراً ، والتفكر التغير عن حال تسرك إلى حال

تكرهها منه والمنكر : ضد المعروف .

الحال : الشأن . والمراد أحواله وتصرفاته وأموره .

١٣. **اعتبرت** : تذكرت وتفكرت في عبر الزمان وتصرفاته . ومنه .

قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾^(٢)

والمراد التذكرة والتفكر والأدكار .

الخطب : الشأن أو الأمر ، صغراً أو عظماً ، وقيل هو سبب الأمر .

يقال : ما خطبتك ؟ أي ما أمرك ، وفي التنزيل العزيز .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾^(٣)

١- سورة الرحمن : الآية ٢٦ .

٢- سورة الزمر : الآية ٢١ .

٣- سورة الذاريات : الآية ٣١ .

أي ما شأنكم وحالكم والجمع خطوب. الأجال : جمع أجل هو العمر

المحدود . ومنه قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ (١)

١٤ . **فناسبت** : ذكرت أنسابها مفاخرة .

وانتسب واستنسب : ذكر نسبه وجمع النسب أنساب .

صالح الاعمال : الأقوال والأفعال الطيبة وفي التنزيل العزيز :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (٢)

١٥ . **التقي** : من بقي نفسه المحاذير والزلل :

ومنه قول الله تعالى :

﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ... ﴾ (٣)

أي أحذروا واحموا أنفسكم .

والتقي : المتقي الذي يجنب نفسه المهالك .

الفعال : الفعل وهو ما يقابل القول ومنه قوله سبحانه :

﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٤) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٤)

والمراد أن التقي هو الذي يتوافق قوله مع فعله .

١- سورة الأنعام : الآية ٢ .

٢- سورة الكهف : الآية ٣٠ .

٣- سورة التحريم : من الآية ٦ .

٤- سورة الصف : الآية ٢، ٣ .

١٦. **مكارم** : جمع مكرمة بفتح الميم وضم الراء وهي الأفعال الكريمة

المعالي : جمع (معلاة ، وعلا، وعلاء) بمعنى الشرف الثابت والذكر العالي المرتفع .

١٧. **التاج** : ما يصاغ للملوك من الذهب والجوهر ، والعرب تسمى العمائم التاج وفي الحديث : (العمائم تيجان العرب) جمع تاج أي العمائم للعرب بمنزلة التيجان للملوك .

ترسخ : رسخ الشيء يرسخ رسوخاً : ثبت في موضعه ، الراسخ في العلم الذي دخل فيه دخولاً ثابتاً . وكل ثابت راسخ ومنه :

﴿ ... وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ... ﴾^(١)

أي الثابتون على مدارس العلم .

سكينة : الاستقرار والهدوء والرزانة . ومنه قوله جلا وعلا :

﴿ .. فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا.. ﴾^(٢)

الجلال : العظمة والرفعة ولا يقال الجلال إلا لله والجليل من صفات الله سبحانه، وقد يوصف به الأمر العظيم والرجل ذو القدر الخطين.

المعنى :

أراد الشاعر بعد ما اهتدى إلى طريق الهداية بعد الضلال أن يرسم صورة واضحة المعالم للتقوى والهداية ، ليسير في ركابها راغبي الآخرة ، وليحيا من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة - وبخاصة بعد أن عرف الإنسان من تصرف الأحوال وتقلب الزمان أن الدنيا زائلة فانية ، وأن الأجال والأرزاق لا شأن

١- سورة آل عمران : الآية ٧ .

٢- سورة التوبة : من الآية ٤٠ .

للإنسان في مجرياتها ، فهي مخطوطة في علم الله الأزلي للإنسان ، تجري بها الأسباب التي كفلها الله للإنسان وهيئها له .

وإذا كان الأمر كذلك فإن التقوى هي معراج الفلاح وسبيل الهدى ، ومنارة السالكين ودرج الإيمان والصدق ، وأن التقى هو الذي تصدق أقواله أفعاله ويرى رفعتة وعلو نسبه في قربه من ربه بالأعمال الصالحة وبالتقوى .

﴿ ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ ... ﴾ ^(١)

والتقى إذا ما أخلص لربه هداه الله للخيرات والأعمال الصالحات من أقوال وأفعال ويكون عبداً ربانياً يقول للشيء كن فيكون ، تنبع الحكمة من لسانه وتسير المكرمات على يديه .

وإذا كان هذا شأن التقوى وسمة المتقين ، فما عليهم إلا أن يتزودوا بهذا السلاح وذاك السبيل ليزدادوا وقاراً وسكينة وهيبة .

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ... ﴾ ^(٢)

١- سورة الحجرات : من الآية ١٣ .

٢- سورة التوبة : من الآية ٤٠ .

جماليات النص وطرائق التعبير :

لقد بلغ من قوة هذه القصيدة في صدق انفعالها وتعبيرها أن أثارت ابن الأعرابي حتى قال في مجلس بعض الخلفاء : " إني ما رأيت قط شاعراً أطبع ولا أقدر على بيت منه ، وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر " .

☞ والقصيدة لها أهمية خاصة في حياته النفسية والفنية جميعاً ، لأنها تقع على الخط الفاصل الحرج في حياته حين وصل إلى قرار خاص بسلوكه وفنه ، ونلمح ذلك من خلال لهجته وتعبيره الذي يعتمد فيه على ضمير المتكلم في مثل قوله : قطعت وحططت ويئست ، فوجدت ، وأرحت - ترحالي - رحالي - بالي وكلها تلمح بل تدل على ما في نفس الشاعر وما حدث فيها من تغيير وما طرأ عليها من تحول .

☞ كما أن تعبيره بالأفعال الماضية في مجال عزوفه عن الدنيا بعد أن تعرف على حقيقتها وسماتها القبيحة فيه دلالة على أنه قد تمرس الحياة أيام الصبا والهورى وتعلق بالكثير من مغرياتهما ، وحمل على عاتقه الكثير من أعبائها نلمح ذلك من خلال قوله : قطعت ، حططت ، يئست ، وكأنه بهذا التعبير يلقي عن عاتقه ما كان يتحمله .

☞ كما أنه حين تنتابه نشوة النصر على أهوائه وفرحته بالتخلص مما كان يشغله يستخدم الأفعال الماضية التي تؤكد انصرافه وعزوفه عن الدنيا ، فتأتي الأفعال وجدت - أرحت ، ولئن يئست لربّ برقة خلب - برقت ، لتؤكد هذا المعنى ولتعطي جمالا في أداء الشاعر وحسن التعبير عن تجربته .

كما تأتي كلمات الندم وعثور الحظ دليل على إسرافه وإفراطه في
الاشتغال بملذات الحياة وانغماسه في أهوائه خلال ماضيه مثل : ما
كان أشأم ، رجاؤك قاتلي ، بنات الوعد يعتجلن ببالي .

هذا بالإضافة إلى إجادته في تخير الصور الفنية المعبرة عما بنفسه
والمجسدة لما يحسه في أعماقه تجاه الدنيا وحقيقتها .

فنرى في البيت الأول صورة رائعة من صور الاستعارة المكنية التي
جسدت الآمال شركا وحبائل صيد كثيرا ما أوقعته الدنيا في فخاخها
قبل أن يتعرف على حقيقتها كما أن استخدامه لكلمة قطعت تفيد
تمام الإجهاز على العلاقة بالدنيا .

وفي البيت الثالث كناية عن راحة فؤاده وهدأة نفسه بعد أن اعتنق
طريق الهدى والفلاح وتكشفت له سمات الدنيا القبيحة ويأسه من
أباطيلها وذلك في قوله : فوجدت برد اليأس بين جوانحي .

وفي البيت الرابع دلالة على إنغماس الشاعر وانصهاره في الحياة
اللاهية العابثة قبل عزوفه عنها ، ويقينه بكثرة خداعها وبرق سرابها
للمراغبين فيها وغير البائسين منها ، لكنه عرف حقيقتها وسبر أغوارها
وأبان زيفها وغرورها ويتجلى ذلك في قوله : لرب برقة خلب برقت
لذي طمع ، وبرقة آل .

وفي البيت الخامس يوظف خياله توظيفاً رائعاً فيأتي بصورة بيانية
رائعة أسهمت في تجسيد ما ارتكبه في ماضيه من حماقات وجهل
وانشغال بالدنيا .

وفي قوله : " رجاؤك قاتلي " استعارة مكنية تصور شدة حرصه على تحقيق رجائه وآماله .

وفي قوله : " بنات وعدك " كناية عن الأمنى الكاذبة والأمال الخادعة التي تزينها الدنيا لراغبيها .

وقبل هذه الصور وتلك الخيالات تتجسد لنا ملامح جدته وصدق نيته في نفرته من الدنيا ومما كان عليه في سالف عهده وذلك في قوله ما كان أشأم .

أما في الأبيات من ٦ : ١١ نرى أن الشاعر يلج في إظهار فكرته تلك التي تتمثل في معرفته طريق النجاة والهدى ، فقد استعمل من الألفاظ والتعبيرات ما يساعده على إبراز تلك الفكرة .

وفي مجال قراره الفاصل الذي يحاول توكيده يستخدم كلمة (الآن والتي كررت في أوائل الأبيات الثلاثة الأولى والتي تفصل بين واقعة الحالي وماضيه ، ولم يكتف الشاعر بذلك بل حشد الكثير من الألفاظ ، يا دار كل تشنت وزوال ، وصار لي الزمان مؤدياً ، وأبصرت السبيل إلى الهدى وتفرغت هممي عن الانشغال ، فكل هذه الألفاظ تجر أولاً قدرته على تخيره للألفاظ الموحية والمعبرة عما في نفسه ، وثانياً فإنها جاءت موفية كما أرادته من معنى .

ثم إنه في فلسفته التي انتهى إليها ، وأصبحت حقيقة واقعة في نفسه ومنهجاً يسير عليه استخدم لبيان ذلك قوله : (رأيت ، ورأى ، وأبصرت) وفي هذه الألفاظ دلالة على وضوح الرؤية وسلامة القصد فيما اتجه إليه .

كما استخدم أدوات التوكيد ليدلل على أنه لاشك ولا ريبه فيما ذهب إليه وأخبره وذلك بعد مشاهدته ورؤيته ونلمح ذلك من خلال قوله في صدر ثلاثة أبيات " لقد " ويعقدها بقوله (رأيت)، (وتصدى) .

أما من ناحية الصور والأخيلة ، فإننا نجد أن أبا العتاهية قد صور ورسم بقلمه ما جسده خياله من حسه ومشاعره تجاه واقعه الذي عاشه قبل أن يسلك طريق الهداية والفلاح .

ففي البيت التاسع نجد الاستعارة الرائعة التي جسدت الشيب وهو يقيم نعاته كما أنه يُفْضِي إليه دون أن يستطيع رده وفي هذا ما يؤكد دور المشيب في حياة الإنسان ، على أساس أنه من دلائل وعلامات الفناء ونذير من نذر الموت .

وفي البيت العاشر يأتي بعدة صور للموت في صور محسوسة لتكون أوقع في النفس وأقرب إلى الواقع الذي أضحى عليه بعد ما تقدمت به السن وأصبح قريباً من الآخرة ، ومن هذه الصور قوله: " رأيت الموت ، يبرق سيفه ، بيد المنية ، وهي صورة يتشخص فيها الموت وتترأى بها المنية ، كما يبدو الموت بريقاً ولعناً ، وهذه استعارة مؤكدة بما لحقها من الاستعارات التي تآزرت جميعاً في إبراز وتصوير المعنوي في صورة محسوسة لتجسد ما في نفسه من انفعالات وعواطف صادقة .

وفي البيت الحادي عشر ما يشير إلى اللوعة والأسى لما صار إليه من عجز وضعف بحيث لا يقدر على إبقاء سلامته أو صد ما تفعله الحياة بصحته ، ويتمثل ذلك في قوله (ولقد رأيت عرا الحياة تخرمت) على سبيل الاستعارة المكنية .

وفي الآيات من ١٢: ١٧ ، نلاحظ أنها جاءت في صور تغلب عليها الحقيقة بل إنها بعيدة عن الخيال ، فهي عظات وعبر يسوقها الشاعر في أسلوب رقيق وعاطفة صادقة لتنساب عبر الأذان إلى القلوب .

وقد استطاع الشاعر أن يختار الألفاظ والعبارات التي تؤدي ذلك المعنى التي يعتمد على سرد الحقائق وتكرار النصح والإرشاد وتقديم خلاصة تجربته في الحياة ، والدعوى إلى الهدى .

وقد استعان الشاعر على بيان ذلك بما التمس في القرآن الكريم وبما اقتبسه من السنة النبوية ، ومن أقوال الشعراء السابقين .

ففي البيت الرابع عشر نجد أنه أهتدي إليه من خلال قول الله عز وجل :

﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ...﴾ (١)

حيث عبر الشاعر عن هذا المعنى بقوله : " وإذا تناسب الرجال فما أرى نسباً يقاس بصالح الأعمال .

كما التمس المعنى نفسه من قول الحطيئة :

وتقوى الله خير الزاد ذخراً

وعند الله للأتقى مزيد

وفي البيت الخامس عشر نجد انه استعمل لفظ التقى بمعنى المؤمن وفي هذا دلالة على أن الإيمان والتقوى مترادفان - كما نراه يحدد مفهوم الإيمان مستعيناً بقول النبي ﷺ : " الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل " .

١- سورة الحجرات : من الآية ١٣ .

كما أنه يتمثل معنى قول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾^(١)

وهذه المعاني استطاع الشاعر أن يصيغها في قوله :

وإذا بحثت عن التقى وجدته

رجلاً يصدق قوله بفعال

وكانه يحث على صدق الإيمان ومطابقة الأقوال للأفعال حتى يصدق

إيمانه وإلا كان مرائياً. وفي الشعر العربي مثل هذه النصائح التي تكشف زيف

بعض الناس ممن يراءون ويحثهم على الإخلاص ومن ذلك قول أبي الأسود الدؤلي:

يا أيها الرجل المعلم غيره

هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى

كيما يصح به وأنت سقيم

لا تته عن خلق وتأتي مثله

عار عليك إذا فعلت عظيم

وفي البيت السابع عشر نجد أن الشاعر قد وفق في اختيار كلمة ترسخ

مضعف العين للدلالة على التكثير من عمل التقوى، وتعميق الإيمان وزيادة التحلي

بخير كساء وأحسن ملابس وفي ذلك معنى قوله تعالى :

﴿ ...وَلِبَاسٍ ءَلْتَقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ... ﴾^(٢)

١- سورة الصف : الآية ٢٦.

٢- سورة الأعراف : من الآية ٢٦.

وقوله تعالى :

﴿... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ تَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ... ﴾ (١)

وفي القرآن الكريم آيات تدور في هذا الفلك الذي يدعو إلى ترسيخ الإيمان في القلوب .
 ١٥ والأبيات في جملتها تمثل قطعة روحية لما أشاعه فيها من روح القرآن
 وهدى النبي ﷺ . حيث اتجه بها إلى الإرشاد والنصح والتوجيه وفي هذا
 المقام لا يعتمد الشاعر على الخيال بل يعتمد على الحقيقة المجردة
 التي لا يصلح غيرها في هذا المقام ، لذا نرى التعانق بين الألفاظ وبين ما
 يريده الشاعر .

تعقيب على القصيدة

لقد عبر أبو العتاهية في هذه القصيدة عن رأيه في الحياة ، وأكثر من التعبير طويلاً في هذا المضمون وكان أكثر ما يستغرق همه في نظرته إلى الحياة أنها ليست سوى آمال ضائعة وسراب خادع وأمني كاذبة .

ولعنا نستطيع أن نصل إلى خلاصة رأيه في الحياة في كثير من جوانبها كما رآها وتصورها شراً وبلاء وهموماً ، وعلى أساس ذلك عرض ما ينبغي أن يكون عليه سلوك من تعرف على حقيقة الدنيا ، كما عرض بعض الأسس المثالية التي تصح بها حياة المرء في الدنيا ، وتكون له ذخراً في آخرته .

وهو يبدو من خلال هذه القصيدة وكأنه أخذ على عاتقه ضرورة الأخذ بأيدي الضالين الذين جرفتهم الحياة بعيداً عن سبيل الهدى وسلم الفلاح ، ومحاولة إرشادهم إلى طريق الهدى والنور .

ونلاحظ كذلك أن الشاعر قد تهيأ له من الصفاء الروحي والخواطر الإيمانية ما جعله يصل إلى طريق الله ، بعد أن ضلّت به الأهواء وشغلته الحياة بغيرورها وخداعها ، فكانت تلك العودة الصادقة الممزوجة بإيمان الخائف ويقين الراجي والحريص على لفت أنظار الطامعين في الحياة الراغبين فيها إلى خداعها وزيفها قبل أن تجرفهم تيارات الفساد وعواصف الأهواء .

والقصيدة بما أودعه الشاعر فيها من سلاسة المعاني ورقة الألفاظ وإحكام النسيج ، وبما رسمه فيها من الصور الفنية الرائعة من استعارات وكنيات وتشبيهات ومحسنات لفظية عفوية ، أصبحت لوحة فنية متناسقة الأجزاء ، كما أنها أبانت وأفصح في جلاء عن غايته وقصده .

كما أن القصيدة تعد صورة حية للحياة في العصر العباسي ، وما كان يدور فيها من الترف واللهو والتكالب على الدنيا ، والانشغال ببهرجتها وسرابها الخادع ، فالقصيدة انعكاس لكل هذه المظاهر .

ومن خلال هذه القصيدة وغيرها من شعر الزهد عند الشاعر نرى فضل ريادته لهذا اللون من الشعر ، واستحق أن يكون رائد نزعة خلقية وهنت في عصره . فكانت نزعة اللهو والفسق شائعة مألوفة في أدب العصر وبين شعرائه وأدبائه ، أما نزعة التأمل في الحياة والاتعاط بالموت لم تكن ذات شأن في أدب هؤلاء الأدباء . إلى أن جاء أبو العتاهية فتولاها بشعره السهل وعبر عنها تعبيراً واضحاً ، وأخذ يتعهد هذا الفن الشعري حتى أصبح فنأله أصوله وقواعده عند سائر الشعراء لينسجوا على منواله ، وأصبح أبو العتاهية علماً من أعلام أدب الزهد أو شعر الزهد .

ومع هذا فقد أبرز بعض النقاد بعض المآخذ الفنية إلا أنها لا تقلل من القيمة الفنية للقصيدة وذلك مثل ظاهرة التكرار لبعض الكلمات مثل تكراره لكلمة " الأن " في أوائل الأبيات ٦ ، ٧ ، ٨ ، وتكراره لكلمة (لقد) في أوائل الأبيات : ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ وتكراره لكلمة : (إذا) في الأبيات ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

وهذا التكرار لا يعد عيباً كما ذكر النقاد إذ إن القصد منه محاولة إبراز الفكرة التي تدور في ذهن الشاعر ، فيحاول استغراق كل ما يسهم في إظهار تلك الفكرة ، وتكرار كل لفظ من هذه الألفاظ له دلالة التي أشرنا إليها في مواطنها . وبهذا تعد القصيدة نموذجاً فنياً رائعاً في شعر الزهد .

من الفنون النثرية في العصر العباسي

كان النثر الفني في أوائل العصر العباسي مزجاً من عدة ثقافات متباينة ،
وألوان فكرية مختلفة ، وكان قوامه العلوم والمعارف والثقافات الفارسية والهندية
واليونانية .

وقد استطاع النثر العربي بما يتحلى به من مرونة أن يحتوي كل هذه
المعارف والعلوم ، ونتج من ذلك أن تعددت شعبه وفروعه العلمية والفلسفية
والتاريخية والأدبية والاجتماعية ، فوجدنا كتب التفسير وكتب الأحاديث وكتب
الفلسفة والتاريخ والطب ، والصيدلة والهندسة إلى غير ذلك من العلوم والمعارف
التي أنشأها العرب أو ترجمت من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية وعلى الرغم
من ذلك فقد ظل النثر العربي محتفظاً بمقوماته الفنية وطابعه العربي الذي
يتميز به .

هذا بالإضافة إلى الأنواع الأدبية التي ظهرت في العصر العباسي مثل:

كـ **فن الخطابة** التي كان لها دوافعها السياسية في أوائل العصر العباسي،
حيث أنبروا يدافعون عن حقهم فيما تولوه من خلافة ، وأنهم أولى بها
من غيرهم لقربتهم من آل البيت .

كما كانت هناك الخطب المناوئة للعباسيين وبخاصة من العلويين الذين
استقروا في أذهانهم أنهم أولى بالخلافة من بني العباس وأنهم استولوا عليها دون
وجه حق ، فكل هذه المعاني صيغت في فن الخطابة وكان كل فريق يتبارى في
الدفاع عن موقفه من خلال مخاطبة الناس وحسن الإلقاء .

كما كانت هناك الخطابة الدينية التي نالت قدراً من الازدهار والتقدم في العصر العباسي ، وبخاصة في بيئة الوعاط والنسك وأهل الدين. وكانت خطبهم تعتمد على الدقة في اختيار الألفاظ المعبرة ، وصياغتها وسبكها في عبارات فصحة تدل على إحساس مرهف ونوق رفيع .

هذا بالإضافة إلى المحاورات والمناظرات التي كان يجريها المتكلمون من المعتزلة وغيرهم والتي كان لها أثر بارز في تطور النثر العربي ووضع أصول علم البلاغة العربية .

ومن الفنون النثرية التي ظهرت في العصر العباسي ، وزاد نشاطها وازدهرت ازدهاراً واضحاً الرسائل الديوانية ، فقد كان لها دوافعها التي أدت إلى ازدهارها ومن أهم تلك الدوافع أنه من كان يُظهر براعة ومهارة في دواوين الخلافة تقبل عليه الدنيا والمنح والعطايا ، ويرقي إلى رئيس الديوان الذي يعمل فيه وقد يصبح رئيساً لمجموعة من الدواوين ، أو وزيراً للخليفة .

كما كان يشترط فيمن يتولى الكتابة : إحسان صناعة الكتابة بمعرفة مادتها اللغوية والأسلوبية المطلوبة ، وأن يكون على قدرة بلاغية تمكنه من الكتابة الرائعة وأن يكون على دراية بالمعارف والعلوم كعلم الفقه واللسان والحساب والطب والنجوم والكيمياء وعلوم الكلام من فلسفة ومنطق وسائر أنواع المعارف كي يرقى إلى الدرجات العليا والمناصب المرموقة .

وقد ظلت أساليب الرسائل مزدهرة في العصر العباسي ، رغبة من أربابها في الحياة الرغدة ، القائمة على العطايا الفائضة ، وكان من أبلغ الكتاب في

العصر العباسي وبخاصة الأول منه : طاهر بن الحسين قائد جيوش المأمون ضد أخيه الأمين. (١)

ومن الفنون النثرية التي تنافس فيها الأدباء والشعراء والكتّاب ، الرسائل الأخوانية والأدبية ، إذ كان لكل خليفة أو وزير أو وال كاتب هولسان حاله إن لم يكن هو الكاتب نفسه ، وذلك لما أخذوا به أنفسهم من ضروب الثقافة وسعة الإدراك والإحاطة .

هذا وقد دارت في كتب الأدب خلال العصر العباسي رسائل إخوانية وأدبية دجها كتاب الدواوين والشعراء والأدباء ، وكانت موضوعاتها تدور في محيط الاعتذار الشخصي ، أو سؤال الود ومواصلة المحبة ، ومنها ما كتب في مجال وصف الكتاب والقلم ، ومنها ما كتب في وصف الجئة والنار وهذه من قبيل الرسائل الأدبية مثل رسالة الغفران لأبي العلاء المعري .

لكن لا يفوتنا أن أساليب النثر في هذا العصر قد غلب عليها السجع حتى أصبح أبرز سماته آنذاك ، بالإضافة إلى البديع كالطباق والجناس والمشاكلة ، مع الالتزام بالصور والأخيلة والتشبيهات التي توافقت روح العصر وذوقه .

١ - أنظر جزء من رسالة إلى ابنه عبد الله في تاريخ الطبري ج ١٦٠/٧ وما بعدها .

من رسالة الغفران لأبي العلاء المعري

ترجمة أبي العلاء . . أصله وبولته :

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري وكنيته أبو العلاء . واسم بلده معرة النعمان . وهي قرية صغيرة في شمال سوريا بين حلب وحمص .
وقد ولد يوم الجمعة الثامن والعشرون من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة هجرية . وهي توافق سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة ميلادية .

نشأته وثقافته :

في السنة الرابعة من عمره (٣٦٧ هـ) أصيب المعري بالجدي ، فكاد يودي بحياته . ولم يغادره حتى ذهب بعينيه وأصيب بالعمى . وبهذه الحادثة تمت أول نكبه أعدها له القدر ، فكان لها في حياته أكبر الأثر . ثم ذهب وهو على هذا الحال إلى الدراسة في " حلب " بعد أن أتم الدراسة على أبيه ، وكانت حلب آنذاك مكتظة برجال العلم والأدب ، الذين ملأوا حلب علماء وأدباءً ، فانتفع بعلمهم أبو العلاء . ثم سافر إلى أنطاكية وفيها اطلع على نفائس الكتب التي وجدها في مكتبتها الشهيرة . وكان بها كثير من الروم الذين شاهد أبو العلاء صولتهم واعتزازهم بها .

ثم سافر إلى طرابلس الشام ، ومر باللاذقية ونزل بدير فيها ، وأخذ عن راهب كثيراً من آرائه في الفلسفة وغيرها ، وقويت الصلة بينه وبين النصاري واليهود . وتمكن من دراسة دينهم ومناقشتهم فيه . ثم عاد إلى بلده ومسقط رأسه معرة النعمان ، ومات أبوه وهو في الرابعة عشرة من عمره سنة ٣٧٧ هـ فرثاه بنونيته المعروفة في سقط الزند . وهي تمثل شعره في تلك الفترة

وقد ظل في بلدته حتى سنة ٣٩٨ ، ثم رحل إلى بغداد وهناك ذاع صيته بعد أن أطلع على العلوم والمعارف التي كانت تذخر بها بغداد آنذاك ، واشترك في الجامع العلمية والأدبية العامة والخاصة ، ثم تحولت به الأقدار والأحوال فغادر بغداد وقد مرضت أمه وأصبح فقيراً ، على الرغم من أنه كان شاعراً وكان يمكنه أن يتكسب بشعره مثل كثير من الشعراء في عصره ، لكن أنفته منعه أن يتكسب بشعره وأدبه ، وقد حزن أهل بغداد على رحيله عنهم ، وكان ذلك سنة ٤٠٠ هـ .

وهو في طريقه إلى المعرة إذ وافاه نعي أمه ، فتمت نغمته على الدنيا .

وكانت هذه الصدمات التي تلقاها في حياته ، سبباً في اعتزاله عن الناس ، لكن الناس لم يتركوه لعزلته ، فالتف حوله الطلاب وأقبل عليه الكثير من المعجبين والمريدين له ليتلقوا العلم على يديه ، وكان له وقف يحصل منه كل عام على ثلاثين ديناراً يعطي خادمه نصفها وينفق على نفسه النصف الآخر ، فكان فقيراً زاهداً لم يتكسب بأدبه وعلمه .

وبعد ذلك يقتضينا المقام أن نذكر أنه أول من خط للشعر العربي طريقاً جدية فلسفية خاصة به وملا شعره بأسمى المبادئ الاجتماعية والأدبية والعالية التي انفرد بها - دون سواه - من بين شعراء العربية .

يقول عنه الدكتور طه حسين : " فأبو العلاء فذ في الأدب العربي كله ، وصل من حقائق الأشياء إلى ما لم يصل إليه أديب عربي قبله أو بعده " .

بل إنه يعد أحد الرواد العالميين القلائل فيقول : " فأبو العلاء فذ يعد من هذه القلة الضئيلة التي يمتاز بها الأدب العالمي الرفيع على اختلاف العصور وتباين أجيال الناس وتفاوت ظروف هذه الأجيال من الحضارة ورقى الشعور . فإذا فخر الأدب اليوناني القديم بأبيقور ، وإذا فخر الأدب اللاتيني القديم

بلوكريس ، وإذا فخرت الحضارة الأوربية الحديثة بأدبائها وفلاسفتها المتشائمين ، فمن حق الأدب العربي أن يفخر بأبي العلاء .

ثم يتناول صفاته العلمية فيقول : " فقد كان أبو العلاء فيلسوفاً عميق الفسفة صادق النظر في أمور الحياة والأحياء ، وكان أبو العلاء شاعراً رفيع الشعر نقيه خلابه يبلغ به من الروعة الهائلة في كثير من الأحيان ما لم يبلغه الفحول من شعراء العربية في قديمها وحديثها ، وكان أبو العلاء أديباً ، وعي من الأدب ما لا نعرف أن أحداً من أدباء العرب وعي مثله . وكان أبو العلاء صاحب خيال نفاذ ، يصعد إلى أرقى ما يستطيع الخيال أن يبلغ وينفذ إلى أعمق ما يستطيع الخيال أن ينفذ إليه ^(١) .

وقبل شهادة طه حسين هذه ، فقد بلغ أبو العلاء منزلة رفيعة بين مرديه آنذاك وإمارة ذلك أن وقف على قبره نيف وثمانون شاعراً يرثونه بعيد وفاته ، فكان بلاغ قولهم مطلع قصيدة لأحدهم - أبي الفتح الحسن بن عبد الله بن حصينة - حيث يقول :

العلم بعد أبي العلاء مضيع

والأرض خالية الجوانب بلقع

هذا مثل من أمثلة الإعجاب الذي اتفق عليه أولئك الشعراء ، وكانوا فيه ترجماناً لمئات أو ألوف المعجبين ، لم ينظموا الرثاء ، ولم يقفوا على ثراه . ^(٢) وكانت وفاته يوم العاشر من ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربعمائة هجرية ، عن عمر نيف على الثمانين عاماً .

١- صوت أبي العلاء ص ٦ ، ٧ دار المعارف .

٢- أنظر رجعه أبو العلاء - ص ٤ ، عباس محمود العقاد .

أثاره :

كان لأبي العلاء مؤلفات عديدة . لكن أكثرها قد فقد لسوء الحظ . ولم يبق للمكتبة العربية منها إلا ديوان سقط الزند ويحتوي شعره في عهد الشباب - وليس فيه إلا بضع قصائد بلغت الذروة في الإجابة ، أما الباقي فأكثره . متكلف أفسدته المبالغات والتقليد . وقد اعترف بذلك في مقدمته لهذا الكتاب .

ومن أثاره كذلك كتاب اللزوميات ، ويعد من أنفس الدواوين العربية ويحتوي على منهجه الفلسفي في الشعر على الرغم من هذا القيد الذي أخذ به نفسه وهو مضاعفة القافية ، وله كذلك ديوان الدرعيات ، واعتني فيه بوصف الدرور وله رسائله التي طبعها مرجليوث ، ورسالتا الغفران والملائكة . وكتاب الأيك والغصون وقد بلغت أجزاءه أكثر من مائة جزء وعلى الرغم من ذلك فقد فُقد كله .

هذا وقد كان أبو العلاء محباً للأدب (شعره ونثره) وكان له في كل منهما بعض المأثور . ومن أشعاره في فلسفته عن الموت يقول :

يـمـوت قـوم و راء قـوم

ويثبـت الأول العزيمـز

كـم هـلـكـت غـادـة وكـعـاب

وعـمـرت أمـها العـجـوز

أحـرـزها الولـدان خـوفـاً

والقـبر حـرز لها حـريـز

يـجـوز أن تـبـطـيء المنايا

والخـلد في الدهـر لا يـجـوز

ومن اشعاره كذلك :

أولو الفضل في أوطانها غرباء
تشذ وتتأى عنهم القرباء
فما سببوا الراح الكميّة للذة
ولا كان منهم للخراد سبباء
وحسب الفتى من ذلة العيش أنه
يروح بأدنى القوت وهو حباء

التعريف برسالة الغفران :

رسالة الغفران هي عمل أدبي رائع غاية في الدقة والإبداع والخيال السامق. كما أنها آية في البلاغة والفصاحة اللفظية ، وآية للتفكير العربي ، وآية الخيال العربي ، وآية السخرية العربية .

وهي في مضمونها ، تصور مقابلة الشاعر لبعض الأشخاص في العالم الآخر ممن نعموا بالغفران أو حرموا منه - في تصويره وخياله - وفيها يناقش كل واحد منهم فيسأل أصحاب الفريق الناجي " بم غفرلك ؟ فيجيب كل واحد منهم بما نجاه من العذاب ، ويشرح له السبب في دخوله الفردوس ، ويصف له كيف يتمتع به ، كما يسأل بعض أفراد الفريق الثاني ممن حقت عليهم اللعنة وكتب عليهم الشقاء في تصويره " لم يغفرلك قولك كذا ؟ فيجيبه أكثرهم عن السبب ، ويشرحون له ما يقاسون من ألم وعذاب ، ويصمت بعضهم لانشغالهم بما هم فيه من نكال وغصص.

وهذا معناه أن الرسالة تقوم على الحوارات التي تجري في عالم الآخرة . كما يتمثلها ويصدرها خيال الشاعر أو الأديب ، ومما دفعه إلى كتابة هذا العمل أنها جاءت رداً على رسالة ابن القارح ، وهو على ابن منصور " الملقب بدوخلة ، والمشهور بابن القارح وكان قد أرسلها إلى أبي العلاء طالباً الرد عليها ، وهذا ما دفعه إلى هذا الإبداع الأدبي لذا فقد أثنى أبو العلاء على رسالة ابن القارح وأطرى كلماتها لكي يتوصل إلى غايته التي رمى إليها من إبداع رسالته ، فقد تمثل أبو العلاء الملائكة ترفع كلمات رسالة ابن القارح إلى السماء متخذاً من قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ... ﴾^(١)

وسيلة إلى تمثل الأشجار وقد غرست في جنة الفردوس ، بعدد كلمات رسالة ابن القارح لأنها جميعها مما ينطبق عليه معنى الآية الكريمة .

وقد استدعى ذكر أشجار الجنة ذكر أنهارها وما فيها من خمر ، وتنزه ابن القارح فيها وتمتعه بنعيمها وتعرفه بأهلها ، ثم جره ذلك إلى وصف دخوله الجنة مع من غفر لهم وعلى الوجه المقابل ذكر أهل النار وزيارته لهم وسؤالهم عما جرهم إلى هذا المصير المؤلم ، وهكذا تسير الرسالة في هذا المضمون .

وفي تعريفها ووصفها يقول الكاتب محمد فريد وجدي : " إن أجمل ما كتبه - أي أبو العلاء - وأجمعه لأرائه في الدين والعلم والأخلاق وفي أساليب الشعر وفنونه ، ورجاله وعيونه ، آيته الموسومة برسالة الغفران ، فقد صورت من نفسه ما لم يصوره شعره للدهاء ففي الشعر حوائل من الأوزان والقوافي ، لكن النثر - لخلوه من هذه الحوائل - تتجلى فيه روح صاحبه بأحلى مظاهرها ... "

١- سورة إبراهيم : من الآية ٢٤ ، ٢٥ .

" من رسالة الغفران "

يقول أبو العلاء المعري في وصف رسالة ابن القارح :

وصلت الرسالة ^(١) التي بحرها بالحكم مسجور ^(٢) ومن قرأها لاشك
 مأجور ^(٣) إذ كانت تأمر بتقبل الشرع ^(٤) وتعييب من ترك أصلاً إلى فرع ، وغرقت
 في أمواج بدعها الزخرة ، وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة ، ومثلها من شفع
 ونفع وقرب عند الله ، وفي قدرة ربنا - جلّت عظمته - أن يجعل كل حرف منها
 شبح نور لا يمتزج بمقال الزور ، ولعله - سبحانه - قد نصب لسطورها المنجية من
 اللهب ، معاريج ^(٥) من الفضة أو الذهب ، تعرج بها الملائكة من الأرض الراكدة
 إلى السماء بدليل الآية :

﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ...﴾ ^(٦)

وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
 وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٠﴾ تُوْتِي أ كُلَّهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا..﴾ ^(٧)
 وفي تلك السطور كلم كثير ، كله عند الباريء - تقدس - أثير. ^(٨)

١- يعني رسالة ابن القارح .

٢- مملوء .

٣- مثاب .

٤- التزامه أو العمل على إتباعه والتمسك به .

٥- جمع معراج وهو السلم أو المصعد (بكسر الميم وفتحها) .

٦- سورة فاطر : من الآية ١٠ .

٧- سورة إبراهيم : من الآية ٢٤ ، ٢٥ .

٨- ماثور : محبوب .

ويقول في وصف الفروس :

وقد عرس لولاي الشيخ الجليل إن شاء الله - بذلك الثناء - شجر في الجنة
لذيذ إجتناء ، كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظل غاط (١)
والولدان المخلدون في ظلال تلك الشجرة قيام وعود ، يقولون - والله القادر على
كل شيء عزيز " نحن وهذه الشجرة صلة من الله لعلي ابن منصور (٢) فخبأ له إلى
نفخ الصور وتجري في أصول ذلك الشجرة أنهار تختلج (٣) من ماء الحيوان (٤)
والكوثر يمدها في كل أوان ، من شرب منها النغمة (٥) فلا موت ، قد أمن هنالك
الفوت (٦) وسعد من اللبن متخرفات لا تغير بأن تطول الأوقات ، وجعافر (٧) من
الريحق (٨) المختوم كما قال علقمة (٩) :

تشفي الصداع ولا يؤذيه صاليها

ولا يخالط منها الرأس تدويم (١٠)

ويعمد إليها المغترف بكؤوس من العسجد (١١) وأباريق خلقت من الزبرجد ،

لوراها أبو زيد (١٢) لعلم أنه ما تشبب بخير ، وهزيء بقوله :

١- ظليل .

٢- هو ابن القارح .

٣- تنتزع ، تحركه ، تطير .

٤- الحياة .

٥- النغمة : الجرعة .

٦- الضياع

٧- أنهار كبيرة .

٨- أطيب وأفضل أنواع الخمر .

٩- علقمة الفحل توفي سنة ٥٦١ شاعر جاهلي عمر طويلا اسمه علقمة ، وكنيته ابن عبده ، ولقبه الفحل ، وموطنه

نجد، وعشيرته تميم - وهو من ساداتها .

١٠- لا يخامر . تدويم : الدوار يعقب السكر .

١١- الذهب .

١٢- أبو زيد لعله يعني أبا زيد الأنصاري المتوفي سنة ٢١٥هـ الثقة في النحو واللغة ، وإمام كثير من علماء البصرة ،

ومؤلف كتاب النوادر في اللغة المطبوع في بيروت سنة ١٨٩٤ ، وكتاب القوس والترس ، وكتاب (الإبل) وكتاب

(خلق الإنسان) وكتاب (المطر) وكتاب (المياه) وكتاب (بيوتات العرب) وكتب أخرى .

وأباريق ، مثل أعناق طير الـ

ماء قد جيب فوقهن خفيف^(١)

ولو نظر إليها علقمة لبرق^(٢) وفرق^(٣) وعلم أنه قد طرق^(٤) ، ما ابن عبدة^(٥)

وما فريقه ؟ قد خسر ، وكسر إريقه . نظرة إلى تلك الأباريق خير من نبت الكرمة العاجلية ومن كل ريق ضمنته هذه الدار الخادعة .

ولوبصر بها عدي بن زيد^(٦) لشغل عن المدام والصيد واعتراف بأن أباريق

مدامه أمرهين لا يعدل بنا بيت من حمصيص^(٧) أو ما حقر من خربصيص^(٨)

فأما الأقتشير السعدي^(٩) فإنه قال - ولعله - سيندم :-

أفنى تلادي وما جمعت من نشب

قرع القوايز أفواه الأباريق^(١٠)

ما هو وما شرابه ؟ تقضت في الخائنة آرا به ! لوعاين تلك الأباريق لأيقن

أنه فتن بالغرور وسر بغير موجب للسرور ، وكم على تلك الأنهار من آنية زيرجد

وياقوت بين أصفر وأحمر وأزرق يخال أن لس أحرق ، كما قال الصنبوري :

١- جيب : شق لولد ، خفيف : ثوب غليظ أبيض من الكتان .

٢- برق : تحير . وهش .

٣- فرق : اشتد فزعه .

٤- طرق : ضعف عقله .

٥- كنيته علقمة الفحل .

٦- عدي بن زيد العبادي شاعر جاهلي نصراني . قبيلته تميم ، وموطنه الحيرة دخل الأرياف فنقل لسانه .

٧- بقلة رملية حامضة .

٨- نبات له حب يتخذ منه طعام والفرض هنا التحقير .

٩- الأقتشير كنيته أبو معرض . موطنه الكوفة ، كان أحمر الوجه فسمي الأقتشير ، وكان خليعا ماجنا سكيما ، وهجاء متقعا . يغضب إذا قيل له " يا أقتشير " .

١٠- تلادي : قديمي ، نشب : مال ، القوايز : جمع قازوزه وهي قدح الشرب - والمعنى أذهب ثروتني قديمها وحديثها - إيماني معافر الخمر .

تخليله ساطعاً وهجاً

فتأبى الذنو إلى وهجه

وفي تلك الأنهار أوان على هيئة الطير السابحة^(١) والغانية عن السائحة^(٢) فمنها ما هو على صور الكراكي وآخر تشاكل المكاكي ، وعلى خلق طواويس وبط ، فبعض في الجارية وبعض في الشط ، ينبع من أفواها شراب كأنه من الرقة السراب ، لوجرع منه جرعة الحكمي^(٣) يحكم بأنه الفوز ، وشهد له كل وصاف للخمر - من محدث وعتيق أن أصناف الأشربة المنسوبة إلى الدار الفانية كخمر عانه وأذرعات وغزو بيت رأس ، وجلب من بصرى وما اعتصر بصرخة أو أرض شام . ويعارض تلك المدامة أنهار من غسل مصفى ما كسبته ، النحل الغادية إلى الأنوار ، ولا هو في موم^(٤) متوار . ولكن قال له العزيز القادر " كن " فكان واهأ لذلك عسلاً لوجعله الشارب المحرور غداءه طول الأبد ما قدر له عارض موم^(٥) ولا لبس ثوب المحموم وذلك كله بدليل الآية :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾^(٦)

١- المانية .

٢- البرية .

٣- الحكمي : هو الحسن بن هانيء الحكمي ويكنى أبا نواس ١٤٥-١٩٩ هـ . ولد بالأهواز ونشأ بالبصرة ثم انتقل إلى بغداد وهو في الثلاثين من عمره وهناك طار صيته ، وتصل بالرشيد ثم بابنه المأمون .

٤- موم : شمع .

٥- موم مرض شديد الوطأة

٦- سورة محمد : من الآية ١٥

ولو خالط من ^(١) عسل الجنان وما خلقه الله سبحانه في هذه الدار
الخادعة كالصاب والمقز ^(٢) لعدم اللذائذ المرتقيات .

فأما الأنهار الخمرية فتلعب فيها أسماك هي على صور السمك بحرية
ونهرية ، فإذا أمد المؤمن يده إلى واحدة من ذلك السمك شرب من فيها عذباً
لوقعت الجرعة منه في البحر - الذي لا يستطيع ماءه الشارب لعلت منه أسافل
وغوارب ^(٣)

١- المن كل ظل ينزل من السماء على شجر أو حجر ويطلو وينعقد عسلاً ويجف جفاف الصمغ ، والمن كيل أو ميزان
يبلغ رطلين وقيل المن شرعا مائة وثمانون مثقالاً ، وعرفا مانتان وثمانون أو المقصود مكيل صغير .
٢- المقز : المر .
٣- المغارب هو الكاهل أو ما بين السنام إلى العنق والمقصود به هنا سطح البحر .

تحليل وتعليق

تناول أبو العلاء في رسالته موضوعاً مهماً في حياة البشرية وبخاصة المؤمنين الذين يأملون من الله المغفرة والرضوان ، يوم القيامة ، والفوز بجنات الفردوس بما فيها من نعيم مقيم لا يقطع ولا يمنح.

وقد عالج أبو العلاء هذه القضية علاجاً ينم عن اقتداره ويشهد على اتساع ثقافته واتقاده ذهنه ، ونبوغه الفطري السليم ، ويكشف عن مدى تعلقه بالدار الآخرة وعزوفه عن الدنيا وبغضه لها .

والحق أنه بدأ رسالته بوصف رسالة ابن القارح التي كانت باعثاً حقيقياً له في كتابة هذه الرسالة الموسومة " برسالة الغفران " فبين أنها أي رسالة ابن القارح مملوءة بالدرر واللالأ ، إذ إنها تأمر بالإقبال على الشرع والتمسك بأدابه وتعاليمه السمحة كما أنها تعيب الذين يناون بأنفسهم عن نور الهداية والحق ، ومن منطلق قول الله تعالى :

﴿ ... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ... ﴾^(١)

وقوله جلت قدرته :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١١﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا.. ﴾^(٢)

من منطلق هذا القول الكريم ، تخيل الكاتب أن هذه الرسالة بما تشتمل عليه من معان قيمة وحكم بالغة ، قد رفعتها الملائكة على سلم من ذهب وفضة لتستقر عند الله جلت عظمته .

١- سورة فاطر: من الآية ١٠ .
٢- سورة إبراهيم : من الآية ٢٤ ، ٢٥ .

ثم انتقل الكاتب إلى ما يرغب به نفس المؤمن ، ويحفزه إلى عمل الصالحات والاجتهاد في طاعة ربه ، لينال الدرجات العلا وجنات الفردوس التي فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فوصف الفردوس وما فيها متخذاً من القرآن والسنة دليلاً على صدق ما يقول ففي الفردوس أنهار الخمر وأنهار اللبن ، وأنهار العسل المصفي وأنهار تجري فيها مياه رائقة عذبة من شرب منها جرعة يأمن من الضياع والموت .

ويتطرق الكاتب إلى وصف أواني الجنة من الكؤوس الذهبية والأباريق الفضية والزبرجدية وهي أواني لا تضاهيها أواني الدنيا ولو كانت على قدر من الأبهة والعظمة .

وقد استعان الكاتب على إيراد هذه الأوصاف بعدة طرق فنية منها :

☞ أنه أعتمد في إيراد هذه الأوصاف على ثقافته الإسلامية التي استقاها من القرآن الكريم والسنة النبوية ، مما يدل على أن الكاتب كان ذا ثقافة إسلامية ملمة بالقرآن والسنة فيما يتعلق بوصف الجنة ونعيمها . ومظهر ذلك الآيات القرآنية التي أوردها في ثنايا الرسالة مثل قوله تعالى في وصف الكلام الطيب والعمل الصالح وجزائه :

﴿...إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ...﴾^(١)

وفي وصف الجنة وما فيها من نعيم للمتقين يورد الكاتب .

قول الله تعالى :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّرِيبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُصَفًى وَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾^(١)

هذا بالإضافة إلى الألفاظ الموحية المعبرة عما يتحدث عنه في وصف الجنة وأهلها مثل : الكوثر، الرحيق المختوم - كووس طير، أباريق - آنية - ياقوت - خمر - نخيل - ثمرات - وكلها كلمات تتناسب مع وصف الجنة التي أعدها الله للذين من عليهم بالمغفرة .

ومن طرائق التعبير كذلك والتي دلت على ثقافته العربية بالإضافة إلى ثقافته الإسلامية ما أورده الكاتب من أسماء لفحول الشعراء في العصر الجاهلي وما تلاه من عصور مثل علقمة الفحل في العصر الجاهلي ، وعدي بن زيد ، ومن شعراء عصره أبونواس ، وجاء ذكرهم في معرض أنهم لو علموا حقائق ما أعد الله للمؤمنين من النعيم لأقلعوا عن غيهم .

كما كان من طرائق تعبيره أنه استخدم السجع الذي جاء بمثابة جرس موسيقي أعطي للرسالة رونقاً وبهاءً وإن جاء في بعض الأحيان متكلفاً متصنعاً . هذا بالإضافة إلى بعض الألفاظ الغريبة التي لا يستطيع فهمها مثل القوازيز ، خربصيص خمصيص - جعافر - موم إلى غير ذلك من الكلمات التي يندر استعمالها ، كما أطلال في سرد عبارات غامضة أو ضرب أمثال شارده أو ذكر ما لا يعني إلا العربي القح في ذلك العهد .

١- سورة محمد : من الآية ١٥ .

كما استطاع الكاتب في هذه الرسالة أن يوظف خياله توظيفاً رائعاً، انفرد به انفراداً تاماً، وبخاصة في هذا الفن النثري، فلم يسبق إلى هذا الأسلوب الفني الذي يعتمد على الخيال وحسن الفهم، مما أعطي لها الصبغة الفنية التي خلقتها في سجل الفن الأصيل.

والناظر في هذا النص يجد فيه من الوحدة والتمازج ما يبعث على الإعجاب بعقلية هذا الكاتب وموهبته الفذة، وقدرته الفنية، التي أسهمت في صياغة هذا الفكر والتعبير عن ذلك الخيال المبهر، في قالب فني رائع علا سجعه وانسجم نظمه وكثرت غرائبه وأوحت كلماته، وسلمت معانيه.

كما تمثل الرسالة تقدم النثر ورقبه في العصر العباسي ومدى ما وصل إليه من ازدهار وتطور على يد هذا الكاتب الذي تأثر بعلمه وهذا بعض الكتاب العالمين في بعض أعمالهم الإبداعية مثل تأثر "دانت" في الكوميديا الإلهية.

نونية العقاد

يقول العقاد في سبب نظم هذه القصيدة : " كنا نقرأ أنا وصديقي الشعاران النابغان " المازني " و " على شوقي " قصيدة " ابن الرومي " النونية التي يمدح بها " أبا الصقر " فلما فرغنا من تلاوتها وقضينا حق إطرائها ونقدنا خطر لنا أن يعارضها كل منا بقصيدة من بحرهما وقافيتها فنظم المازني قصيدته في مناجاة الهاجر ، ونظم " شوقي " قصيدة في هذا المعنى ، ونظمت أنا هذه القصيدة . فأهديتها إلى روح " ابن الرومي " وفيها يقول العقاد :

يُهْنِيكَ يَا زَهْرُ أَطْيَارٍ وَأَفْنَانِ
 الطَّيْرُ يَنْشُدُ وَالْأَفْنَانُ عِيدَانُ
 طُوبَاكَ لَسْتُ بِإِنْسَانٍ فَتَشْبِهْنِي
 إِنِّي ظَمِنْتُ وَأَنْتَ الْيَوْمَ رِيَانُ
 هَذَا الرَّبِيعُ تَجَلَّى فِي مَوَاكِبِهِ
 وَهَكَذَا الدَّهْرُ أَنْ بَعْدَهَا أَنْ
 تَفْتَحَتْ عَنْهُ أَكْمَامُ السَّمَاءِ رِضَى
 وَزَفَهُ مِنْ نَعِيمِ الْخَلْدِ رِضْوَانُ
 وَشَائِعُ النُّورِ فِي الْبُسْتَانِ بِاسْمَةٍ
 وَالْأَرْضُ حَالِيَةً ، وَالْمَاءُ جَذْلَانُ
 الشَّمْسُ تَضْحَكُ وَالْأَفَاقُ صَافِيَةً
 جَلَّوَاءُ وَالرَّوْضُ بِالْأَثْمَارِ فَيِّنَانُ

وللنسيم خُفوقاً في جوانبه
 وللطيور تـرانيـمَ وألحان
 في كل روضِ قُرى للزهر يغمرها
 يا حبذا هي أبيات وسُكـان
 مُستأنسات سرى ما بينها عبق
 كما ترأسل بالأشواق حبان
 الوردُ يحمـرُ عُجْباً في كَمائمه
 والياسمينُ على الأغصان ميسان
 وللقرنفل أثواب ينوعها
 عن البلور صناع الكف رِقان
 وللبنفسج أمساح ممسكة
 كأنه رَاهِبٌ في الدّير
 وحبذا زفرُ الليمونِ يُسكـرنا
 منهن جَامٌ خَلا من مثله ألحان
 والليل يُحييه والأطيـارُ هاجعة
 بلايل وشخارير وكـروان
 مؤذن الطير يذغو فيه محتسباً
 فيستجيبُ له برُّ وغيان
 والصبحُ في حُللِ الأنوارِ طرزه
 في الشرق والغربِ أسحارَ وأصـلان

كأنما الأرضُ في الفردوسِ سَابِحةٌ
 يحدُّو خُطَاهَا مِنَ الْأَمْلاكِ رَبَّانُ
 ضَاقَ الْفَضَاءُ بِمَا يَحْوِيهِ مِنْ فَرَحٍ
 فَكَلَّ مَا فِي فَضَاءِ اللَّهِ فَرَحَانُ
 إِلَّا الْمَحِبَّ الَّذِي لَا حُبَّهُ دَنَسٌ
 وَلَا مَوْتُهُ خِيبٌ وَإِذْهَانُ
 نَقَاهُ عَنِ غُرْسِ الثُّنْبِيَا شَوَاغِلُهُ
 إِنَّ الْحِدَادَ عَنِ الْأَعْرَاسِ شُغْلَانُ
 * * *
 مَا لِلطَّبِيعَةِ تَجَلَّو حَقْلَ زَيْنَتِهَا
 حَتَّى لِكَأَثْرِ مِنْهَا اللَّمَحَ أَلْوَانُ
 كَأَنَّمَا مَرْنَتْ مِنْ طُولِ مَا صَنَعَتْ
 فَلَيْسَ يُخْطِئُهَا فِي الصَّنْعِ إِتْقَانُ
 رُحْمَاكَ يَا رَبِّ إِنَّ النَّاسَ قَدْ غَلَبُوا
 عَلَى الْوَقَارِ ، وَلِلْأَهْوَاءِ شَيْطَانُ
 لَقَدْ عَلِمْتَ بَأَنَّا لَا قَرَارَ لَنَا
 مَعَ الْجَمَالِ ، وَأَنَّ الصَّبْرَ وَهْنَانُ
 فَمَا لَنَا كَلَّمَا دَارَتْ نَوَاطِرُنَا
 مُدَّتْ إِلَيْهِمْ أَوْهَاقٌ وَأَشْطَانُ
 مِنْ كُلِّ أَلْقَاهِ بِالْحَسَنِ طَلَعْنَهُ
 مُسْتَمْلِحَ التِّيهِ ، يَعْطُو وَهُوَ خَجْلَانُ

تَنصَاحُ طَرَّتَهُ عَنِ صُبْحِ غَرَّتِهِ
فَيَفْضُحُ الصُّبْحُ وَجَةَ مِنْهُ ضَحْيَانُ
إِذَا النَّهَارُ تَجَلَّى مِنْ أَسْرَتِهِ
صَحَّتْ قُلُوبٌ تَحِيْبُهُ وَأَجْفَانُ
تَرْنَحُ اللَّيْنُ فِي عِطْفِيهِ وَأَتَسَقَّتْ
فِيهِ الْحَلْيُ ، فَهُوَ لِلأَبْصَارِ مِيدَانُ
وَيَسْتَهْلُ بِرَوْضِ مَنْ مَلَاحَتِهِ
كَمَا اسْتَهْلُ بِرَوْضِ الزَّهْرِ نَيْسَانُ
بِالْغَصْنِ شَبِيهَةٌ مِنْ لَيْسَ يَعْرِفُهُ
وَإِنَّمَا هُوَ لِلرَّائِيْنَ بُسْتَانُ
وَهَلْ نَمَاظُ فِي غَصْنِ عَلَى شَجَرِ
أَسْ وَوَرْدٌ وَنَسْرِيْنَ وَسَوَسَانُ

* * *

يَا مَنْ يَرَانِي غَرِيْقًا فِي مَحَبَّتِهِ
وَجَدًا ، وَيَسْأَلْنِي هَلْ أَنْتَ غَصَانُ
وَاضْبِعَةَ الْحُبِّ أَبْدِيَةَ وَأَكْتَمَهُ
وَمَنْ عُنَيْتُ بِهِ عَنْ ذَلِكَ غَفْلَانُ
لِي فِي مَدِيْحِكَ أَشْعَارًا أَضُنُّ بِهَا
عَلَى امْرِيءٍ فَخْرُهُ عَرْشٌ وَابْوَانُ
عَلَى مَحْيَاكَ مِنْ وَشَى الصَّبَا رَوْعُ
وَلِلْمُحْبِبِيْنَ أَحْدَاقٌ وَأَغْيَانُ

فَقِيم تَعَدَّلُهُمْ إِنْ رَاحَ نَاطِرُهُمْ
 بِحُسْنِ وَجْهِكَ يَهْدِي وَهُوَ وَلِهَانُ
 مَا الْحُسْنُ ذَنْبًا ، فَمَا لِلْحُبِّ تَحْسِبُهُ
 ذَنْبًا مِنَ النَّاسِ لَا يَخُوهُ غُفْرَانُ
 هَمَا شَقِيقَانِ فَارْفُقْ أَنْ تَحِيلَهُمَا
 ضِدَّيْنِ بَيْنَهُمَا نَأَى وَهَجْرَانُ
 مِنْ عِلْمِ النَّاسِ أَنْ الْحُبُّ مَائِمَةٌ
 حَتَّى كَأَنَّ لَيْسَ غَيْرَ الْبُغْضِ إِحْسَانُ
 فِيهَا جَنَابَةٌ جَانٌ أَنْتِ أَيْمُهُمَا
 مَا كَانَ يُعْصَمُ لَا إِتْسَانٌ وَلَا جَانُ
 إِنْ الْجِسْمُ مِثْلُ مِثْلَةِ جَوَارِحِهَا
 إِلَّا الْقُلُوبُ فَصَيِّغَتْ وَهِيَ أَخْدَانُ
 لِكُلِّ قَلْبٍ قَرِينٌ يُسْتَتَمُّ بِهِ
 خَلَقَ وَخَلَقَ فَهَلْ يُرْضِيكَ نَقْصَانُ
 إِنْ التَّعَاطُفُ بِالْأَرْوَاحِ بُغْيَتُنَا
 وَفِي الْوُجُوهِ عَلَى الْأَرْوَاحِ عِنْوَانُ
 تَمَتَّلِكِ الصَّخْرَ أَخْطَى مِنْكَ إِنْ نَفَرْتِ
 عَنْكَ الْعَيُونُ ، وَلَمْ يَشْمَكَ وَجْدَانُ
 إِنْ لَمْ يَمُشِرْ حُبُّ الْجَمَالِ لَهُمْ
 حُبٌّ لِمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا وَمَنْ كَانُوا

ليأمن الطير أنا لا تكيد له
 ولا نخف مكرنا وحش وعقبان
 لو تسمع الورق نجوانا لكان لها
 منّا غصون نصيرات وأحضان
 أو كان يذري حيي الثبت عفتنا
 لم تغض منه بأيدينا أغصان
 أو ينظر السائم النابي طويتنا
 لم تالف القفر أرم وغزلان
 ولا اتقى الحوت شراً حين ينصرنا
 إذا وقته شباك الإنس قيعان
 يا ليت أن لنا كهفاً تعودُ به
 إن راح يفرّجها بغّي وعدوان
 ما ضرّ قانصها أن لا يكون لها
 غيرُ الفلا وحجاز الأفق قضان
 أين الحمام تشدو في أرائكها
 من الحمام يشويهن منبطان
 أو الطيور على السفود ناضجة
 من الطيور تهادهن أفنان
 لو أطلقوها كما شاعت لكان لهم
 منها قيان كما شاؤا وندمان

* * *

هل يعرف البيض أن الحسن جزهرة
 لها الثراء ، ثراء النفس ، أثمان
 يفتو نفائسه من لا يسومه
 وقد يعز على اللال قديان
 يا جوهرأبت أرعاه على أمم
 رعى الشيخ ، ومالي فيه سلطان
 ما في يدي منه لا عين ولا أثر
 ولى عليه مغاليق وأعيان
 قد نلت ما نلت من حظ به غرضاً
 وقد تولى ، فحظى منه فقدان
 إني إلى الرعى من عيبك مفتقر
 يا ضوء قلبي ، فإن القلب مدجان
 من لي بمهدك ترعاني لواحظة
 ورب مستقبض يرعاه نغسان
 لو أستطيع لوقاه وظلالة
 قلب تمام الدارارى ، وهو جولان
 أبيت أزجي إليه كل ضاحكة
 من الأماني يوجهين فتان
 أزجي عرائس أحلام تيممة
 في زبرج بالحياء الغض يزدان

تَمْضِي بِهِ بَيْنَ جَنَاتٍ مَزْخَرَفَةٍ
 فِيهِنَّ حُورٌ وَأَمْلَاكٌ وَوَلِدَانُ
 وَسَاجِعَاتٌ نَاعِيَةٌ عَلَى كَثَبٍ
 حَتَّى يُنْبِئَهُ مِنْهُنَّ إِرْتِنَانُ
 إِذَا تَنَقَّلَ أَوْ أَسْرَى فَمَبْهُطُهُ
 مِنْ خَالِصِ الْعَسْجِدِ الْوَهَّاجِ أَفْدَانُ
 مَسْتَمْرِي طَيِّبَ مَجْنَاهَا وَبَهْجَتِهَا
 قَلْبَ غَرِيْزٍ وَلَحْظَ مَنْهُ سَكْرَانُ
 وَبَاتَ لِلْقَلْبِ فِي جَنَحِ الظَّلَامِ إِلَى
 نَبِيْبِ أَخْلَامِهِ صَغُوْ وَارْغَانُ
 حَسْبِي السَّهَادُ إِذَا مَا بَيْتَ أَنْكَرُهُ
 وَطَرْفُهُ الْأَكْحَلِ الْوَسْنَانُ وَسْنَانُ
 إِنِّي لِأَغْنَمُ وَصَلَا فِي تَمْنِعِهِ
 وَعَظْفِهِ ، وَكَلَا الْوَصْلَيْنِ مِفْتَاحَانُ

* * *

مَا ضَرَّ مِنْ نَالٍ فِي حِينِ سَعَادَتِهِ
 إِنْ فَاتَهُ فِي طَوِيلِ الدَّهْرِ أَخِيَانُ
 إِذَا جَنَيْتَ مِنَ الْأَيَّامِ زَهْرَتَهَا
 فَاقْنَعْ فَسَائِرُهَا شَوْكٌ وَعَبْدَانُ
 وَلَا وَرِيكَ مَا بِالنَّفْسِ مَقْتَنَعُ
 أَكَانَ نُجَحَّ لَهَا أَمْ كَانَ حَرْمَانُ

فإن رَوَيْنَا ، فبعضُ الرِّيِّ مَظْمَأَةٌ
 وأن ظَمِينًا ، فَمَا يَرْتَاخُ ظَمَانُ
 أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحْمَى لَهْفَةً وَوَجِيَّ ؟
 من ذَاقَ أو لَمْ يَنْقُ ، فَالْكَلُّ لَهْفَانُ
 يَا لَيْلَةَ حُطِمْتَ أَنْوَالُ حَائِكِهَا
 فَلَا يُحَاكُ لَهَا فِي الدَّهْرِ تَثِيَانُ
 العَيْشُ مِنْ قَبْلِهَا شَوْقٌ نَعِمْتُ بِهِ
 والعَيْشُ مِنْ بَعْدِهَا ذِكْرٌ وَتَحْنَانُ
 طَالَتْ وَلَا غُرُو فَالْجَنَاتُ خَالِدَةٌ
 وَفِي الوِصَالِ مِنَ الْجَنَاتِ أَلْوَانُ
 أَصْبَحْتُ وَاللهِ لَا أَنْزِي لِتَبَهَّجَتِهَا
 أَلَيْلَةَ سَلَفَتْ أَمْ تِلْكَ أَرْمَانُ
 وَكَيْفَ لَا وَهِيَ شَطْرٌ حِينَ أَحْسَبُهَا
 والعَمْرُ شَطْرٌ ، وَفِيهَا عَنْهُ رَجَّحَانُ
 لَقَدْ سَقَانَا الهَوَى خَمْرًا مَعْتَقَةً
 صَبَابِهَا قَبْلَنَا شَيْبٌ وَشَبَانُ
 هِيَهَاتَ لَا تَبْلُغُ الصَّهْبَاءُ نَشْوَتَهَا
 وَلَوْ تَنَاولَ مِنْهَا وَرَاءَ الْبَحْرِ نَشْوَانُ
 فَاضِرُ الهَيْامِ عَلَى قَلْبِي فَفَاضَ بِهِ
 نَبِغٌ لَهُ وَرَاءَ الدَّمْعِ شَطَّانُ

وددتُ والذَّمعُ في عيني محتجزُ
 لو سأل منه على خدي غدرانُ
 أمسيتُ أرشفُ شهداً من مرأشفه
 والسلسبيلُ بعليين غيرانُ
 والنيلُ تجرى له في كل ناحية
 جداولٌ لؤلؤياتٌ وثقبانُ
 يقودنا حيث شاء الموجُ واطردتُ
 أمواهةً ، فكان الفلكُ وسنانُ
 حتى تصرمَ جناح الليلِ وانبتقتُ
 من كل مطلعٍ للصبحِ عمدانُ
 فما أفتقنا وعين الصُّبحِ شارقة
 وما هججنا وغول الليلِ سهزانُ
 بنا سوى الشمسِ والشهبانِ نرصدها
 شمس أنس مضيئاتٍ وشهبانُ
 سمعتُ أعذب ما يفتر عنه فمُ
 من الحديدِ وما ساغته أذانُ
 فصاحةً لثمتُ رُوحِي بها شفةً
 لو ذاقها النحلُ لم يَمرأه رِيحانُ
 أنفي لرينِ النهي من كل ما نقشتُ
 على الصخائفِ أعرابُ ويونانُ

تهتزُّ بين طَوَايا النَّفْسِ نَبْرَتُهَا
 كَمَا يَمُوجُ لُضُوءُ الشَّمْسِ خَيْطَانُ
 ذر الدساتين تحدو وهي ضاربة
 من ليس تحدوه أشواق وأحزان
 وأطرب لصوت تعالي أن يحاكيه
 حاك ، وتُعرب عن فخواه أفنان
 ما أنشد الناس إلا كي تذكرهم
 صوت الحبيب أناشيده وألحان
 ولا تعلم وزن القول شاعرهم
 إلا وكان له بالنبض ميزان
 يا ألمح الناس هلا كنت أكبرهم
 روحاً ، فيتقار روح وجثمان
 صدقت باطل ما قالوا كأنهمو
 لا يكذبون ، أو أن العذل قرآن
 أما علمت بأن الناس السنة
 سود لها غير ما تُبديه إبطان
 أخرى مزاعمهم بالشك أسيرها
 فالحق متدد والإفك عجلان
 ورباً قولة زور قالها رجل
 منهم فطاف بها في الأرض ركيان

تداولوها فراحَت في مَذاهِبِهِمْ
شريعةً نَقَضُهَا كُفْرَ وَعِصْيَانُ
ما كَثُرَ المَثْبُتِينَ الأَمْرَ تُثْبِتُهُ
ولا بِقَلْبَتِهِم للحَقُّ إِيهَانُ
فإنَّ أَلْفَ ضَرِيرٍ لَيْسَ يَعدِلُهُمْ
بالمُنْصِرِ الفَرْدِ يَوْمَ الشُّكِّ مِيزَانُ
فاضْرِبْ بِنَعْلِكَ دَعْوَاهُمْ فَكلَهُمُو
خَوَاضَ لَيْلٍ ، وَهَمَّ فِي الصُّبْحِ عَمِيَانُ
يا وَاهِبَ اللَّيْلِ بَدْرًا هَبْ لِمُشَبِّهِهِ
بَدْرًا يَضِيءُ لَهُ وَالقَلْبُ غَيْمَانُ
أنا الغَرِيبُ ولى بَيْنَ الوَرَى رَجِمَ
بالرَّغْمِ مِنِّي ، وَأصْحَابُ وَجِيرَانُ
وَابْعَثْ لَنَا الحورَ فالإنسانُ لَيْسَ لَنَا
بخالصٍ مِنهُ أَحبابٌ وَأخْذَانُ
أو الكواكِبَ سِرْبًا بَيْنَنَا غَزْلًا
إنَّ الفِضَاءَ بِذَلِكَ السَّرْبِ مَلَانُ

أولاً : لمحات من حياة العقاد

إنه من الضروري عند دراسة أي نص أدبي ، التعرف إلى صاحبه ، والوقوف على أهم ملامح حياته ، ومظاهر بيئته ؛ حتى يمكن التعرف إلى ظروف النص وملابساته ، وإمكانية نقده نقداً صحيحاً .

و"العقاد" قد أقر هذا المبدأ أو هذه الحقيقة ، إذ رأى أن معرفة البيئة ضرورية في نقد الشعر في أي أمة وفي كل جيل ^(١) .

ومن ثم فإننا عند دراسة نونية "العقاد" أو "الحب الأول" يكون من الضروري التعرف - دون استقصاء - إلى أهم ملامح شخصية "العقاد" كي تكون الدراسة مكتملة الجوانب على الرغم من أن حياة "العقاد" وسيرته مسطورة في كتب كثيرة ، لكن الدراسة تقتضي الوقوف على أهم هذه الملامح في إجمال يعني عن التفصيل .

ففي وقت رزئت مضر بكارثة الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢م، وتعددت سوءات هذا المحتل وتعاقبت أرواؤه وخطوبه على الشعب المصري - وتدخل بريطانيا في كل أمور مصر وإخضاعها لنفوذها وسلطانها، والغائها للدستور ومجلس الشيوخ وتجريدها من كل سلطان، وتجريد الشعب من جيشه الوطني في ظل هذه الظروف وبُعيد هذا الاحتلال وتلك النكبات ولد الشاعر "عباس محمود العقاد" وبالتحديد في ٢٨ من يونية سنة ١٨٩٨ بمدينة أسوان التي تزخر بمعالم الحضارة المصرية القديمة، والتي أسهمت في تكوين وتشكيل شخصية "العقاد" وصفاته وطباعه ^(٢) .

١- انظر شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي - عباس محمود العقاد ص ٣ - نهضة مصر - الفجالة ١٩٦٣
٢- انظر مولده ونشأته في هذه الكتب : ايداع الشبان وايداع الشيوخ في دنيا الأدب ، والمقالة في أدب العقاد ومع العقاد ، والمفكرون والسياسة في مصر المعاصرة ، وأبناء في صور صحفية . وشاعرية العقاد في ميزان النقد ، وجماليات القصيدة المعاصرة ، ومجلة الهلال عدد أبريل ١٩٧٦ والعقاد الرجل والقلم . إلى غير ذلك من الكتب

وفي هذه المدينة حصل العقاد على الشهادة الابتدائية ، التي لم يتجاوزها في تعليمه الرسمي ، وأصبح أستاذاً لنفسه في مراحل حياته المختلفة ، فاستطاع أن يتقن اللغة العربية إتقاناً ساعده على قراءة عيون التراث العربي الأدبي والديني واللغوي ثم تمكن من اللغة الإنجليزية التي كان يتلقى بها دروسه في المدرسة (١) الأمر الذي أتاح له - فيما بعد - قراءة أصول الثقافات الغربية والنظريات الأدبية والفلسفية وساعده ذلك في الاطلاع على أعمال بعض الكتاب والشعراء العالميين أمثال "كارليل" و "هازلت" و "لي هنت" و "أرنولد" هذا بالإضافة على عمله بالصحافة ومشاركته في الحياة السياسية والأدبية - بعد انتقاله إلى القاهرة - وقد غلبت عليه في كل ذلك النزعة النقدية .

كما أنه كان في بواكيره الأدبية ينظم الشعر الوصفي والعاطفي ، ولم يتجه في شعره إلى المدح وتلق أصحاب السلطان ، بل غلبت عليه النزعة العاطفية وبخاصة في الجزء الأول والثاني من شعره تقريباً - ولا أدل على ذلك من تلك القصائد ، لسان الجمال ، ومناجاة ، ومنى ، وليلة الوداع ، وخواطر الأرق ، والحب الأول التي هي موضوع الدارسة (٢) .

وقد عمد هوورمبلاه "شكري" و"المازني" إلى نزعة تجديدية في القيم والمعاني الشعرية بعيداً عن المحاكاة والتقليد .

وهذه النزعة لم تكن فردية بحيث تبرز في الحياة ثم تتلاشى لكنها كانت طليعة جيل جديد غير "شوقي" و"حافظ" و"مطران" ، وقد ساعد هذا الجيل أنه كان متسلحاً بالثقافة العربية الواسعة ، بالإضافة إلى بعض الثقافات

١- حياة قلم العقاد ص ٦٢ ، كتاب الهلال ١٩٦٢ .
٢- انظر العقاد والتجديد في الشعر ، العوضي الوكيل ص ٨٠ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١ .

الأجنبية . وقد أطلق على هذا الجيل " جماعة الديوان " نسبة إلى هذا الكتاب النقدي الذي أصدره " العقاد " و" المازني " عام ١٩٢١ ، وأدعوه خلاصة فكرهم ونقدمهم للتيار المحافظ وشعرائه أمثال " شوقي " و" حافظ " و" عبد المطلب " وغيرهم . وإن لم يخل الكتاب (الديوان) من بعض التحامل على " شوقي " وبخاصة من جانب " العقاد " لكننا نستطيع القول بأنهم قادوا حركة التجديد وأثروا تأثيراً مباشراً أو غير مباشر فيمين أتى عددهم من الشعراء أو عاصرهم ^(١) وأسهموا في توجيه الشعر العربي الحديث الوجهة الوجدانية التي لا تزال تلازمه حتى اليوم على الرغم من تطور الوجدان من الفردية إلى الجماعية ^(٢)

وإذا ما جاوزنا هذه الجماعة إلى قطب من أقطابها وهو " العقاد " والتعرف إلى مفهومه للشعر نرى أولاً أن شعره صورة لحياته بكل ما اتسعت له هذه الحياة من ألوان المشاعر وضروب الأحاسيس ، وهذه هي النقطة التي قامت عليها فلسفات " العقاد " ودراساته الطويلة في تحديد نظرتة للشعر .

فالشعر عنده صورة من التعبير عن الحياة الإنسانية من خلال الذات وبوحي من الإحساس الصادق ، كما أنه امتزاج مستمر بين عالم النفس وعالم الحس . وتلك هي الصورة التي تلتقي فيها حقيقة الإنسان إنساناً وحقيقته شاعراً ، كما يرى أن الشعر هو المحك الذي يلتقي فيه الفكر بالوجدان ، فلا يمكن أن يكتمل عمل شعري جيد دون أن تجتمع فيه عناصر الفكر وخطجات الأحاسيس والوجدان .

١- انظر جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث د. عبد العزيز السوقي ص ١٦٨ ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١م

٢- انظر فن الشعر د. محمد مندور ص ١٤٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥

كما أنه يرى أن الشاعر هو ذلك الذي أتخذ من حياته موضوعاً لشعره، يعبر فيه عن ذاته وخصائص شخصيته تعبيراً يفصح عنها من حيث صلتها بموضوعات الحياة ومعانيها، وهذا يعني أن كل شيء في هذه الحياة يصلح أن يكون موضوعاً أو مجالاً للشعر مهما كان معروفاً أو منكوراً، مادام يضيف على الحياة والأشياء معانيها الحقيقية.

لذا يرى "العقاد" أنه لولا الشعر لما أشرقت على الحياة صورة من صور الحسن ولظلت على جمالها وفتنتها خرساء جامدة ما لم يصورها الشعر. وعن هذه النظرية يقول العقاد^(١):

وَالشَّعْرُ السَّنَةُ تُفْضِي الحَيَاةَ بِهَا

إِلَى الحَيَاةِ بِمَا يَطْوِيهِ كَتْمَانٌ

لَوْلَا القَرِيضُ لكَانَتْ وَهِيَ فَاتِنَةٌ

خَرَسَاءَ لَيْسَ لَهَا بِالقَوْلِ تَبْيَانٌ

مَا دَامَ فِي الكَوْنِ رُكْنٌ للحَيَاةِ يُرَى

فَفِي صَحَائِفِهِ للشَّعْرِ دِيْوَانٌ

وهذا معناه أن الشعر يحول ما في النفس إلى أناشيد فياضة بالأحاسيس والمشاعر، يعبر فيها الشاعر عن الحياة وما فيها من مكنونات وبواعث. وهذا ما أكده "العقاد" في مقدمة الجزء الأول لديوانه إذ يقول^(٢): "الشعر يعمق الحياة فيجعل الساعة من العمر ساعات، عش ساعة مفتوح النفس لمؤثرات الكون التي يعرض عنها سواك، ممتزجة بطويتك بطويته الكبيرة تكن قد عشت ما في وسع الإنسان أن يعيش، وملأت حقيبتك من أجود صنف من الوقت".

١- ديوان العقاد. المجلد الأول ص ٧٣ منشورات المكتبة المصرية - بيروت - لبنان.
٢- مقدمة الجزء الأول من الديوان.

ومن ثم فقد تناول " العقاد " في شعره كل الأغراض ومظاهر الحياة ، فتناول الطبيعة بكل ما فيها من عناصر الجمال والفتنة وكل ما يحرك خواج قلبه ويثير أحاسيسه ، كما تحدث عن الحب والغزل الذي اهتم فيه بوصف الروح والشماثل بعيداً عن الوصف المادي الذي أعده تعبيراً عن الغريزة الحيوانية الذي ينبغي أن يرتفع عنه الشاعر حين يصف علاقته بالمرأة . وفي القصيدة التي بين أيدينا تجسد هذا المعنى ، ويظهر من خلالها أن " العقاد " يوحد في غزله بين متعة الحس ومتعة النفس مما يدل على صدقه الشعوري ويظهر خصائص نفسه ، وخصائص من يحبه بحيث يتألف من ذلك كله غزل نضج فريد يعجب بالجمال ويتجاوزه إلى الإعجاب باعترار الصبا والإدلال على الأيام إدلال ظافر .

كما أنه من خلال غزله يصلنا بالطبيعة وأبنائها صلة الود والرحمة والتعاطف حيث يقوم له جميع أبنائها بوظيفة الرسول الأمين بينه وبين حبيبه ، بحيث يتسوق الجميع في لحن واحد جميل ، بحيث ينقلنا من خلال تعبيره إلى عالمه لنشاركه مشاعره في الإحساس الكلي بصلتنا بالحياة قوية دفاقة تسري في شعورنا ^(١) .

كما أنه استخدم الطبيعة استخداماً رائعاً حينما تغزل كما سنرى في قصيدة " الحب الأول " .

الجدير بالذكر أن حياة " العقاد " مليئة بالملامح المتعددة ، لكننا اقتصرنا على أهم الملامح التي تبرز منهجه الفني واتجاهه الشعري ونهجه في غزله وهذا ما يعيننا في هذه الدراسة .

١- أنظر شاعريه العقاد في ميزان النقد الحديث . د. عبد الحمي دياب ص ١٢٦ .

ثانياً : دراسة النونية (الحب الأول)

يقول العتاق :

يُهْنِيكَ يَا زَهْرَ أَطْيَارٍ وَأَفْنَانَ
 الطَّيْرِ يَنْشُدُ وَالْأَفْنَانَ عِيدَانَ^(١)
 طُوبَاكَ لَسْتَ بِإِنْسَانَ فَتَشْبِهَنِي
 إِنِّي ظَمِئْتُ وَأَنْتَ الْيَوْمَ رِيَانَ^(٢)
 هَذَا الرَّبِيعُ تَجَلَّى فِي مَوَاكِبِهِ
 وَهَكَذَا الدَّهْرُ أَنْ بَعْدَهَا أَنْ
 تَفْتَحَتْ عَنْهُ أَكْمَامُ السَّمَاءِ رَضَى
 وَزَفَهُ مِنْ نَعِيمِ الْخَلْدِ رَضْوَانُ^(٣)
 وَشَائِعُ النُّورِ فِي الْبُسْتَانِ بِاسْمَةِ
 وَالْأَرْضُ حَالِيَةً ، وَالْمَاءُ جَذْلَانُ^(٤)
 الشَّمْسُ تَضْحَكُ وَالْأَفَاقُ صَافِيَةً
 جَلْوَاءَ وَالرَّوْضُ بِالْأَنْمَارِ فَيِّنَانُ^(٥)

- ١- أطيار : جمع طائر - أفنان الأولى : أنواع ، والأفنان : الأغصان . عيدان : جمع عود وهو ما جرى فيه الماء من الشجر وتجمع على عيدان وأعواد .
- ٢- طوباك : طوبى فعلى من المطيب ؛ كان أصله طيبى ، فقلبوا الياء واوا للضممة قبلها ، ويقال طوبى لك وطوباك بالإضافة لكن العرب لا تقول طوباك على رأي أكثر النحويين إذ إن الصواب أن نقول طوبى لك إن فعلت كذا وكذا، ومنه قول الله تعالى : ﴿ طُوبَى لِمَنْ هَمَزَ وَحَسَنَ مَقَابٍ ﴾ أي حسنى لهم ويقال أن طوبى شجرة في الجنة - ريان: ضد العطش ، ونبت ريان أي تروى وتنعيم .
- ٣- زف : الزفيف سرعة المشي مع تقارب خطو وسكون ، وزفت الريح زفيفا وزقرقت هبت هبوبا ليانا ودامت والمعنى أن الزهر قد تفتح وأصبح في صورة جميلة رائعة يتمايل مع الريح الذي مبعثه الجنة .
- ٤- وشائع النور : وشائع الثوب طرائق نسجه ويعني طرائق نسج الورد في البستان توحى بالفرح والسرور : الأرض حالية : حليت أي صارت ذات حلي . وتحلت : ليست حليا ويقال للشجرة إذا أوردت وأثمرت حالية - جذلان : الجذل بالفتح الفرح . وجذل بالكسر ، بالشيء يجذل جذلا ، فهو جذل وجذلان : فرح والجمع جذلى والأشئ جذلانه ، والمعنى أن الماء يترقق فرحا وسرورا .
- ٥- جلواء : يقال جهة جلواء : واسعة . والسماء جلواء أي مضحية . وليلة جلواء أي مضحية مضبنة - فينان : مثمر

وللنسيم خُفوقٌ في جَوَائِبِهِ

وللطُّيورِ تِسرانِيمٍ وألحانُ^(١)

في كل رَوْضٍ قرى للزَّهْرِ يَغْمُرُهَا

يا حَبِّذا هي أَيْباتٌ وَسُكَّانُ

مُسْتَأْنَسَاتٌ سَرى ما بَيْنَها عَبَقُ

كَمَا تَرَأْسَلُ بالأشْواقِ حِبَّانُ^(٢)

الورْدُ يَحْمِرُ عُجْباً في كَمائِمِهِ

والْيَاسْمِينُ على الأَغْصَانِ مَيْسَانُ^(٣)

يستهل "العقاد" معارضته (الحب الأول) بوصف الطبيعة وصفاً ينم عن

مقدرة فائقة في الإحساس بما يحيط حوله من مظاهر الجمال والسحر

فقد فض عنها عقالها الحسي الظاهر، وأحاطها بهالات من خواطره

وأخيلته السامقة، وسوانحه النفسية، التي تنظر بعمق إلى الكون والوجود والتغني

بالطبيعة والحب، وتصوير أشواق الهوى، ونبض قلبه مع نبضات الطبيعة

وخفقات أحاسيسه نحو عناصر الطبيعة والكون، والامتزاج مع الروح المستكنة

للوجود.

١- خفوق : خفق : اضطراب ، وقيل خفق الرجل براسه من النعاس : لماله ، وقيل إذا نعس نعسة ثم تنبه ، وخفق النجم : إذا تلالا وأضاء ، وريح خفيفة سريعة . والمعنى : أن النسيم يضرب جنبات الروض فيختال فرحا وسرورا - تراتيم : الرنيم والترنيم : تطريب الصوت ، والترنم : التطريب والتغني وتحسين الصوت ، ويطلق على الحيوان والحمام .

٢- عبق : بقى : لازم ، وعبقت الرائحة أو الطيب في الشيء تعلق به فلا يذهب عنه - حبان : الحب بالكسر : المحبوب والأثني حبة وجمع الحب أحباب وحبيوب .

٣- كمائم : من الفعل كم أي ستر يقال كم الشيء ستره ، والكم برعوم الثمرة أو غلاف الثمرة وهو ما يسترها ، والجمع كمائم وأكمام - ميسان : نام ، وقيل الوسن أول النوم ، يقال ومن فلان إذا أخذته سنة النعاس ، وميسان تطلق على الرجل والمرأة .

فقد بدأ يرسم صورة رائعة مكتملة الجوانب متناسقة الألوان ، كأنها صورة حية ناطقة مغنية تفوح بالرائحة الطيبة ، فقد ساعده إحساسه الرهيف في تصويره الطبيعة وقد ازدهرت بالأزهار والأطيّار ، وتجلي الربيع في أزهى صورة بعد أن أقفرت الحياة من مظاهره الخلابه ، بالإضافة إلى الأثمار وقد أينعت ، وسرت الرياح المحملة بعطور الأزهار والورود ، فأصبحت الأرض وكأنها بستان متناسق الألوان والظلال يتفرق الماء بين جنباته .

ويأبى الشاعر إلا أن يضيء لنا هذا المنظر البديع بالشمس ذات النور والضيء الساطع في الأجواء الصافية ، ويطل على الأرض وقد امتلأت بالبساتين المحملة بالآثمار التي تتلألأ في هذا الضوء كالذهب .

ويكمل الشاعر الصورة بإحساسه الرفيف بامتزاجه بالطبيعة ، فيرى النسيم وقد سرى بعبق الأزهار وترنيمات الطيور التي تشدو بأصواتها أعذب الألحان وهي تتمايل مع الأغصان .

ويتجاوب الشاعر مع أصداء نفسه الحاملة ، فيرى الأرض وكأنها قرية عمرت بالزهور المتعددة الأنواع والألوان التي يفوح شذاها طيباً ومسكاً وهذه المناظر الخلابه وتلك اللوحة الرائعة حركت في نفس الشاعر كثيراً من الأحاسيس الحية النابضة والتي أذاعها في بقية القصيدة كما سنرى:

وللقرنفلِ أثنوابٌ ينوعها

عن البلور صناعُ الكفِ رِقان^(١)

وللبنفسجِ أمتساحٌ ممسكةٌ

كأنه رَاهِبٌ في الدَّيرِ محزان^(٢)

١- رِقان : مزركش بكسر الكاف

٢- أمتساح : المسح : الكساء من الشعر والجمع امتساح - محزان يقال رجل حزنان ومحزان : شديد الحزن . وحزنه الأمر يحزنه حزناً وأحزانه ، فهو محزون .

وحبذا زَهْرُ اللَّيْمُونِ يُسْكِرُنَا

منهن جَامٌ خَلا من مِثْلِهِ الْحَانُ^(١)

وَاللَّيْلُ يُحْيِيهِ وَالْأَطْيَارُ هَاجِعَةٌ

بَلَابِلٌ وَشَحَارِيرٌ وَكِرْوَانُ^(٢)

مَوْذَنُ الطَّيْرِ يَدْعُو فِيهِ مُحْتَسِبًا

فَيَسْتَجِيبُ لَهُ بَرٌّ وَغِيَانُ

وَالصَّبْحُ فِي حُلْلِ الْأَنْوَارِ طَرَّرَهُ

فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ أَسْحَارٌ وَأَصْلَانُ^(٣)

كَأَمَّا الْأَرْضُ فِي الْفَرْدُوسِ سَابِحَةٌ

يَحْنُو خَطَاها من الْأَمْلَاقِ رَبَّانُ^(٤)

ضَاقَ الْفَضَاءُ بِمَا يَحْوِيهِ فَرَحٌ

فَكُلُّ مَا فِي فَضَاءِ اللَّهِ فَرَحَانُ

إِلَّا الْمَحَبُّ الَّذِي لَا حِبَّهُ دَنْسٌ

وَلَا مَوَدَّتَهُ خِيبٌ وَإِدْهَانُ^(٥)

نَفَاهُ عَنِ عَرَسِ الدُّنْيَا شِوَاغُهُ

إِنَّ الْحَدَادَ عَنِ الْأَعْرَاسِ شِغْلَانُ^(٦)

- ١- العجم : إبقاء للشراب والطعام من فضة ونحوها وقد غلب استعماله في قدح الشرب والجمع جامات وأجوام .
- ٢- البلبيل طائر حسن الصوت يألّف الحرم ويدعوه أهل الحجاز النفر كروان : جمع كروان ، وهو طائر صغير لا ينام بالليل - الشحارير جمع شحورور طائر أسود فريق العصفور .
- ٣- أصلان : جميع أصيل : وهو الوقت بعد العصر إلى المغرب - أسحار جمع السحر : وهو آخر الليل قبيل الصبح ، وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر .
- ٤- حدا يحنو حدوا وحداء ، زجر الأبل خلفها وساقها ، وتحدث هي : حدا بعضها بعضا ، والحدو سوق الإبل والغناء لها - ربان : الربان يفتح الراء وضمها : الجماعة .
- ٥- الخب الخداع والخبث والغش والفعل خب - ادهان : الادهان والمداهنة : المصادفة واللين وقيل المداهنة اظهار خلاف مأ يضممر والإدهان الغش والملق والنفاق .
- ٦- الحداد : ثياب الماتم الأسود ، والحاد والمحد من النساء لتي تترك الزينة والطيب بعد زوجها

وبعد أن وصف الشاعر بحسه المرهف وذوقه الرفيع جانباً من الطبيعة بما فيه من مظاهر الجمال من أزهار وأطياف وأشجار ذات أفنان وعيدان وشمس مضيئة وأفاق صافية ، وطيور تشدو بأعذب الألحان والترانيم . بعد هذه الصورة الرائعة المتناسقة ، أخذ الشاعر في وصف الزهور والورود بأنواعها وألوانها ورائحتها ، مما يدل على رقة مشاعره ودقة ملاحظته ورفاهة إحساسه وحبه للجمال وللطبيعة ، فالقرنفل قد اكتسى من الحلل أنواعاً مزركشة الألوان ، والبنفسج قد لبس أثواباً تفوح مسكاً وعطراً ، وهو في لونه الهادي يشبه راهباً انقطع للعبادة في تبتل وخشوع ، وزهر الليمون الذي يخلب الأنظار ويسكرها .

وإذا كان النهار قد جمع هذه المظاهر الخلابة والفواحة بالطيب ، فالشاعر لا ينسى الليل بما فيه من مظاهر جمالية ، فالبلابل والشحارير والكروان تغرد بأصواتها العذبة في جنبات الليل ، وقد هجعت الأطياف الأخرى إلى النوم والراحة ، وفي الصباح تغدو الطيور من وكناتها تسبح في الفضاء فرحة مسرورة ثم يعود الشاعر إلى النهار والنور الذي كان يعشقه ويقول فيه ^(١) :

" أحبه صافياً وأحبه مزيجاً ، وأحبه مجتمعاً وأحبه موزعاً وأحبه مخزوناً
كما يخزن في الجواهر ، احبه مباحاً كما يباح على الأزاهر . وأحبه في العيون ،
وأحبه من العيون ، وأحبه إلى العيون .. وألحق أنه لافضاء حيث يكون النور
وكيف يكون فضاء ما يملأ العينين ، ويملأ الروح ، ويصل الأرض بالسماء ."

وهذا يعطينا إشارة إلى أن العقاد كان شفافاً يحب النور حتى أصبح ظاهرة في تراثه . وهذا ما نلاحظه في قوله :

١ - في بيتي - العقاد ص ٥

والصبحُ في حُللِ الأنوارِ طرَّره

في الشرقِ والغربِ أسحارٌ وأصلانُ

فالنهار قد تشكل بهذين الوقتين وقت السحر الذي هو بداية النهار ووقت الأصيل الذي يعطي لوناً ذهبياً ، والأرض قد ازينت بهذه الألوان وتلك الحلل فكانها سابحة في الفردوس تسوقها جماعة من الملائكة في موكب مهيب يوحي بالفرح والسرور للكون كله إلا ذلك المحب الذي أخلص في حبه ، ولم يدنس به خداع أو مكر أو نفاق . فلم يعدلّه مكان في عرس الدنيا ، إذ إنه انصرف عنها بشواغله وحبه ، فلم يعد همه تلك المناظر وهذه الباهج بقدر ما يهيم بحبه وتباريحه . وهذه إشارة إلى ما في نفس الشاعر من حب وهوى شغله عن مظاهر الجمال في الطبيعة، ولم يعدلّه بها اهتمام فهو في شغل شاغل بهذا الحب .

وبهذا نرى الشاعر وقد اتسعت مادة شعره في هذه الأبيات ، إذ استوعبت الحياة بكل ما فيها من مناظر طبيعية تخلق الأنظار وتبتهج لها الأسارير مما يدل على نسيج نفسي موزون تجاه الطبيعة بما فيها ، والتي حركت لديه تلك المشاعر . وقد شرح الشاعر مدى ارتباطه بالطبيعة وغيرها من مظاهر الكون فيقول (١) :
" فليست الرياض وحدها ولا البحار ولا الكواكب هي موضوعات الشعر الصالحة لتنبية القريحة واستجاشة الخيال .. كل ما نخلع عليه من إحساسنا ونفيض عليه من خيالنا ونتخلله بوعينا ونبت فيه هواجسنا وأحلامنا ومخاوفنا هو شعر وموضوع للشعر لأنه حياة موضوع للحياة . وإن التصور لهو خير معوان للإحساس وشاحذ للرغبة أو للنفور ."

١- مقدمة ديوان علي بن سبيل ص ٥٤٨ ، منشورات المكتبة العصرية .

ومن هذا المنطلق مضى "العقاد" يلتقط من مرثيات الحياة وبخاصة الطبيعة ومشاهدها ما يحيله صوراً رائعة التشكيل والتنسيق.

مَا لِلطَّبِيعَةِ تَجَلُّو حَقْلَ زَيْنَتِهَا
 حَتَّى لِكَائِرٍ مِنْهَا اللَّمَحُ أَلْوَانُ
 كَأَنَّمَا مَرْنَتْ مِنْ طُولِ مَا صَنَعَتْ
 فَلَيْسَ يُخْطِئُهَا فِي الصَّنْعِ إِبْتِقَانُ
 رُحْمَاكَ يَا رَبِّ إِنَّ النَّاسَ قَدْ غَلَبُوا
 عَلَى الْوَقَارِ ، وَلِلْأَهْوَاءِ شَيْطَانُ
 لَقَدْ عَلِمْتَ بِأَنَّا لَا قَرَارَ لَنَا
 مَعَ الْجَمَالِ ، وَأَنْ الصَّبْرَ وَهَنَانُ^(١)
 فَمَا لَنَا كَلِمَا دَارَتْ نَوَاطِرُنَا
 مُدَّتْ إِلَيْهِنَّ أَوْهَاقُ وَأَشْطَانُ^(٢)
 مِنْ كُلِّ أَلْقَابِهِ بِالْحُسْنِ طَلَعَتْهُ
 مُسْتَمْتِحِ النَّيِّهِ ، يَعْطُو وَهُوَ خَجَلَانُ^(٣)
 تَتَّصِحُّ طَرْتَهُ عَنْ صُبْحِ غَرْتِهِ
 فَيَقْضِي الصُّبْحَ وَجَهَ مِنْهُ ضَخْيَانُ^(٤)

١- وهنان : الوهن الضعف في العمل والأمر ، ويقال رجل واهن وامرأة وهنائة.

٢- أوهاق : الوهق الحبل تشد به الإبل والخيل فللا تشد - اشطان - الشطن : الحبل الطويل الشديد الفتل يستقي به تشد به الخيل.

٣- الأقة : متألفة ، واللاق والالاق الأولق : الجنون ، واللق البرق يالِقُ القا وتالِقُ وانتلق ياتلق انتلاقاً : لمع وأضاء وبرق الاق : لا مطر فيه . والمعنى على ذلك إما أن يكون من مجنونة بالحب أو من كل براءة بالحب أو مضنية والثاني أرجح - يعطو : يتناول إلى الشيء ليتناولوه ، والمعنى هنا : يمد جيده كي يراه المحبوب - طلعتة : رويته ، يقال حيا الله طلعتك ، وطلعة الرجل شخصه وما طلع منه - النيه : الصنف والكبر ، وقد تاه يته تيهها : تكبر ويريد هنا الاعتزاز بالنفس والتكلم بالجمال.

٤- تتصح : انصاح . استتار وانصاح الفجر تصباحاً إذا استتار وأضاء واتجلى - طر : الضراة الهيئة الحسنه والجمال.

إذا النهار تجلى من أسرته

صحت قلوب تحييه وأجفان^(١)

ترنج اللين في عطفيه وأشقت

فيه الخلي ، فهو للأبصار ميدان^(٢)

ويستهل بروض من ملاحته

كما استهل بروض الزهر نيسان

بالغصن شبهه من ليس يعرفه

وإنما هو للرائين بسنان

وهل نماقط في غصن على شجر

أس وورد ونسرين وسوسان^(٣)

بعد أن وصف الشاعر بعض ملامح الجمال في الطبيعة في صورة مفصلة ، اعتمد فيها على الألوان المتناسقة بين الزهور والورود ، والتناغم بين الأطيوار ، ووصف الليل بما فيه من مظاهر الحياة والنهار بأنواره ، فكانه أحس بعد ذلك أنه لن يستطيع حصر كل ما في الطبيعة من مظاهر جمالية أخذ يصفها وصفاً مجملاً متسائلاً ما الذي دعا الطبيعة إلى إظهار هذا الجمال وتلك الزينة والتي أصبحت في حكم العادة الثابتة التي لا تخطي مكانها ، لكن الشاعر بعد ذلك التساؤل يدرك أن وراء هذه الزينة المغرية وهذا الجمال الصارخ صانع متقن هو الله سبحانه وتعالى ، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، فلا يملك الإنسان تجاه هذا الصنع

١- أسرته : الأسر : القوة والحبس - والمعنى أنه كما تصحو العيون لمطلع النهار كذلك تنبته القلوب لمطلع وجهه .

٢- ترنج : تمايل من السكر وغيره والمعنى هنا اهتز ومال - عطفيه : العطف : المنكب عطفه شقاء من لدن رأسه إلى وركه والجمع أعطاف .

٣- السوسن : نبت أعجمي معرب ، وهو معروف وأجناسه كثيرة . وأظليه الأبيض . أس : الأسية البناء المحكم

البديع المحكم الذي يلف جنبات الكون كله ، ويشد الأنظار ويحرك المشاعر والأحاسيس إلا أن يرجع الأمر لله خالق الكون ومبدعه ، ذلك لأن بعض النفوس ليست لديها قدرة على الصبر تجاه الجمال فيكون إغراءً وفتنة لها . ولم لا وكل ما تقع عليه الأنظار يوحى بالجمال ويأسر اللب ويثير المشاعر .

ولعل الشاعر يقصد بالصنعة المحكمة هنا محبوبته تلك التي أجمعت فيها كل مظاهر الجمال والبهاء حتى لكانها أصبحت الطبيعة نفسها بكل ما فيها من مظاهر الفتنة والإغراء ولفت الأنظار وتحريك المشاعر والأحاسيس وهذا ما نلمحه في قوله :

فَمَا لَنَا كَمَا دَارَتْ نَوَاطِرُنَا
مُنْتِ إِلَيْهِنَّ أَوْهَاقٌ وَأَشْطَانُ
مَنْ كُلِّ أَلْقَمَةٍ بِالْحُسْنِ طَلَعَتْهُ
مُسْتَمْتَحِ النَّيِّهِ ، يَعْطُو وَهُوَ خَجْلَانُ

فمحبوبته هذه تلمع وتتلألأ جمالاً وحسناً يبهر العيون ويسكرها ، ومن دلائل هذا الجمال أدبها وحيائها ؛ فهي تمد جيدها في حياءٍ وخجل لتتنظر إليه ، كما أنها تتمتع بطلعة نورانية ووجه منير تصحوله القلوب وتتحرك المشاعر والأحاسيس كما تصحو العيون لطلع النهار .

وبجانب ذلك فإنها تتمتع بقوام وقد يختال ليناً ورقة كالغصن تهفوبه الريح بمنة ويسرة من طراوته ولينه .

كما يزيد من جمالها وبهاؤها تلك الحلى التي اتسقت عليها ، فصارت محطاً للأنظار وميداناً يجتمع حوله محبو الجمال والبهاء .

ويتجاوب الشاعر مع نفسه الحالة المحبة للجمال الطبيعي الذي لا تكلف فيه ولا تصنع ، فيراها وقد جملت في عينيه ، حتى صارت بستاناً يتألق بالأزهار النضرة ، والورود المعطرة والثمار المتنوعة والمناظر الخلابة التي تلفت الأنظار وتهفو إليها القلوب ، وليس غصناً كما يراه غيره .

ونلاحظ من هذا كله أن الشاعر قد جمع لمحبوبته جمال الروح بحيائها وأدبها ، وجمال المظهر بوجهها الصبوح وقدها الجميل الرائع .

ولعل السر في لجوء الشاعر إلى الطبيعة يصف بها محبوبته أن الطبيعة مجبولة على هذا الجمال الرياني الذي لا تكلف فيه ولا تصنع ، والشاعر ولع بهذا الجمال الطبيعي ؛ لذا فقد خلع على محبوبته من هذا الجمال بل إنه أختار أجمل ما في الطبيعة وهو البستان بنضرتة وخضرتة وثماره وحيويته ، ليجمع لها صفات الحسن والكمال والحيوية والرشاقة .

هذا بالإضافة إلى أن " العقاد " كان يعتبر جمال المرأة أسمى مراتب الجمال ؛ لذا فقد استلهم من الطبيعة أجمل ما فيها وخلعها على محبوبته ، وقد جاءت كل هذه المعاني في أسلوب قوي رصين .

يا مَنْ يراني غريباً في محبته

وجدأ ، ويسألني هل أنت غصان^(١)

واضيعة الحب أبديهِ وأكتمهُ

ومن عنيتُ به عن ذلك غفلانُ

لي في مديحك أشعاراً أضنُ بها

على امرئٍ فخره عرشٌ وإيوان^(٢)

١- الوجد ؛ شدة الحب ، غصان : النضج بالماء إذا شرقت به أو وقف في الحلق ولم يكد يساغ ، ورجل غصان : غاص .
٢- أضن بها : أبخل بها .

على مَحْيَاكَ من وشى الصبا روع
 وللمُحِبِّينَ أَحْدَاقٌ وَأَعْيَانُ^(١)
 فَكَيْفَ تَعْدِلُهُمْ إِنْ رَاحَ نَاطِرُهُمْ
 بِحُسْنِ وَجْهِكَ يَهْدِي وَهُوَ وَلِهَانُ^(٢)
 مَا الْحُسْنُ ذَنْبًا ، فَمَا لِلْحَبِّ تَحْسِبُهُ
 ذَنْبًا مِنَ النَّاسِ لَا يَمْخُوهُ غُفْرَانُ .
 هَمَا شَقِيقَانِ فَارْفُقْ أَنْ تَحِيلَهُمَا
 ضِدَّيْنِ بَيْنَهُمَا نَائِيٌّ وَهَجْرَانُ
 مِنْ عِلْمِ النَّاسِ أَنَّ الْحَبَّ مَائِمَةٌ
 حَتَّى كَأَنَّ لَيْسَ غَيْرَ الْبُغْضِ إِحْسَانُ
 هَبَّهَا جِنَايَةَ جَانٍ أَنْتِ أَثْمُهَا
 مَا كَانَ يُعْصَمُ لَا إِنْسٌ وَلَا جَانُ
 إِنَّ الْجَسُومَ مِثْلَ مَاءِ جَوَارِحِهَا
 إِلَّا الْقُلُوبَ فَصَيِّغْتِ وَهِيَ أَخْدَانُ
 لِكُلِّ قَلْبٍ قَرِينٌ يُسْتَتَمُّ بِهِ
 خَلَقَ وَخَلَقَ فَهَلْ يُرْضِيكَ نَقْصَانُ
 إِنَّ التَّعَاطُفَ بِالْأَرْوَاحِ بُغْيَتُنَا
 وَفِي الْوُجُوهِ عَلَى الْأَرْوَاحِ عِنْوَانُ

١- روع : صباحة وجمال - أحداق : الحدقة السوداء المستدير وسط العين ويجمع على حدق وأحداق - أعيان : عيون .
 ٢- تعدلهم : العذل اللوم ، والعوائل من النساء جمع عاذلة أي لائمة .

تمالك الصخر أخطى منك إن فترت

عنك العيون ، ولم يشمك وجدان

ولما كانت هذه صفات محبوبته المعنوية والحسية . فقد أراد الشاعر أن يظهر ولعه بها ومعاناته من حبه لها ، ذلك الحب الذي اشتد به وأضناه وتحير به . فمرة يبديه ويظهره وأخرى يخفيه ويكتمه أملاً في إرضاء أو رضا محبوبته لكنه لا يلقي منها إلا الصد والهجران والتغافل ؛ على الرغم من كثرة مدحه لها بأشعاره التي هي خلاصة فكره ونبض مشاعره وأحاسيسه .

ثم يتساءل الشاعر إذا كان هذا هو جمال محبوبته فلم اللوم على حبه لها مع أن الحب ليس ذنباً كما يتصوره كثير من الناس ؟ كما أن الحب قرين الحسن والجمال بل هما شقيقان لا ينفصلان بل بينهما تلازم وترباط ، وأنه لا يعصم إنس ولا جان من الوقوع في شرك حب الجمال وبخاصة المرأة الجميلة ، ولا ينكر ذلك إلا من تحجرت قلوبهم وتبلدت أحاسيسهم ومشاعرهم ، فتصوروا أن الشقاق والهجر هما الحب والإحسان .

وبأسلوب تغلب عليه الترفة الفكرية بين الشاعر أن الحب لو كان جناية - كما يزعم الناس - فإنها جناية لا يتبرأ منها أحد ، وليس في مقدورهم أن يتخلصوا منها إذا ما التاطت بقلوبهم وعلقت بأرواحهم ، ويعلل ذلك بأن جوارح الإنسان مثناة إلا القلوب ، فقد خلقها الله وصاعها في الجسوم واحدة ، وكى تكون مثناة مثل بقية الجوارح فإنها تحتاج إلى قرين يكملها من الجسوم الأخرى كي يكون بينهما التعاطف الروحي .

ونلمح من هذا أن "العقاد" كان ولعاً بالجمال ، وجمال المرأة بالذات فقاده ولعه بالجمال هذا إلى الحب فراح يبحث عنه في كل امرأة جميلة تصادفه

ومن ثم خلت حياة "العقاد" العريضة من المرأة حسبما يتفق وشريعة الحب لا حسبما يتفق والتقاليد المتوارثة عن الدين والتي أعتنقها الأبناء والأجداد ، وتلك التقاليد هي الزواج ، لكنه على الرغم من ذلك فقد استمتع بالمرأة ونالم ولد له الحياة معها وتنغصت ، فمئحته المرأة خير ما تعطيه لرجل وسامته شرما تسومه لرجل كذلك ؛ وقد ظهر ذلك في شعره الذي عبر فيه عن سعادته بالمرأة وحبها لها وولعه بجمالها حين تعاطيه الحب، وكذلك يظهر في شعره الذي ذرف فيه دموعه بسبب ما صنعت به المرأة حين يخبو الحب وتنطفيء شعلته (١)

ويستمر الشاعر في وصف ما يعتمل في صدره وقلبه من حب للجمال الذي

يعد حبا لكل شيء، فيقول :

إنا لمن معشر حبُّ الجمال لهم
 حب لما كان في الدنيا ومن كانوا
 ليأمن الطير أنا لا نكيد له
 ولا يخف مكرنا وحش وعقبان^(٢)
 لو سمع الورق نجوانا لكان لها
 من غصون نصيرات وأحضان^(٣)
 أو كان بذري حيى النبت عفتنا
 لم تغض منه بأيدينا أغصان^(٤)

١- انظر : المرأة في حياة العقاد ، د / عبد الحمي دياب ص ١١ ، دار الشعب ١٩٨٦ .

٢- العقبان : العقاب طائر من العقاق ، ويقع على الذكر والأنثى ، وقيل هي عتاق الطير وسباعه التي تصيد

٣- الورق : الحمام والمفرد ورقاء ، والأورق الذي لونه بين السواد والخبرة - أحضان : يقال حضن الطائر بيضه بحضن حضنا وحضانة أي وجن عليه للتفريخ ، ويقال حضن الطائر بيضه إذا ضمه إلى نفسه تحت جناحيه وهو المعنى المطلوب في هذا البيت ، والحضن في الإنسان هو الصدر والعضدان وما بينهما وفي الطير الصدر والجناحان .

٤- حيى يقال رجل حيى ذو حياء بوزن فعيل ، وامرأة حبيبة .

أَوْ يَنْظُرُ السَّائِمُ النَّابِي طَوَيْتَا

لم تالف القفر آرامَ وغزلانُ^(١)

ولا اتقى الحوتُ شراً حين يُنصرنا

إذا وقته شباكِ الإنس قيعانُ^(٢)

يا ليت أن لنا كهفاً تعودُ به

إن راح يُفزعها بغى وعدوانُ

ما ضرَّ قانصها أن لا يكون لها

غيرُ الفلا وحجازُ الأفقِ قُضبانُ

أين الحمائمُ تشدو في أرائكها

من الحمائمِ يشويهن مبطنانُ

أو الطيور على السفود ناضجة

من الطيور تهادهن أفنانُ^(٣)

لو أطلقوها كما شاعت لكان لهم

منها قيانٌ كما شاؤا وندمانُ^(٤)

يفصح الشاعر عن انشغاله بحبوبيته التي تتمتع بذلك الجمال الآخاذ، الذي

لا يعرف معناه ولا حقيقته إلا النفوس المخلصة، التي ترى أن حب الجمال إنما

١- السائم : الذاهب على وجهه حيث شاء والجمع سوامم ومنه سامت الإبل والماشية أي رعت . النابي : الثور الذي ينبا من أرض إلى أرض أي يخرج . آرام : الأعلام وهي حجارة تجمع وتتصب في المفازة يهتدي بها ، واحداها ارم - القفر - القفرة : الخلاء من الأرض وجمعه قفار وقفور ، وقيل القفر مفازة لا نبات بها ولا ماء .

٢- قيعان : جمع قاع وقاعة رفيع : وهي أرض واسعة سهلة مطمئنة مستوية حرة لا ارتقاع فيها ولا انهباط ، وما حواليتها أرفع منها وهو مصب المياه أو هي الأرض التي تتفرج عنها الجبال والأكام .

٣- السفود : لحديدة التي يشوى عليها ، والجمع سفاويد .

٤- ندمان : نادم للرجل منادمة ونداها : جالسة على الشراب والنديم : المنادم والجمع ندماء وندمان . والمعنى أن الناس لو تركوا الطيور لحالها لكان لهم منها أصحاب وخلان .

هو حب كل شيء ، وأنه مصدر سعادة لمن ينشدها في كل أحواله . مع محبوبته مع الطيور مع الأشجار والوحوش والحياتان في المياه .

كما أنه أي الحب وسيلة تطهر النفوس ، وتعمل على صفائها ونقاؤها . وتؤدي إلى معرفة الواجب والقيام به ، ولعل هذا هو منزع الرومانتيكيين في حبهم الذي كانوا ينظرون من خلاله إلى المرأة ، على أنها ملك هبط من السماء ؛ ليظهر قلوبنا بالحب ويرقي بعواطفنا ويذكي شعورنا ، ويشجعنا على النهوض بأعباء واجباتنا الخلقية والسياسة والوطنية ^(١) ، وأن الكون إذا خلا من الحب انطفأت الشمس ، وأن الله هو المركز الذي تنجذب إليه أصول الأشياء كلها ، وإلى صفة واحدة من صفاته يرجع الخلق والتقدير والأحياء والغرس والوجود والعدم تلك الصفة هي الحب .

وأخيراً فإن الحب مأمون العاقبة في تكوين الفضائل وفي تفتح المواهب ونضج العبقرية ^(٢) .

وبناء على هذه النظرة وتلك الفكرة نحو الجمال ، فقد تمثل " العقاد " لقاء محبوبته ، بين الطيور والحمام والنباتات ، بأزاهيرها التي تتجاوب مع هذا اللقاء ، بين الشاعر ومحبوبته وتشهد كلها على عفة وطهارة هذا الحب ، وكذلك بين الحياتان وقد تظلمت بهذا الحب الذي اصطبغت به كل عناصر الطبيعة .

ثم يُلقى الشاعر نظرة نحو هذين القلبين ، (قلبه الذي يحترق شوقاً ومحبة كما تشوي الحمام والطيور على السفود ، وقلب محبوبته الذي يتدله فرحاً مسروراً كالطيور تتهادي بها الأغصان) ، ويرى أن ذلك من مفارقات القدرة

١- أنظر الرومانتيكية ، د/ محمد غنيمي هلال ص ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، نهضة مصر بالبحالة

٢- أنظر الرومانتيكية ص ١٤٥

الخالقة في الحب . تلك المفارقة التي تهرأ بالظواهر والأشكال . وتلعيب بالأحاسيس والمشاعر ، ويلتفت الشاعر إلى أثر هذه المفارقة فيرى أن هذه المشاعر التي تكمن في غيابة قلبه ومجاهل نفسه وتحترق منها أضلعه تحتاج إلى قرين يشعر بها ، ويتجاوب معها .

ولا يزال الشاعر يصف محبوبته ويبرهن على سبب تعلقه وشغفه بها فيقول:

هل يعرفُ البيضُ أن الحسنَ جوهرةً
لها الثراءُ ، ثراءُ النفسِ ، أثمانُ
يَقْنُوْ نَفَائِسِهِ مِنْ لَا يَسُوْمُهُ
وقد يعز على اللال قنيان^(١)
يا جوهراً بت أرعاه على أمم
رغى الشخج ، ومالي فيه سلطان^(٢)

ما في يدي منه لا عين ولا أثر
ولي عليه مغاليق وأعيان^(٣)
قد نلت ما نلت من حظ به عرضاً
وقد تولى ، فحظي منه فقدانُ
إني إلى الرعى من عينيكَ مُفْتَقِرٌ
يا ضوءَ قلبي ، فإن القلب مذخان^(٤)

١- يقنو: قنن الشيء قنوا وقنونا والقنيتة: كسبته . قنيان: ما يتخذ قنية أي مكسب . يسومه: يرعاه

٢- أمم: الأمم القرب ، يقال أخذت نلم من أمم أي من قرب ورعاه على أمم أي على قرب

٣- العين: جمع عيناء ، وهي الواسعة العين - أعيان: جواسيس

٤- مدجان: الدجن ظلم الغيم في اليوم المطير ، والدجن لباس الغيم الأرض . ادجن يوماً إذا أصب فاطلم

مَنْ لِي بِمَهْدِكَ تَرَعَانِي لَوَاحِظُهُ
 وَرُبَّ مُسْتَقِيطٍ يَزْعَاهُ نَعْسَانُ
 لَوْ أَسْتَطِيعُ لَوْقَاهُ وَظَلَّالُهُ
 قَلْبُ تَنَامِ الدَّرَارِيِّ ، وَهُوَ جَوْلَانُ^(١)
 أَبَيْتُ أَزْجِي إِلَيْهِ كُلَّ ضَاكِكَةٍ
 مِنْ الْأَمَانِيِّ يُوَحِّهِنَّ فَتَّانُ
 أَزْجِي عِرَاشِ أَحْلَامِ تَيْمَمَةَ
 فِي زَبْرَجٍ بِالْحَيَاءِ الْغَضِّ يَزْدَانُ^(٢)
 تَمْضِي بِهِ بَيْنَ جَنَاتٍ مَزْخَرَفَةٍ
 فِيهِنَّ حُورٌ وَأَمْلَاكٌ وَوَلْدَانُ
 وَسَاجِعَاتٌ تَتَاغِيهِ عَلَى كَثَبٍ
 حَتَّى يُنْبَهُهُ مِنْهِنَّ إِرْنَانُ^(٣)
 إِذَا تَنَقَّلَ أَوْ أَسْرَى فَمَهْبِطُهُ
 مِنْ خَالِصِ الْعَسْجِدِ الْوَهَّاجِ أَفْدَانُ^(٤)
 مَسْتَمْرِي طَيْبٍ مَجْنَاهَا وَبَهْجَتِهَا
 قَلْبُ غَرِيرٍ وَلَحَظٌ مِنْهُ سَكْرَانُ^(٥)

١- الدراري : الكواكب اللامعة والمفرد دري - جولان - متحرك مضطرب .

٢- تيممه : يقال تيمم الشيء قصده ، ويممته ، قصدته . زبرج : الزينة والوشي .

٣- ساجعات : يقال سجع الحمام يسجع سجعاً : هلل على جهة واحدة ، وجع الحمام موالاة أصواتها على طريق واحد - إرنان : الصيحة الشديدة والصوت الحزين عند الغناء أو البكاء أو صوت الحمام : يقال أرنت الحمام في سجعها .

٤- العسجد : الذهب ، وقيل هو اسم جامع للجوهر كله من الدر والياقوت - أفدان : قصور مشيدة .

٥- الغرير : المخدوع . من غرر يغرره غراً وغروراً أي خدعه وأطعمه بالباطل .

وبات للقلب في جنح الظلام إلى

ذبيب أخلامه صغو وإرغان^(١)

حسي السهاد إذا ما بت أذكره

وطرفة الأكل الوستان وسنان^(٢)

إني لأغنم وصلاً في تمنعه

وعطفه ، وكلا الوصلين مفتان

يحاول الشاعر أن يبرهن على ما في نفسه من حب وشوق لمحبوته ، فهي ليست من أعمار من يلقي من النساء وليست من لون ما للنساء من قامات وأشكال ؛ إذ تمتاز بجمال يخالف جمالهن فهي جوهرة ؛ لما تحمله بين جنباتها من نفس أبية تعز على كثير من الناس ممن يتمتعون بالجمال الحسي الظاهر .

ونلاحظ من هذا أن الشاعر لا يتغزل بالجمال الحسي للمرأة ، أو التعلق بمفاتنها وإظهارها ، وهذا بخلاف " ابن الرومي " الذي تعلق بالجمال الحسي الظاهر ، فراح يصف المرأة وصفاً حسياً دقيقاً . لعل ذلك يحد من ثورته نحو شهوة الحس والمتعة ، لكن " العقاد " يرى محبوبته وقد تجملت بهذه النفس الغنية بالعزة والكرامة . فهي في مجملها جوهرة مكنونة ، جعل من نفسه رقيباً عليها ، وهولا يملك منها شيئاً . بل إنه من شدة غيـرته عليها يجعل عليها عيوناً ورقباء يحرسونها من نظرات الآخرين .

١- صغو : صفا إليه يصغى ويصغو صغوا وصغوا : مال ، وأصغى إليه رسا : أماله . إرغان : الإصغاء إلى القول وقبوله .

٢- وسنان : يقال إمراة وسنى ووسنانية : فاترة الطرف شبهت بالمرأة الوسنى من النوم ووسنان الثانية : أي الذي أخذته سنة من النوم .

ويؤكد الشاعر على أن محبوبته صعبة المنال ، وما ناله من وصل إنما كان عرضاً قليلاً ، دون سابق موعد مما يشعره بفقدائها الذي هو كل حظه منها .

لذا نراه يتطلع إلى نظرة من عينيها ؛ لتضيء قلبه الذي أظلم وأضرب بغيابها عنه ، وتدللها عليه ، الأمر الذي جعله لا يغفل ولا ينام ، فقد أفلت النجوم والكواكب ، وهو يقظ يتمنى لقاءها ؛ ليسكن من روعة قلبه المضطرب ، ويطفيء من ثورة نفسه المتشوقة إلى هذا اللقاء ، ونلمح هذا الإحساس من قوله :

لو أستطيعُ لوقَّاهُ وظلَّاهُ

قلْبُ تَنامِ الدَّراري ، وهو جَوْلانُ

لكن الشاعر لا يملك تجاه هذا التشوق إلا أن يهدي محبوبته تلك الأحلام والأمانى التي هي من وحي جمالها ، في صورة تبرهن على طهارة نفسه وعفتها . فهي أي الأحلام تتسم بالحياء والطهارة فهي على صورة الحور العين والملائكة والولدان المخلدين ، فهو لا يريد أن يفزعها في مهدها ويريد أن تستيقظ على شدة الحمايم وغناء الطيور .

وهذه صورة تتناسب مع ما عليه محبوبته ، من النعيم والعيش الرغد الذي تتقلب فيه ليلاً ونهاراً .

ولما أحس الشاعر باليأس من لقاءها والوصول إليها جعل من قلبه - في جنح الظلام - قريباً على أحلامها لعله يحظى بسماع تلك الأحلام ، ولما كان هذا صعباً إدراكه فقد رجع الشاعر إلى نفسه وما أصابها ، فأيقن أنه لا يملك إلا أن يعيش على ذكراها ويكتفي بالسهر والتفكير في جمال عينيها ، ولم لا وقد رأى في تمنعها وصلا وقرباً وفي لقاءها وعطفها فتنة ومتمعة أو كلا الوصلين مفتان .

وهكذا نرى أن الشاعر قد أحب محبوبته في قريها ووصلها ، كما أحبها في بعدها ونأيها وتدللها ، مما يدل على صدق شعوره وإخلاصه في حبه لها .

كما نلاحظ أنه حب تسامت فيه النفس عن غريزة الشهوة والحس ، بل يكفيه أن يبیت ليلة مفكراً في جمالها وحسنها دون أن ينعم بلقياها ، مهما كلفه ذلك من شقاء .

ومن هذا نرى أن " العقاد " قد استطاع أن يعبر عن رأيه في الحب والمرأة ، فرأى أن الحب لكثرة عناصره أقرب إلى الشقاء منه إلى السعادة لأنه عرضة لافتراق الهوى في النفس الواحدة حين تتناقض الرغبة والكرامة أو تتناقض أسباب الألفة وأسباب النفور ، وعرضة لافتراق الهوى بين نفسين اثنين لا تزول الحواجز بينهما كل الزوال وإن أفرط في المودة والوفاء ^(١) .

ومع ذلك فلا بد للإنسان من خوض تجربة حب ؛ ليعرف نفسه ؛ إذ إن الإنسان لا يجد نفسه في شيء كما يجدها في الحب . وأنه لا يعرف ما فيها من قوة وضعف ، ومن عطف وجمود ، ومن رحمة وقسوة ، ومن خفايا وظواهر ومن فجیعة وضحك ، ومن حكمة وحماسة .. من إنسانية وحيوانية إلا من خلال الحب الذي هو ومعرفة النفس صنوان ^(٢)

لذا فقد رأيناه وقد أضناه الحب ، وأصابه السهاد والقلق ، مع علمه أن المرأة التي استحوذت على قلبه هي من أكبر حبال الحياة ، ومن تعلق منها بسبب فقد تعلق من الحياة بأسباب ، وخاض من الدنيا في أعماق الغمرات ، ولا يرفض المرأة والحب إلا من يرفض الحياة ^(٣)

١- أنظر هذه الشجرة عباس محمود العقاد ص ١٨٥ .

٢- أنظر ، يسألونك - العقاد ص ٤٨ .

٣- أنظر ، مضالعات في الكتب والحياة - العقاد ص ١٤١ .

وإذا كانت هذه نظرات 'العقاد' ورأيه في الحب ، فلا غرابة أن نسمع منه تلك النغمات العذبة الساحرة التي أباح فيها بمكنون نفسه ، ورأى الغنم في تمنع المحبوبة ووصلها على السواء .

ويستمر العقاد في التعبير عن تجربته من خلال دقات شعورية فياضه فيقول :

ما ضرَّ من نالٍ في حينِ سَعادتهِ
 إن فاتهُ في طَوِيلِ الدَّهرِ أحيان
 إذا جنيتَ مِنَ الأيامِ زَهْرَتَها
 فأقنَعِ فسائِرَها شَوَكٌ وَعِذَانٌ^(١)
 ولا وَرَبِّكَ مَا بِالنَّفْسِ مَقْتَنَعٌ
 أكانَ نَجحَ لَها أم كانَ حِرمانٌ^(٢)
 فإن رَوينا ، فبعضُ الرَئى مَظماةُ
 وأن ظَمِننا ، فَمَ يرِناحُ ظمآنُ
 أيُ الفَريقينِ أحمى لَهفَةً ووجى؟
 من ذاقَ أو لَم يَذقُ ، فالكلُّ لَهفانُ^(٣)

يا ليلَةَ حُطمتِ أنوالُ حائِكِها
 فلا يُحاكُ لَها في الدَّهرِ ثُنيانٌ^(٤)

١- عيدان : كل ما جرى فيه الماء من الشجر .

٢- نجح : النجاح والنجاح : الظفر بالشيء والفوز به .

٣- أحمى : حمى النهار ، وحمى التتور حمياً أي أشد حره وحمى الفرس حمى : سخن وعرق . والمعنى : أي للفريقين أشد لهفة . وجى : الوجى التعب والخفى وللتتور ، ووجى : لتوعن المشى .

٤- ثنيان : الثنى من الرجال بعد السيد وهو الثنيان ، والثنيان بالضم الذي يكون دون السيد في المرتبة . ويقال للذي يجيء ثانياً في السواد ثنيان وثنى . والمعنى أن هذه الليلة ليس لها نظير في الجمال والبهاء ، حاك : أصله حوك يحوكه حوكاً وحياكاً وحياكة : نسجه ورجل حلافك أي ناسج .

العيش من قبلها شوقُ نَعِمَتْ بِهِ
 والعيش من بَعْدِهَا ذِكْرٌ وَتَحْنَانُ
 طالتْ ولا غرو فالجَنَّاتُ خالدةٌ
 وفي الوِصَالِ مِنَ الجَنَّاتِ أَلوانُ
 أَصْبَحَتْ واللهِ لا أَذْري بِهَجْتِهَا
 أَليلةٌ سَأَلْتِ أُمَّ بِلْكَ أزمانُ
 وكيفَ لا وهي شَطْرٌ حينَ أَحسَبُها
 والعِزُّ شَطْرٌ ، وفيها عنه رُجْحَانُ^(١)
 لَقَدْ سَقَانَا الهوى خَمراً مَعْتَقَةً
 صَبَابِها قَبْلَنَا شَيْبٌ وَشُبَّانُ^(٢)
 هيهاتَ لا تَبْلُغُ الصَّهْبَاءُ نَشوتِها
 ولو تَتَاولَ منها البَحْرُ نَشوانُ^(٣)
 فاضَ الهيامُ على قَلْبِي ففاضَ بِهِ
 نَبَعٌ لَهُ من وراءِ الدَّمعِ شَطانُ^(٤)
 وددتُ والدَّمعِ في عينيَّ مَحْتَجِزُ
 لو سَأَلَ مِنْهُ على خَدِي غَدْرانُ^(٥)

١- رجحان : رجح الشيء يرجع وجوحاً ورجحاناً (بالضم والفتح) مال وتقل والمعنى أن هذه الليلة تزيد عن شطر عمر الشاعر .

٢- معتقة : أي التي حبست زماناً في طرفها حتى عثقت أي كدمت - صبا يصبو صبوةً وصبوا أي مال إلى الجهل والفتوة ، والمعنى أن هذه الخمر فتنت الشباب والشيب .

٣- نشوان : يقال نشيء الرجل من الشراب نشوا ونشوة : سكر فهو نشوان أي سكران .

٤- شيطان : شواطىء .

٥- محتجز : أي تحجز الدمع في العيون . غدران : مستنقع ماء المطر

أُسميتُ أرشُفُ شَهداً من مرَاشِفِهِ
 والسَّلَسَلِ بِيَلِ بِلَعْلَينِ غُزْرانُ^(١)
 والنَّيْلُ تَجْرِي لَهُ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ
 جَدَاوِلُ لَوْلُؤِيَّاتٍ وَتُغْبَانُ^(٢)
 يَقُودُنَا حَيْثُ شَاءَ المَوْجُ وَاطَّرَدَتْ
 أَمَواهُ ، فَكَأَنَ الفُلكُ وَسَنانُ
 حَتَّى تَصْرُمَ جَنحَ اللَّيْلِ وَانْتَبَقَتْ
 مِنْ كُلِّ مَطْلَعٍ لِلصَّبْحِ عِمْدانُ^(٣)
 فَمَا أَفْقَنَّا وَعَيْنُ الصُّبْحِ شَارِقَةٌ
 وَمَا هَجَدْنَا وَغُولَ اللَّيْلِ سَهْرانُ^(٤)
 بِنَا سِوَى الشَّمْسِ وَالشُّهْبَانِ نَرِصُدُهَا
 شَمُوسِ أَنْسِ مَضِيَّاتٍ وَشُهْبَانُ

ما زال الشاعر يسجل بقريحته ويرسم بريشته أصداء نفسه الحالة، وما يعتمل فيها من حب وشوق، تجاه محبوبته وما في طبيعتها من جمال روحي فطري، يُدخل السعادة والنعيم في قلبه، ولو كانت لحظة من اللحظات أو ليلة من الليالي، وهذه اللحظات كفيلة بأن تجعل المحب قانعاً بما جناه فيها من وصل وقرب، وبخاصة وأن الحياة لا تسير على نهج واحد من الصفاء، لكن النفس مجبولة على الطمع وعدم القناعة، سواء أكان في ذلك فوزها أم هلاكها وحرمانها.

١- أرشُفُ : رَشَفَ المَاءَ والرَّيْقَ : مَصَّهُ . والرَشَفُ ماءٌ قَلِيلٌ يَبْقَى فِي الحَوْضِ . والرَشُوفُ : المِراةُ الطَّيْبَةُ العَمِ .

٢- تُغْبَانُ : التُّغْبُ . الغَديرُ يَكُونُ فِي ظِلِّ جَبَلٍ لَا تَصِيبُهُ الشَّمْسُ ، فَيَبْرُدُ مَواهُ وَالجَمْعُ تُغْبَانُ وَتُغْبَانُ

٣- عِمْدانُ : عَمُودُ الصَّبْحِ : ما تَنَلَّجُ مِنْ ضِوئِهِ وَهُوَ المِستَظْهِرُ مِنْهُ ، وَسَطَعَ عَمُودُ الصَّبْحِ عَلى التَّشْبِيهِ بِذَلِكَ

٤- هَجَدَ : نَامَ . وَالهَاجِدُ النَّائِمُ .

ويعيش المحب في كلا الحالتين في لهفة وشوقٍ وتعطشٍ ذاق الحب أم لم يذقه ، وهذا ما جعل الشاعر يتساءل قائلاً :

أيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحْمَى لَهْفَةً وَوَجَى؟

من ذَاقَ أَوْ لَمْ يَذُقْ ، فَالْكُلُّ لَهْفَانُ

وعلى الرغم من ذلك فإن سعادة الحب لدى " العقاد " لا تغيب عن نفسه وقلبه، فنراه يتحدث عن النعيم وليالي الوصال التي قضاها مع صاحبتة ومحبوبته فيقول واصفاً تلك الليلة : أنه نعم فيها بالوصل من محبوبته ، وأنه لجمال هذه الليلة وما فيها من نعيم يصعب تكرارها ؛ إذ لا نظير لها في الجمال ، فقد حطمت أنوال حائكها ، وقد كان العيش قبلها شوقاً ينعم به وخلالها وصلاً ونعيماً ونغماً ، وبعدها كان العيش ذكراً لها وتحناناً إليها ، ولم لا تكون بهذه الصورة ، وقد طالبت وطال فيها الوصل والقرب ، ولا عجب في طولها ؛ لأن الجنات خالدة ودائمة وفي الوصال والنعيم ألوان من هذه الجنات . بل إنه لطولها وتمتعه فيها بهذه الألوان من النعيم لا يدري أهي ليلة أم أنها أزمان ، ويبالغ الشاعر في ذلك فيرى أنها تساوي شطر عمره بل تزيد عليه وتثقله .

ويستمر الشاعر - بإحساسه المتوقد وعواطفه الجياشة الصادقة في رسم ما حدث في هذه الليلة من ألوان النعيم والقرب ، فيرى أنها كانت تشبه الخمر المعتقة التي تفتن الشيب والشبان ، لكنها لم تؤثر فيه ولم يغيب عن وعيه ؛ إذ إنه يحيا بهذا الحب الذي فاض على قلبه وتمنى لو سال الدمع من عينيه أنهاراً تعبيراً عن فرحه وسروره بهذا اللقاء ، الذي نال فيه كل ما يشبع نهمه ويحد من شوقه ويبل غلته وظمأه بهذا الرشف العذب ، الذي يشبه السلسيل في عليين .

وكعادته يختلط بالطبيعة التي طالما لجأ إليها ، ليرسم صورة هذه الليلة فيرى أنه قد أحيط بجداول النيل الرقاقة الصافية تجري هنا وهناك ويحملة الموج حيث يشاء ، وغول قائم على حراسته ، ونور الكواكب والنجوم تضيء جنبات الكون حتى صار الليل وكأنه نهار مضيء .

من الملحوظ هنا أن الشاعر قد جعل الليل ظرفاً للهناء ولقاء المحبوب والاستمتاع بالقرب منه ، فانقشع ظلامه وصار نيراً كأنه نهار ، وقد أطال الشاعر الليل حتى رأى هذه الليلة وكأنها أزمان ، لكنها في النعيم والهناء . وهذا بخلاف بعض الشعراء الذين شكوا من طول الليل وشدة ظلامه ، لما تحملوه من الهموم والأحزان . بل إنهم جعلوا الليل سبباً في تلك الهموم . فهذا " امرؤ القيس " يشكو من طول ليله وما نزل به من أنواع الهموم حتى تمنى زوال هذا الليل ، فيقول :

ألا أيُّها اللَّيْلُ الطويلُ ألا انجلى

بصبح وما إلا صباحُ منك بأمثل

فيا لك من ليلٍ كأن نجومه

بأمراسٍ كتانٍ إلى صمِّ جنْدلٍ

ولعل هذا يرجع إلى نفسية الشاعر ومزاجه ، وبخاصة إذا علمنا أن " العقاد " قد رأى النعم في وصل المحبوبة وهجرها على حد سواء . فيعيش ليلة حالماً بها ونهاره ذاكرة لها وهذا لم يتوافر " لإمريء القيس " الذي جعل من ليلة ظرفاً للهم والحزن .

ويستمر الشاعر في وصف هذه الليلة ، يقول :

سَمِعْتُ أَعْدَبَ مَا يَفْتَرُ عَنْهُ فَمَمٌ

من الحديث وما سَاعَتُهُ أَذَانٌ^(١)

فصاحَةٌ لَثَمْتُ رُوحِي بِهَا شَفَةَ

لو ذَاقَهَا النَّحْلُ لَمْ يَمْرَأَهُ رِيحَانٌ^(٢)

أَنْفَى لَرَيْنِ النَّهْيِ مِنْ كُلِّ مَا نَقَّشَتْ

عَلَى الصَّخَائِفِ أَعْرَابَ وَيُونَانَ^(٣)

تَهْتَزُّ بَيْنَ طَوَايِا النَّفْسِ نَبْرَتُهَا

كَمَا يَمُوجُ لَضَوْءِ الشَّمْسِ خَيْطَانٌ

نَرِ الدَّسَاتِينِ تَخْدُو وَهِيَ ضَارِبَةٌ

مِنْ لَيْسٍ تَحْدُوهُ أَشْوَاقٌ وَأَحْزَانٌ^(٤)

وَأَطْرَبُ لَصَوْتِ تَعَالَى أَنْ يُحَاكِبَهُ

حَاكٍ ، وَتُعْرَبَ عَنْ فَخْوَاهِ أَفْنَانٌ

مَا أَنْشَدَ النَّاسُ إِلَّا كِي تَذَكَّرَهُمْ

صَوْتِ الْحَبِيبِ أَنْاشِيدَ وَالْحَانَ

وَلَا تَعْلَمَ وَزْنَ الْقَوْلِ شَاعِرُهُمْ

إِلَّا وَكَانَ لَهُ بِالنَّبْضِ مِيزَانٌ

١- يفتَر : فتر الماء : سكن حره ، وفتَر السحاب أي قطر وفرغ ماؤه ، والمعنى أنه سمع كلاماً عذبا رقيقا - ساغ : ساغ

الشراب في الحلق يسوغ سوغا وسواغا : سهل مدخله في الحلق ، وشراب سانغ وأسوغ : عذب .

٢- لثم : اللثام . لثمت : إذا أراد التقبيل ، ولثمت فاما إذا قبلتها ، واللثام ما كان على الفم من النقاب - مرأ : يقال مرأ

الطعام . صار مرييا . ويقال مريء لي هذا الطعام مرأة أي استمرته .

٣- النهي : العقل . أنفى : أشد نفيا وإبعادا .

٤- الدساتين : جمع دستان وهو الوتر . والمعنى ان المعازف بأوتارها إنما تستحث إلى الشوق من لاشوق عنده . وأما

من هو مفعم بالشوق فلا حاجة به إليها

ما زلنا مع الشاعر وهو يصف لنا - بإحساسه الرفيف ونفسه المفعمة بالحب والشوق - هذه الليلة التي نعم فيها بوصول محبوبته ، فلم يدع جانباً من هذه الليلة إلا وصفه وصفاً ينم عن حب يلف كيانه ، ويجعله في حالة من الهيام والوجد . فاستمتع بفصاحتها وحديثها الحلو المعسول الذي سرى إلى الأذن سهلاً مستساغاً ، وذاقت روحه طعم حلوته التي لو ذاقها النحل ما استمرأ الريحان .

ولما كانت هذه هي مشاعره الفياضة بالحب والشوق ، أراد أن يبين أن هذه المشاعر نابغة من قلبه وعقله ، وليس عليهما عتامة أو غمامة أو جهالة؛ كي لا يظن أحد أن الشاعر لا يعي ما يقول ، أو أن ذلك مجرد حُلم ، لكنها الحقيقة والإحساس الصادق الذي صور نبرات المحبوبة تسري بين حنايا نفسه ، وتموج كما يموج الخيط الرقيق من ضوء الشمس الذهبي ، في نشوة وفرح .

كما أن هذا الإحساس وذلك الشوق لا يحتاج إلى ما يستحثه أو يخرج من أعماقه ، إنه شوق طبيعي تعلق بقلبه ، جعله يطرب لصوت محبوبته ، ذلك الصوت الذي لا يشابهه صوت في الجمال والرقّة والعذوبة ، والذي ما أنشد الناس إلا أملاً في سماع مثل هذا الصوت الرخيم والنغمات العذبة الرقيقة ، وما نظم الشعراء إلا على تلك النغمات والترنيمات .

وهكذا استطاع الشاعر التعبير عن تجربته ومشاعره ، التي صدر فيها عن إحساس غامر بالحب والشوق ، تمثل في هذا اللقاء وفي هذه الليلة ، التي ذاق فيها طعم النعيم والقرب من المحبوب ، وفاض فيها الحب على قلبه فراح يرشف شهيداً أعذب من السلسيل في عليين ، وطرب لصوتها الرخيم العذب ، وفي هذا دلالة على أن "العقاد" قد أحب المرأة ودان لها . أحبها بالجسم والروح معاً ، أحب قدها ووجهها وصوتها وراح يذرف الدموع الملتهبة من شدة الوجد ويعب من الرشيف .

ويقبل الوجه واليدين ، لعله يبرد غلته ويطفئ ظمئه ، وفي قصيدة أخرى ما يؤكد هذا المعنى :

وَالثَّمَّةُ كَيْمًا أَبْرَدَ غَلَّتِي

وهيهاتَ لا تَلْقَى مَعَ النَّارِ رَأْوِيَا

فَقَبَلْتُ كَفَيْهِ وَقَبَلْتُ ثَغْرَهُ

وَقَبَلْتُ خَدَيْهِ وَمَا زِلْتُ صَادِيَا

كَأَنَا نَذْوُ الْبَيْنِ بِالْقَرَبِ بَيْنَنَا

فَنَشْتَدُّ مِنْ خَوْفِ الْفِرَاقِ تَدَانِيَا

وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يُقبل على المرأة أولم يفعل ذلك لجمالها أو

للتشهي أو التلهي وإنما أقبل عليها لذاتها^(١) ، وهو يصرح بذلك ، فيقول :

نَبِّئْنِي فَلَسْتُ أَعْلَمُ مَاذَا

مِنْكَ قَلْبِي بِحَسَنِهِ مَشْغُوفٌ

كَلَّ حَسَنِ أَرَاكَ أَكْبَرَ مَنْةٍ

إِنْ مَعْنَاكَ تَالِدٌ وَطَرِيفٌ

لَسْتُ أَهْوَاكَ لِلجَمَالِ وَإِنْ كَا

نَ ذِكَاؤُكَ يَنْزِي النَّهْيَ وَيُشَوِّفُ

لَسْتُ أَهْوَاكَ لِلدَّلَالِ وَإِنْ كَا

نَ ظَرِيفًا يَصْنُبُو إِلَيْهِ الظَّرِيفُ

١- أنظر، الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد، د/ نعمات أحمد فؤاد ص ١١٧ ط ٢، دار المعارف ١٩٨٠.

ومن ثم نرى أن "العقاد" أحب المرأة جسداً وروحاً وجمالاً، حباً حقيقياً غير عنه في كلمات تنم عن خبرته في فهم الحب، فيقول^(١): "عند الحب سهر أحلى من حُلْم النوم، ونوم أيقظ من سهر الخلود... عند الحب نور يطوي الشمس والقمر وموعد ينسى الليل والنهار... عند الحب حياة يهون من أجلها الموت، وموت تباع من أجله الحياة".

وما زال يجسد هذه المعاني في بقية قصيدته (الحب الأول) فيقول:

يا أُمْلَحَ النَّاسِ هَلْ أَكُنْتُ أَكْبَرَهُمْ

روحاً ، فَيَنْفَقَا رُوحَ وَجْهَمَانِ^(٢)

صَدَّقْتَ بَاطِلَ مَا قَالُوا كَأَنَّهُمْ

لا يَكْذِبُونَ ، أو أن العَدْلُ قرآن^(٣)

أما عَلِمْتَ بِأَنَّ النَّاسَ ألسنة

سودَّ لها غير ما تُبَدِّيه إِبْطَانُ^(٤)

أحرى مزاعمهم بالشُّكِّ أسيرها

فالحقُّ ممتدٌّ والإفكُ عَجْلانُ^(٥)

وربَّ قولة زورٍ قالها رجلٌ

منهم قَطَافَ بها في الأرضِ رُكبانُ

١- آخر كلمات العقاد ، عامر العقاد ص ٦٧ ، دار المعارف ١٩٦٥ .

٢- ملح : الملح خلاف العنب من الماء ، والملح : الحسن من الملاحه ، وقد ملح يملح ملوحة وملحا : حسن وهو المقصود هنا وعليه يكون ملح من أفعال الأضداد .

٣- العذل : اللوم .

٤- إبطان : الباطن خلاف الظاهر ، والباطن المحتجب عن أبصار الخلاق وهو اسم من أسماء الله .

٥- ممتد : متأن في الأمر وهو من الفعل تود أو من أاد وتكون التاء في الأولى غير أصلية - الإفك : الكذب وقيل الإثم ، أو المعنى هنا الكذب والباطل . عجلان : العجل والعجله السرعة خلاف البطء ، والمعنى أن الحق ثابت والكذب والباطل زائل .

تداولوها فراحَت في مَذاهِبهم

شريعةً نَقَضُهَا كُفْرًا وَعِصْيَانُ^(١)

ما كثرة المثبتين الأمر تثبته

ولا بقلبتهم للحق إيهان^(٢)

فإن ألف ضريرٍ ليس يعدلهم

بالمبصر الفرد يوم الشك ميزان

فاضرب بنعلك دعواهم فكلهمو

خواض ليلٍ، وهم في الصبح عميان^(٣)

وبعد أن أسمعنا الشاعر نبضات قلبه ، وكشف لنا عن خلجات نفسه ، واستمتاعه بالقرب من المحبوب ، حشَى من الواشين والحانقين ، أن يزرعوا بذور الشقاق والبعد بينه وبين محبوبته . فراح يناجيه ويناديه أن يكون أكبر من هؤلاء جميعاً روحاً وجسماً ، وألا يصدق الناس فيما يقولونه ؛ إذ الكذب واللوم سجية مركوزة في طبائعهم ، وأنهم يظهرن بألسنتهم السود خلاف ما يبطنون ، وأن مزاعمهم باطلة لا بقاء لها في وجه الحق الذي يبقى ويدوم . " فأما الربذُ فيذهبُ جُفاءً وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكُتُ في الأرض "

ويحاول الشاعر جاهداً أن يبريء ساحته ما نسب إليه ، وأن ما حدث ما هو إلا قولة زور قالها واحد من الناس فسرت بين الناس كسريان النار في الهشيم ،

١- نقض : النقض إفساد ما أبرم ، والنقض : المراجعة والمرودة والمخالفة والأخيرة هي المعنية في البيت والمعنى أن مخالفة ما تعارف عليه الناس - ولو كان باطلاً - أمر مستحيل في عرفهم .

٢- إيهان : الإيهان الخزي والتحقير . والمعنى : أن الحق لا يهين ولا يخزي ولو قل انتصاره .

٣- خواض : أصل الخوض المشي في الماء وتحريكه ، ثم استعمل في التلبس بالأمر والتصرف فيه في غير وجهه حيث أمكن ، والخوض في الكلام ما فيه الكذب والباطل وهو المقصود في البيت . ومنه قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ زَايَتْ الَّذِينَ يَحْضُونَ فِي ۖ ، ابْتِئْنَا فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَحْضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۖ ﴾

حتى أصبحت عقيدة وشريعة في أذهانهم ، لا يستطيعون الفكك منها أو الرجوع عنها . لكن هذا ليس دليلاً على صدقهم . فالحق لا يضيع بقله أنصاره كما أن الباطل لا يدوم بكثرة من يؤيدونه .

وهذه حقيقة صاغها الشاعر ؛ ليبرهن على عمق تجربته في الحياة ، ومعرفته بطبائع الناس ومجريات الأمور .

ولذا نراه يأمر محبوبه بأن يضرب كلام الناس بنعله وأن يضعه تحت أقدامه فكلهم كذابون وخواضون ويصرفون الأمور في غير نصابها ، وعندما ينبلع نور الحق يتعامون عنه ؛ إذ يتخذون من الليل ستاراً لمأربهم وشورورهم ، ولا يستطيعون مقاومة الحق والنور الذي يؤدي أعينهم ، ويصيبهم بالعمى .

ولعل هذه الدفقات الشعورية ، تدل على صدق الشاعر في حبه ، خاصة وأنه الحب الأول في حياته ؛ لذا نراه بكل ما أوتى من قوة شعورية ، وإحساس مرهف ، يحافظ على علاقته بمحبوبته ، مهما وشى الواشون وزعم المبطلون .

وهذه حقيقة تصلح للناس أجمعين ، وخاصة بين المحبين . كما يمكن أن تكون منهجاً يسيرون عليه في كل علاقاتهم وتعاملاتهم .

وفي النهاية يلجأ الشاعر إلى ربه ، ويناجيه ويطلب أن يهبه بداراً ينير به ظلام قلبه ، كما وهب الليل بداراً أضاء الأكوان .

ثم ينفث هذه النفثة التي توحى باغترابه بين أهله وذوي رحمه وأصحابه وجيرانه الذين ليس له دخل في انتسابه إليهم ؛ لذا فإنه يريد أن يؤنس نفسه لا بهؤلاء الناس ، وإنما بالحوار العيين . رمز الطهر والصفاء ، والنعيم الذي لا ينقطع ، والكواكب النيرة التي تهدي الضالين ، وتنير دروب السالكين ، وفي هذه النفثة يقول:

يا واهب الليل بذراً هب لمشبهه

بذراً يضيء له والقلب غيمان^(١)

أنا الغريب ولي بين الورى رجم

بالرغم مني ، وأصحاب جيران^(٢)

وابعث لنا الحور فالإنسان ليس لنا

بخالص منه أحباب وأخدان^(٣)

أو الكواكب سرباً بيننا غزلاً

إن القضاء بذاك السرب ملأن

وهكذا طوف بنا الشاعر من خلال هذه التجربة ، وأوقفنا فيها على صدق

مشاعره ورهافة إحساسه ، ورأينا كيف استطاع أن يعبر عن تلك التجربة تعبيراً

ينم عما في نفسه من حب وشوق .

١- غيمان : الغيم : السحاب وقيل : هو ألا ترى شمساً من شدة الدجى وجمعه غيوم وغيام .

٢- الورى : الخلق وقال ابني جنى أن الورى لا يستعمل إلا منفياً . وسوغ هنا لأن كلام العقاد في معنى النفي فكأنه يريد أن يقول أنه بالرغم من كثرة أهله وأصحابه إلا أنه ليس له في الورى حبيب .

٣- أخدان : الخدن والخذين : الصديق والجمع أخدان والخذن هو الذي يخادك ، فيكون معك في كل أمر ظاهر وباطن ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا مُجِدَّتِ أَخْدَانٍ ﴾

اللامح الفنية والتعليق

هذه القصيدة عارض بها " العقاد " قصيدة " ابن الرومي " النونية ، التي قالها في مدح الوزير " اسماعيل بن بلبل ، وكان بن الرومي قد بدأها بمقدمه غزلية طويلة ، ورائعة في وصف محبوبته . وصفاً حسياً ومعنوياً ، ثم وصف النساء عامة وما يتمتعن به من كيد ومكر وخداع . ثم انتقل إلى غرضه الأصيل وهو مدح الوزير إسماعيل بن بلبل ، لكن العقاد حينما عارضه لم يعارضه إلا في المقدمة الغزلية التي راقت له وأطلق على قصيدته عنوان (الحب الأول) ، ولذا فإن الغرض الأصيل في هذه القصيدة هو الغزل كما يوحي عنوانها .

وإذا كان " ابن الرومي " قد نهج في قصيدته التي مطلعها :
أجنت لك الوجد أغصان وكثبان

فيهن نوعان تفاح ورمان

وفوق زينك أعناب مهدلة

سود لهن من الظلماء ألوان

نهج القدماء في إنشاء القصيدة الغنائية ، لكن بصورة متطورة ، فرضتها طبيعة الحياة في العصر العباسي ، فإن العقاد يعد رائداً من رواد التجديد في الشعر ، وأحد الداعين إلى بناء القصيدة بناء موضوعياً متماسكاً؛ بحيث لا يستقل بيت عما سبقه وما لحقه ، ولا يمكن الانتقال من موضوع إلى آخر ، لذا فقد جعل موضوع معارضته " لابن الرومي " هو الغزل ، لكنه على الرغم من دعوته إلى الوحدة الموضوعية والعضوية في القصيدة إلا إنه بدأها بمقدمة في وصف الطبيعة وسحرها ؛ تمهيداً للدخول في موضوعه الأصيل وهو الغزل ، وهو في ذلك متأثر " بابن الرومي " الذي عشق الطبيعة ورأى فيها جمال المرأة وحسنها .

والحق أن مقدمة قصيدة "العقاد" جاءت متناسبة مع الغرض الأصيل لموضوعها الذي وضعت من أجله وهو الغزل؛ إذ إن هناك علاقة - في مفهوم الشاعر - بين الطبيعة والمرأة؛ لذا تأتي المقدمة وكأنها جزء من القصيدة، لا يشعر القارئ بأن هناك فصلاً بين المقدمة والموضوع.

وأول ما يطاتعنا في هذه القصيدة هو أن "العقاد" قد وظف الطبيعة واستخدمها بما يتناسب وميوله واتجاهه في الغزل، فنراه قد استعان في موضوعه بعناصر الطبيعة الجميلة الساحرة، من زهور ذات رائحة شذية، وورود ذات ألوان باهرة، تثير النفس وتحرك العاطفة، وتبعث على الراحة، وتلفت الأنظار، وهذا دليل على أن غزله معنوي، تحس من خلاله حرارة الشوق وتحرق الوجدان، وليس غزلاً حسيماً مادياً. والآيات من ١: ٤ توحى وتؤكد صدق ما ذهبنا إليه.

وهكذا نرى أن الشاعر قد وظف الطبيعة توظيفاً يتلاءم مع ميوله واتجاهه في الحب والغزل، كما نل استخداماً للطبيعة على حبه لها وولعه بما.

وباستقراء القصيدة نرى أن "العقاد" قد عالج موضوعه بما يتوافق وتوجهه في الحب والغزل، وقد سيطرت عليه نزعته الخاصة في هذا الموضوع.

فحينما ننظر إليه لنرى كيف عالج وصف محبوبته، وعبر عن تجربته نجد أنه وصفها بالجمال الخالص في مظهرها ومخيرها وروحها وجسدها، وفي هجرها ووصلها، ولعل ذلك راجع إلى مزاجه وهيامه بحبه، فاستوى عنده وصلها وهجرها، ورأى فيهما متعة ولذة، وقد استطاع "العقاد" أن يعبر عن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس بقوله:

بالغصن شبه من ليس يعرفه

وإنما هو الرائين بستان

يا من يراني غريقاً في محبته

وجدأ ويسألني هل أنت غصان

واضعية الحب أبدية وأكتمه

ومن عنيت به عن ذاك غفلان

إن التعاطف بالأرواح بغيتنا

وفي الوجوه على الأرواح عنوان

كما نلاحظ في الأبيات إشارة صريحة إلى أن الشاعر لا يريد التواصل المادي، بل يهدف إلى التواصل والتعاطف الروحي الذي يملأ بالأنس والبهجة والسرور أوقاتاً طويلة. ولا يتحقق ذلك من التواصل المادي، الذي يزول بزوال أسبابه ودواعيه. ومن ثم نستطيع أن نقول أن الشاعر قد أعطانا خلاصة فكره وعصارة تجربته وخبرته في الحب والغرام ومعرفته بطبائع النساء.

هذا من ناحية الموضوع وكيف عالجه الشاعر وسار فيه، أما من الناحية الشكلية فإننا نراه قد اختار ألفاظه ومعجمه الشعري بدقة فائقة وبراعة عالية حيث دلت ألفاظه وتراكيبه على ما يدور في خلد من مشاعر وأحاسيس، وكشفت عن تجربته وعاطفته كشفاً صحيحاً، وهذا ما ينبغي على الشاعر المجيد حين يريد معالجة تجربة من التجارب، فعليه أن يعتمد لنفسه كمّاً ضخماً من الكلمات التي يخدم أو يعرض بها موضوعاً ما، فيجب أن تكون هذه الكلمات ملائمة ودالة على هذا المعنى الذي يسوقه. وهذا ما يطلق عليه المعجم الشعري، وهو بهذا الوصف يساعدنا على معرفة الشاعر ونفسيته، وذلك من خلال نوعية الكلمات التي يكثر دورانها في شعره؛ إذ إن ما يعبر الشاعر عنه حقاً هو طبعه وشخصيته العميقة، وما يفضل وما ينفّر منه، ومظهره ونمط حياته ونفوذه واتزانه وحيويته وفتوره.

ولذا فإن اختيار الشاعر لكلمات معينة يرجع لأسباب نفسية، أو لاتجاه شعري؛ إذ إن لغة الشاعر جزء من تركيبته النفسية. وأن انتقاءه للكلمات

والمفردات يعتمد على طبيعة ما يريد الإفصاح عنه من داخل تكوينه الذاتي ، ومما ترسب من أعماقه .

وبناء على ذلك . فإننا إذا نظرنا إلى معجم " العقاد " الشعري في هذه القصيدة نرى أنه كان يعرف الألفاظ والتراكيب التي تولد الانفعال ، كما كانت لديه موهبة وقدرة على وضع الألفاظ في تتابع إيقاعي ، يدل على ما في نفسه من انفعال شعوري ، هذا بالإضافة إلى عنايته باختيار الكلمات التي لها جرس يضفي على دلالة الكلمة ملابسات ومشاعر في نفسه ، أو تكون بعيدة عن النفس البشرية بصفة عامة .

وأول ما يطالعنا في هذه القصيدة من مختارات لفظية هي تلك الألفاظ التي توحى باندماجه في الطبيعة ، وتوحى بمكنون نفسه الشاعرة التي تعشق الجمال الطبيعي ، ولعله متأثر في ذلك " بابن الرومي " الذي كان مبرزاً في هذا المضمار ، ومن هذه الألفاظ ، زهر - أطيبار - أفنان - الربيع - رضوان - وشائع النور - البستان - الأرض حالية - الماء - الشمس - الأفاق صافية - أثمار - النسيم - روض - ورد - الياسمين - أغصان - القرنفل - البنفسج - الليمون - الليل - بلابل - كروان - الصبح - أنوار - الشرق والغرب - أسحار وأصلان - الفضاء - الفردوس - الطبيعة - النهار - شجر - غزلان - الحوت - حمام - الدراري - ظلام - موج - سلسبيل - شهد - النيل - النحل - البدر - الكواكب ، إلى غير ذلك من عناصر الطبيعة ومفرداتها .

كما نلاحظ - كذلك - تتأثر بعض المفردات التي توحى بالحب والسعادة والرضا والتفاؤل ، وتتناسب والموضوع الذي يتحدث فيه مثل : يهنيك - طوباك - ينشد - رضا - نعيم الخلد - باسمه - تضحك - مستأنسات - ألعان - فرح - فرحان - المحب - عرس - محبة - وجد - محبين - الحسن - التعاطف بالأرواح -

حب الجمال - نجوى - أحضان - عفة - ندمان - جوهر - ضوء قلبي - ضاحكة -
 أنعم - وصل - عطف - سعادة - وصال - بهجة - الهوى - نشوان - أطرب -
 أحباب - أخدان - الحور ، إلى غير ذلك من الألفاظ الرقيقة العذبة التي تشيع جواً
 من التفاؤل والحب في داخل القصيدة ، وتوحي بمكنون نفسه العاشقة للحياة
 المتطلعة إلى الحب والجمال .

كما نلاحظ - أيضاً - في معجم " العقاد " الشعري في هذه القصيدة بعض
 الألفاظ الغريبة ، وكان في استطاعته أن يأتي بغيرها ؛ وبخاصة وهو الداعي إلى
 التجديد الشعري وتمسكه وإفادته من تراث الماضي وافتتانه به يصوره جعلت
 معجمه الشعري مميزاً عن شعراء عصره ومدرسته .

ولعل السر في استعماله لبعض الألفاظ الغريبة أنه كان يتعالي بها على
 معاصريه الذين كانوا ينظرون إليه نظرة متواضعة ، من حيث المؤهل الذي وصل
 إليه ، فما كان منه إلا أن استوعب الغريب والمهجور ليتخذ معجماً شعرياً
 خاصاً ليتحدى أصحاب المؤهلات العالية الذين لا يصلون إليه ، أو ليتحدى
 شيوخ الشعراء - آنذاك - من أمثال : " محمد عبد المطلب " و " حفني ناصف " و
 " علي الجارم " من أصحاب مدرسة الأسلوب الذين لا يرون في الشعر إلا
 استعارة لطيفة ، أو لفظاً فخمأً جميلاً . ومن هذه الألفاظ الغريبة : ألاقه بمعنى
 متألقة - إرغان بمعنى إنصات - رقان أي مزركش - روع أي صباحه الوجه
 وجماله - تنصاح أي تنجلي - القنعان أي الذي يرضى بالقليل - البحر النجر أي
 الأصل - الأوهاق أي الأحابيل - ثغبان - أي غدران .

وهكذا نرى من خلال القصيدة أن معجم " العقاد " الشعري قد عبر عن
 حالته النفسية واتجاهه الفكري وتوجهه في الغزل ، إذا اعتبرنا أن الأسلوب هو
 الرجل ، أو أن الأسلوب صورة لصاحبه .

وإذا انتقلنا إلى جانب آخر من الجوانب الشكلية في القصيدة وهو الصورة والخيال ، فإننا نذكر أولاً أن الصورة الأدبية من الأمور التي يركز عليها الشعر . فهي المعرض الذي يعرض فيه الشاعر أفكاره وخواطره ، كما أنها تتلون بعاطفته وانفعالاته وتتكون من الكلمات والعبارات في نسق يخطط له الأديب في اختيار نقطة البداية ولحظة النهاية ، وفي اختيار اللغة المناسبة ، والوزن القادر على الإحياء بالعاطفة الموفقة التي يدل تكرار الصوت فيها أو تنوعه على حالة نفسية مقصودة .

أوهي التركيب القائم على الإصابة في التنسيق - الفني الحي - لوسائل التعبير التي ينتقها الشاعر المطلق من عالم المحسنات ؛ ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى ، في إطار قوي تام محس مؤثر على نحو يوقظ الخواطر والمشاعر في الآخرين .

وهي بذلك تعد أصدق تعبير عما يجول في النفس من خواطر وأحاسيس وأدق وسيلة تنقل ما فيها إلى الغير بأمانة وقوة ، وأجود موصل إلى الآخر في سرعة وإيجاز ووفرة ، كما أنها أجمل وأنضر طريقة في شد العقل والخيال إليها ، وربط الإحساس بها وتجاوب المشاعر لها ، وإحياء العاطفة وسحر النفس .

والصورة بهذا المعنى تحتاج إلى مصور بارع ليجمع شتاتها وينسق ألوانها حتى تكون موحية ومعبرة عن خواطره وأفكاره وتجربته ، وأهم هذه الأدوات الألفاظ والعبارات وشيء من الخيال .

والصورة الرائعة يصل الشاعر من خلالها وبها إلى قلوب الآخرين ، ويؤثر فيهم وإذا نظرنا إلى قصيدة " العقاد " لتتعرف إلى أهم خصائص الصورة الشعرية فيها ، نجد أولاً : أن مدرسة الديوان وعلى رأسها " العقاد " جعلوا الصورة الشعرية وسيلة لإظهار علاقة الشيء بنفس الشاعر، والتعبير عن الأثر النفسي الذي انطبع في وجدانه ومشاعره ، حتى يثير في نفوس سامعيه وقارئيه انفعالاتاً مماثلاً للانفعال

الذي أحس به ، وبذلك نقلوا الخيال - وهو أهم عناصر الصورة - من مجاله الحسي الذي كان يدور فيه وكان يعني بإعطاء صورة للشكل الخارجي للأشياء وتجسيمها لمجرد الجمع بين صفات حسية دون ارتباط بأحاسيس الشاعر ووجدانه ، إلى وسيلة لإظهار مراد الشاعر والتأثير به في نفوس الآخرين .

هذا بالإضافة إلى تجديدهم في الخيال وعدم الوقوف به عند استعمال العرب بل اتجهوا إلى أخيلة أخرى مستقاة من ثقافتهم وقراءاتهم في أدب الغرب ومن حاستهم الفنية المتذوقة للجمال .

لذا فقد انخرط " العقاد " في سلك الشعراء الوصافين الذين يعمدون إلى تجسيد مشاعرهم تجسيدا حسياً في صورة حركية ، ذلك ليبعد الغربة عن نفسه ، وينفض عنه أسباب العزلة ، ويحيل الطبيعة إلى شيء أليف محبب .

وأول ملامح صور " العقاد " أنه ينقل الشيء الحقيقي ، لا كما يبدو للحس ، بل ينقل لنا شكل هذا الشيء في نفسه الشاعرة التي تنظر إلى معاني الأشكال المجردة لا إلى مادتها المحسوسة ، كأن يمضي إلى الطبيعة ليتلقى منها ضروباً عديدة من الإحياء أو ينشد لديها المفتاح الرئيس لأنغامه الكبرى، ثم يخلق من خياله الانسجام الفني الذي يصوغه على هذا الأساس ، يقول " العقاد " في تصوير الربيع والطبيعة :

هذا الربيع تجلى في مواكبه

وهكذا الدهر أن بعدها أن

تفتحت عنه أكماس السماء رضا

وزفه من نعيم الخلد رضوان

وشائع النور في البستان باسمه

والأرض حالية والماء جذلان

الشمس تضحك والأفاق صافية

جلواء والروض بالأثمار فينان

وللنسيم خفوق في جوانبه

وللطيرور ترانيم وأحان

فالصورة تمثل الربيع في جماله وروعته ، لكن الشاعر ينفذ من خلال هذا المنظر الحسي ، إلى طوية نفسه فيجد أن السماء قد رضيت عن الربيع فصارت صافية ، وأصبح البستان في حالة من السرور والفرح ، انسحبت على كل الأشياء في هذا البستان من ماء وورد وزهور ، حتى الشمس بأشعتها التي تملأ الكون دفناً وحرارة ، خلق عليها من إحساسه وعاطفته فجعلها ضاحكة مسرورة . ويمتزج هذا السرور بتلك الحركة الرقيقة المنبعثة من ذلك النسيم الذي يلف جنبات الكون ، فيغري الطيور بالغناء والشدو .

وهو هنا متأثر " بابن الرومي " الذي كان مولعاً بتصوير الطبيعة ووصفها ، إذ كانت تمثل عنده حياة النفوس والقلوب ، وأنها حياة تتحرك في كل المخلوقات من أرض وسماء ونبات وطيور وماء وأثمار ، إلى غير ذلك من عناصر الطبيعة العديدة .

وعلى الرغم من ذلك فقد كان " العقاد " هنا أكثر عمقاً في تصويره للوجد الذي ألم به من المعشوق من " ابن الرومي " ذلك أن الأول صور الوجد في حديثه إلى الزهر الذي أمضه ثقل الثمار عليه ، وتناوب الطير فوقه ولا عليه أن يحزن مثل المحب . لأنه ليس بإنسان ظاميء معذب لكنه ريان ناعم الملمس ، غض البدن ، طري القوام .

وصورة أخرى " للعقاد " في هذه القصيدة ، تتمثل في تصوير إحساسه بمحبوبته ، فيخلق على الكون - بما فيه من عناصر مختلفة - تجربته وإحساسه ،

فيصف هذه المشاهد من خلال آثار المحبوبة في نفسه ، فيرى الكون وقد غمره الفرح والسرور ، وسرت في أرجائه البهجة حتى لم يعد يتسع براحبته لهذا الفرح ، وذلك العرس الذي أقامته الدنيا ، وانشغل عنه الحب الذي أضناه الوجد والهوى . يقول : " العقاد " :

ضاق الفضاء بما يحويه من فرح

فكل ما فضاء الله فرحان

إلا المحب الذي لا حبه دنس

ولا مودته خب وإدهان

نفاه عن عرس الدنيا شواغله

إن الحداد عن الأعراس شغلان

فهذه صورة دقيقة وعميقة تلاءمت أجزاءها وعناصرها ، وأوشكت على الكمال . لولا تورطه في بعض الصور الجزئية التي أدت إلى تمزيق النسيج المتلائم وتهتك النظم والوحدة التي كان يتزعمها وينادي بها في النقد ، ومن هذه الصور الجزئية استعماله لكلمة (ضاق) التي تدل على الضيق والانحسار وكان الأولى أن يستعمل كلمة (فاض) بدلاً منها لتناسب مع عناصر الصورة ، كما استعمالها فيما بعد في قوله :

فاض الهيام على قلبي ففاض به

نبح له من وراء الدمع شيطان

كما جاءت كلمات : خب ، ادهان ، نفاه ، شواغله ، الحداد ، شغلان في غير مواضعها ، مما شوه الصورة ومزق وحدتها ، ولم تعبر عن مراده وإحساسه تعبيراً دقيقاً . ومن الصورة التي برع " العقاد " في تنسيقها ونسجها ، صورة حركة نفسه وما بداخلها من خواطر ومشاعر ، ومن ذلك تصويره لتلك الليلة التي نعم فيها

بالوصل مع حبيبته بأنها لن تعود ؛ إذ حطمت أنوال حائكها ، وقد كان العيش قبلها شوقاً ينعم به وبعدها كان ذكراً وتحناً ، وفي أثنائها تمتع بالوصل ، وألوان من الجنات الدائمة حتى طالبت ولا يدري أهى ليلة أم أنها أزمان ؟ ، يقول العقاد " في وصف هذه الحركة النفسية :

يا ليلة حطمت أنوال حائكها

فلا يحاك لهما في الدهر ثنيات

العيش من قبلها شوق نعمت به

والعيش من بعدها ذكر وتحنان

طالبت ولا غرو فالجنات خالدة

وفي الوصال من الجنات ألوان

أصبحت والله لا أدري لبهجتها

الليلة سلفت أم تلك أزمان

فقد جمع في هذه الصورة حركة نفسه ومشاعره في الماضي والحاضر والمستقبل. وقد جمعت الليلة كل هذه الأزمان ، واتسعت كاتساع الجنات ودوامها.

لذا جاءت الصورة منتظمة الأبعاد ، متناسقة الألوان وخاصة ألوان الجنات المليئة بشتى الثمار ، مما جعل الصورة معبرة عن نفسية " العقاد " تعبيراً دقيقاً .

وإذا كان " العقاد " قد أوقفنا بهذه الصورة على شعوره أثناء لقاء محبوبته ففي المقابل يصور فقدته لها تصويراً ينم عن حبه وولفه وشدة وجدده ومعاناته من هجرها ، فيقول :

يا جوهرأ بت أرعاه على أمم

رعى الشحيح ، ومالي فيه سلطان

ما في يدي منه لا عين ولا أثر
ولي عليه مغاليق وأعيان
قد نلت ما نلت من حظ به عرضاً
وقد تولى ، فحظى منه فقدان
إني إلى الرعى من عينيك مفنقر
يا ضوء قلبي ، فإن القلب مُدجان

فقد استطاع أن يجمع في هذه الصورة بين صفات محبوبته ، ذلك الجوهر المضيء الذي بات يرعاه عن كثب وبين ذلك القلب المظلم ببعد محبوبته عنه ، كما أن استعماله لكلمة (الرعي) أعطت للصورة مساحة أكبر وأرحب مما لو استعمل كلمة (النظر) ؛ إذ إنها - أي الثانية - تعني النظر فقط ، أما (الرعي) فتعني الرعاية والاهتمام والمسئولية تجاه المحبوب ، وهذه صورة جزئية أسهمت في إبراز الصورة الكلية وإيضاحها.

وبعد .. فقد استطاع الشاعر أن يعبر عن تجربته أصدق تعبير وأجمله ، من خلال معالجة فنية أوقفنا على شاعريته وتمكنه من أدوات فنه ، التي ساعدته في الإتيان ببعض الصور العميقة والدقيقة - في الغالب - وإن اتسم البعض الآخر بالغموض والإبهام .

كما ينبغي أن نشير إلى أن " العقاد " في معارضته هذه قد استفاد كثيراً من " ابن الرومي " في جوانب متعددة .

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع	م
٣ المقممة	١
٥ الأدب في العصر الجاهلي	٢
٤٩ النثر الفني في العصر الجاهلي	٣
٧٤ الشعر في العصر الأموي	٤
١١٦ الخطبة في العصر الأموي	٥
١٢١ خطبة لعمر بن عبد العزيز	٦
١٢٢ الخطبة البتراء لزياد بن أبيه	٧
١٣٣ ملامح تطور وازدهار الأدب في العصر العباسي	٨
١٣٦ أبو العتاهية وأثره في الزهد	٩
١٤٥ قصيدة أبي العتاهية في مخاطبة الدنيا ونمها	١٠
١٦٣ تعقيب على القصيدة	١١
١٦٥ من الفنون النثرية في العصر العباسي	١٢
١٦٨ من رسالة الغفران لأبي العلاء المعري	١٣
١٧٥ تحليل وتعليق	١٤
١٨٣ نونية العقاد	١٥
١٩٥ أولاً : لمحات من حياة العقاد	١٦
٢٠٠ ثانياً : دراسة النونية (الخب الأول)	١٧
٢٣٢ الملامح الفنية والتعليق	١٨
٢٤٣ الفهرس	١٩